مذكرات

آخر سفير بريطاني في طهران

في عهد الشاه



الدار العربية للموسوعات

مذكرات

آخر سفير بريطاني في طهران في عهد الشاه

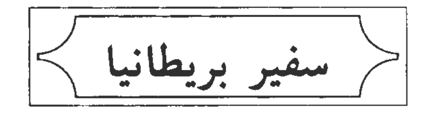
مذكرات

آخر سفير بريطاني في طهران في عهد الشاه

١٩٧٤ - ١٩٧٩م

تأليف

أنثوني بايسونز



ترجمة

د. خالد سليم أحمد

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣١هـ



الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

خالد العاني: مؤسسها ومديرها العام

هذا الكتاب

عمل السيد أنثوني بارسونز سفير لبريطانيا في إيران اعتباراً من آذار ١٩٧٤ وحتى نهاية كانون الثاني ١٩٧٩ إذ غادرها بعد أيام قلائل من مغادرة الشاه وعائلته إلى منفاهم في مصر. لقد شهد بارسونز إنحسار السلطة البهلوية عن كثب من داخل قصر نياوران. حيث كان على علاقة طيبة بالشاه وكذلك شاهده في سفارته، وفي شوارع طهران المضطربة. ويمثّل هذا الكتاب سرداً نزيهاً ودقيقاً لكل مرحلة من مراحل ذلك الإنحسار. ويتضمّن الكتاب أيضاً عرضاً للتقارير التي كتبها بارسونز للحكومة البريطانية وسجلاً لما قاله للشاه، ولما شعر به شخصياً وفكّر به في حينه.

يتساءل بارسونز قائلاً: لماذا فشلت أنا رغم كل خبرتي في المنطقة من رؤية ما كان يبدو وأمام ناظري وشيك الوقوع؟ ويجيب عن ذلك بأن سبب فشله لم يكن في الواقع نتيجة نقص المعلومات بل في قصور تفسيرها إذ كان ذلك التفسير متأثراً بالمبادئ التاريخية العامّة بدلاً من استنباط الدرس التاريخي الملائم من ماضي إيران لقد حاول الشاه جاهداً تحويل إيران إلى شيء ما هي ليست منه بشيء كان يحاول تحويلها إلى دولة ذات اقتصاد صناعي حديث. لقد أحكم قبضته الحديدية في فترة الإزدهار النفطي بمساندة القوات المسلحة له

وبمساندة جهاز الأمن الرهيب المعروف بالسافاك. وعندما انهار الإزدهار، وخلّف أثره طبقة بروليتارية ساخطة لا جذور لها، اختار الشاه تلك اللحظة التي كانت أسوأ اللحظات، لرفع الغطاء السياسي واتّخاذ إجراءات بإطلاق الحريات. وسواء كان ذلك نتيجة لضغط الولايات المتحدة الأميريكية وبالذات حملة حقوق الإنسان التي دعا لها جيمي كارتر أو لم يكن فقد أعدّ الجوّ المناسب لإتّحاد القوى التقليدية الثلاث: الملالي والمفكّرين وأهل السوق ولقيامها بتشكيل المقاومة (رغم أن بارسونز لا يعتقد بأن الولايات المتحدة كانت وراء ذلك، لقد اتّحدت هذه القوى بصورة لم يستطع بارسونز إدراكها، وكذلك لم يستطيع الشاه أيضاً، إلّا بعد وقت متأخر، وكانت قدرة الإمام الخميني في السيطرة على هذه القوى فكرياً وتوجيهياً بسرعة شكل صدمة إضافية أخرى.

ومن خلال تحليل السياسات الداخلية في إيران كما رآها بارسونز خلال السنوات التي سبقت الثورة يقدّم لنا سجلاً لا ينسى لتلك الأشهر الأخيرة للحكم البهلوي: إذ يصف دائرة الأربعينية التي أقيمت حداداً على أرواح أولئك الذين قتلوا في أحداث الشغب والمواجهات الدامية التي جرت في ساحة جالة بين الجيش والمتظاهرين ويصف أحداث تلك الليلة المشوّشة التي سمح بها الجيش للمعارضين بأطراف طهران (بما فيها جزء من السفارة البريطانية) بهدف إجبار الشاه على قبول قيام حكومة عسكرية ويصف المواكب الهائلة التي سارت في أيام الأعياد الإسلامية وأيام عاشوراء والمظاهرات التي خرجت إلى الشوارع. ويعتقد بارسونز بأن هذه الأمور مجتمعة هي التي أدّت إلى سقوط النظام أكثر من أي سبب آخر.

حاول السيد بارسونز إيجاد إجابات الأسئلة التي شغلت فكره منذ مغادرته طهران فلو توقّع بارسونز ما كان سيحدث هل كان سينصح الشاه بتبنّي سياسات مختلفة أم هل كان سينصح بريطانيا لتغيير سياستها تجاه

إيران؟ أم هل كان بارسونز محتفظاً جداً في إنعدام النظر في الصراع الداخلي في إيران في محاولة لتجنّب احتمال تأزم علاقته بالشاه؟ لم يعتمد في إجاباته على الإدراك المتأخرللحوادث بعد وقوعها بل اعتمد على تفكير واضح حول الأمور وهي تتكشّف أمامه وعليه فقد قدم صورة دقيقة جداً عن الشاه في سنواته الأخيرة في الحكم: كان الشاه أتوقراطياً لكنه كان متردداً بشكل غريب. وكان حاذقاً وحصيفاً فيما يخصّ الشؤون الخارجية ورغم ذلك كان بعيداً جداً عن شعبه وعن الواقع الذي يحيط به. لقد قدم بارسونز في كتابه هذا وجهة نظر متجانسة ونقدية لعملية سقوط ملك، وانفجار ثورة.

الدار العربية للموسوعات

تمهيد

خلافاً لتفادي الآخرين، فقد قدمت لي الأميرة بالي خدمة أنا ممتن منها. لقد تساءلت كثيراً عن الدافع الذي كان وراء شروعي بتأليف كتاب «الثورة الروسية» وكانت من الطيبة بحيث أوضحت لي ذلك.

عن السير جورج بجنان «مهمتي إلى روسيا»

يمثّل هذا الكتاب سجلاً شخصياً لا يدّعي أن يقدم تفسيرات علمية. حيث أن التاريخ الحافل لإيران في السبعينات ما زال، في الواقع خافياً عن أنظار العالم الذي له اهتماماً به. وهو لا يمثّل تاريخاً حقيقياً كاملاً لإيران في سنوات الشاه الأخيرة بما فيها سنوات الثورة. لقد ظهر العديد من أمثال هذه الكتب. كتب بعضها الصحفيون وأشباه الأكاديميين وبعضها أولئك الذين أرادوا تبرير أنفسهم وفهمهم للأحداث بعد وقوعها بدافع الغرور وبعضها الآخر كتبه أولئك الذين يشعرون بأنهم مضطرون للقيام بمثل هذه الكتابات لأسباب شخصية أو سياسية. من أجل وضع اللوم في سقوط الشاه على قوى خارجية دخيلة. أن دوافعي للكتابة مختلفة.

أولاً: لقد كان عليّ أن أتخلص من ذكرى تجربة حياتي الدبلوماسية التي كانت من أكثر تجاربي غنىً وأشدّها ضغوطاً دون شك، وهل ثمة سبيل للتخلّص منها أجدى من تدوينها على الورق؟

ثانياً: وهذا هو الأهمّ، رغبتي في أن أجد أجوبة عن أسئلة معيّنة ما زالت تلحّ عليّ منذ غادرت طهران أواخر كانون الثاني عام ١٩٧٩، بعد أيام قلائل من هروب الشاه وعائلته إلى المنفى. هل كان بأمكاني، بصفتي سفير بريطانيا أن أكون أكثر تبصّراً في السنوات التي سبقت قيام الثورة؟ وهل كان بإمكاني أن أتوقّع أن قوى المعارضة للشاه ـ التي تضمّ الطبقات الدينية وأهل السوق (البازار) والطلبة ـ سوف تتحد لتدميره رغم الدوافع المختلفة التي تحرك كل مجموعة من المجموعات المعادية للنظام؟ وهل كان بإمكاني أن أعرف سلفاً بأن أتّحاد هذه العناصر المدنية غير المسلحة سوف يثبت بأنه قوي جداً للإطاحة بنظام يستند في قوّته إلى جيش قوي، ومسلح جيد، ومجهّز خير تجهيز وموالي للسلطة، يسانده جهاز أمني يبدو مرعباً ـ وهو جهاز السافاك الرهيب؟ فلو أني كنت قادراً على أن أتغلغل في أعماق المجتمع الإيراني، هل كنت سأنصح حكومتي وكذلك القطاعات البريطانية العامة والخاصة في تبنّي سياسيات مختلفة ـ في كل الميادين بما في ذلك علاقتنا السياسية والإستراتيجية مع الشاه وروابطنا التجارية والمالية مع إيران، وشؤون النفط ومبيعات المعدات العسكرية... إلخ؟ ولو كنا قد تبنّينا سياسات مختلفة تعبر الأفق الرحب لتعاملنا مع إيران هل كان ذلك سيقلل من الدمار الذي لحق بالمصالح البريطانية عندما حلّ الإنهيار؟ إن جميع هذه الأسئلة جديرة بأن تطرح وسأبذل قصارى جهدي للإجابة عنها بإمانة.

أهدي هذا الكتاب للعديد من الناس، لأصدقائي الإيرانيين المقربين وخصوصاً أمير عباس هويدا، وغلام رضا نكبة، وعباس علي خلعت بري الذين ساروا إلى حتفهم عشية الثورة بشجاعة رهيبة يقتدى بهما، وللكثيرين

الذين عرفتهم شخصياً والذين واجهوا زمر الإعدام ولأصدقائي الأعزاء الذين يعيشون الآن في المنفى حيث كانت لنا مناقشات عدّة حول الأحداث التي عشناها سوية، وأخيراً لأولئك الإيرانيين الذين يظلّون مقتنعين بأن بريطانيا وأمريكا أو ربما أمريكا وبريطانيا قد رتبتا أمر سقوط الشاه، ونفذتا وثبتتا آية الله الخميني بدلاً عنه. لقد كتبت لي سيدة إيرانية عام ١٩٧٩ قائلةً أنا أتوجع لمأساة بلدي، ولكن القوى الكبرى أرادت أن يكون الأمر كذلك، وماذا كان في أيدينا أن نفعل؟ وقد تمادى رجل إيراني في خريف العمر، قد درس في بريطانيا وتزوّج من إمرأة إنكليزية منذ مدة طويلة، ليقترح على أحد موظّفي سفارتي، يوم مغادرتي طهران بصورة نهائية بأن البلد سوف يعيش في سلام لو تصرف الأمريكان بروح رياضية وأقرّوا بهزيمتهم على أيدي البريطانيين. يقول هذا الرجل بأننا لن نغفر للولايات المتحدة كسرها احتكارنا النفطي في إيران في مطلع الخمسينات، بل انتظرنا الفرصة الملائمة بصبر - لمدة ربع قرن - وأخيراً وجدنا السبيل خالياً لنطرقه. لقد أستفدنا بالطبع من الملالي العملاء التقليدين للبريطانيين للإطاحة بالشاه الذي أصبح أخيراً ربيب الولايات المتحدة. لقد انتصرنا وذهب الشاه وإن « الإمام الخميني» في طريق العودة. وتساءل الموظّف فيما إذا كان من المجدي أن يردّ عليه بأن هذه النظرية مجرّد هراء، ولكنه ردّ قائلاً «ولا بدّ أن تقول هذا بالطبع» أنا أعلم هذه. لقد درست في بلدكم وإني متزوّج من سيدة إنكليزية ولا يمكنك أن تخدعني.

أنا أخشى أن هذا العدد من الإيرانيين، أي أولئك الذين يقبلون هذه المقولة الإيرانية على أنها حقيقة لا تقبل الشك، سيجدون روايتي للأحداث مخيباً لآمالهم فهو لا يحوي الكشف عن مكائد قد رتبت بإحكام ضد الشاه أو حكومته أو مؤامرة سرية بيني وبين آيات قم ومشهد. وسوف لن أقدم تفسيراً كما يدور من تساؤل هو لماذا كان على

بريطانيا أن تتبنّى سياسية مدمّرة جداً لمصالحنا الوطنية؟ وسيجد أولئك المداهنون الذين يؤمنون بوجود يد بريطانيا الخفية في كل مكان، إن قصتي تافهة وغير مقنعة. وأنا آمل على الأقلّ أنهم سوف يذكرون لصالحي أنني تجشمت مثل هذه المتاعب الكثيرة، حتى أثناء تقاعدي لذر الرمال في عيونهم.

المؤلف

الفصل الأول

خلفية مهمتي

يبدو لنا أن للمعرفة المستمدّة من التجربة قيمة محدودة في أحسن الأحوال وذلك أنها تفرض نمطاً معيّناً ثم تعود لتدحضه.

عن ت. س. البرت أيست كوكر

كانت أزمة الشرق الأوسط في أوج تفاقمها في خريف عام ١٩٧٣ عندما تمّ استدعائي من مكتبي في دائرة الخارجية لأقابل رئيس الإدارة. كنت مشغولاً تماماً ومنفعلاً جداً وممتعضاً من تحويل فكري إلى مساءلة إدارية أياً كانت. وسرت إلى غرفته متعكر المزاج ليقول لي بأني سأكون السفير القادم إلى طهران، وإن ذلك متوقف على الإجراءات الشكلية الاعتيادية. هل اندهشت؟ بالطبع لقد توقعت أني أقضي بالتأكيد سنة أخرى في لندن بمنصب السكرتير المساعد لشؤون الشرق الأوسط، وبعدها لو دار في خلدي مثل هذا الأمر فإني سوف أعيّن سفيراً في أحد الأقطار العربية أو تركيا وهي أقطار عملت فيها من قبل فأنا لم أعمل في إيران ولم أتوقع أن أمني نفسي بمثل هذا المصير.

كيف أعرف الوظيفة المثالية لدبلوماسي محترف في ما وراء البحار أن هناك أقطار عديدة يكون العيش فيها مقبولاً، حيث الشعب والحكومة ودودان وحيث المصالح البريطانية مهملة والحياة الشخصية ممتعة ولكن

الأعمال الرسمية محدودة ومملّة ويصحّ عكس ذلك في أقطار أخرى حيث توجد مصالح بريطانيا جوهرية تسير في خطّ واحد مع الدبلوماسية النشطة ولكنها تتمّ في بيئة معادية متشددة وربما في مناخ في غاية السوء ففي أماكن كهذه، تدفع الحياة العائلية «ثمناً» باهظاً لحساب الإداء المهني أن من النادر أن تجتمع العناصر الإيجابية كلها في مكان واحد أنه لعمل ممتع ويحمل صفة التحدّي في قطر تجري فيه عملية ديناميكية للتغير الاجتماعي والاقتصادي وهو ما زال يتألف تحت تأثير عريق ماضي حافل وطويل، وهناك فرص غير محدودة لإكتشاف أماكن بارزة في تناقض مشاهدها المذهل، وفيها نغمة رومانسية من التاريخ ما زالت حتى ذلك اليوم بالنسبة لي مجرّد أسماء في كتب فقط ـ كبحر قزوين، وشيراز، وأصفهان، وبيرسيرلين تمنح سفارتنا في طهران تشكلية تامة من الإمكانات ذات النوعية الخاصة كما اعتقدنا زوجتي وأنا في خريف عام ١٩٧٣ هيأنا أنفسنا للمستقبل بروح من الإثارة والبهجة. اعترف بأن معرفتي كانت ضئيلة عن بعض ملامح سفارتي في طهران. لقد عرفت الشاه معرفة بسيطة واحترمت ذكاءه وسلطته ولكني أنفر بعض الشيء من المظاهر الرسمية والأبهة التي تحيط البلاط كارتداء الزي الرسمي وصرامة البروتوكول والشكليات التي تناقض الحياة اللاشكلية التي اعتدت عليها في العالم العربي.

كان رئيس الوزراء أمير عباس هويدا ـ لحسن الحظّ ـ صديقاً لي طوال (١٥) سنة وقد عرفت عدداً من وزراء وموظّفيه الكبار وأحببتهم من خلال تعاملي مع إيران في دائرة الخارجية والكومنويلث. الا يمتعض الإيرانيون من علاقتي السابقة بالعرب؟ كنت أعلم بأنهم فخورون جداً بأصلهم الآري وينظرون إلى جيرانهم العرب بشيء من الإزدراء. ألا يعتقدون بأن سفيراً من دائرة باريس ـ واشنطن هو مبعوث أكثر ملائمة من شخص يربطه خيط طويل بالعواصم العربية في أوراق اعتماد.

لقد كانت هذه الأمور تشكّل قلقاً «بسيطاً» على أية حال فلم يعكر هذا القلق صفو حماستي إلاّ قليلاً، تمتلك إيران عوامل الجذب لي، ذلك الجذب الذي مارسته على الإنكليز لقرون عدة، وربما يعود ذلك إلى أن معرفتي بالبلد كانت من خلال الآخرين. لقد شاركت أيضاً في صياغة السياسة البريطانية تجاه إيران بصورة مباشرة لما يقرب من ثلاث سنوات، وكنت أعي تماماً أهميتها لبلدي - كمصدر لنفط الخام لكونها شيكاً ستراتيجياً في منطقة مضطربة من العالم ولكونها سوقاً للبضائع الإنكليزية العسكرية منها والمدنية ينمو باستمرار. وقد أفادتني خبرتي بأن الدبلوماسية الشخصية قد تلعب دوراً في تطوير هذه المصالح.

وماذا عن الوضع الداخلي والإمكانات المتاحة في نظام الشاه في بلده والتي فيها لبريطانيا الكثير مما تراهن عليه. وهو موضوع هذا الكتاب؟ لقد اطّلعت بشكل مناسب على ملاحظة الحكومة البريطانية عن إيران في أوائل السبعينات من خلال الفرصة المتاحة لي في دائرة الشؤون الخارجية عندما كنت اتهيأ للمغادرة إلى طهران. كانت هناك عدة عوامل سلبية. كان سجل حقوق الإنسان في نظام الشاه سيئاً. فقد كان الاعتقال العشوائي والتعذيب والسجن دون محاكمة، والإعدامات الفورية واضطهاد الطلبة والعمال المتمردين من الأمور الشائعة. ولكن متى كانت الحالة غير ذلك في إيران وفي العديد من بلدان المنطقة؟ أكانت حكومة الشاه أسوأ من الحكومات التي ترتبط بها بريطانيا بعلاقات وثيقة؟ أم كانت تبدو كذلك ببساطة لأن الشاه قد أصرّ على أن إيران تعتبر بالمعايير الغربية جزء من العالم الغربي؟ مما لا شك فيه أنني أبلور رؤية أفضل عندما أكون هناك. نعرف أن الطبقات الدينية كانت تعارض بعناد وجهة نظر الشاه في تحويل إيران إلى دولة صناعية حديثة. ونعرف كذلك أن نظام حكومة الشاه الدكتاتوري القمعي قد أثار امتعاضاً واضحاً لدى العدد المتنامي من الطلبة. وكانت هناك مجموعات صغيرة من الإرهابيين في أغلب

الأحوال تقوم أحياناً بإغتيالات توجه عادة إلى أفراد السافاك أو الضباط العسكريين الأمريكان. وكانت هناك اضطرابات في العديد من المجمعات الجامعية، ولكن لا يبدو أياً من تلك المظاهرات تمتلك تأييداً واسعاً ولم يكن هنالك اتجاه لزيادة حوادث العنف.

وقد بدأ الشاه بالمقابل، يمتلك زمام الأمور أكثر من المعتاد في هذا المجال لإبعاد قوى المعارضة عن التأثير من خلال التطور الإجتماعي والاقتصادي المخطط له لتغيير الوضع المادي لشعبه. فقد أحبط مناورات كل العناصر التي كانت في الأساس منافسه له والتي كان مضطراً لأن يقاسمها القوّة وتمكّن من تحييدها. فقد استبدل الأحزاب السياسية القديمة بصورة ديموقراطية من ابتداعه وجعل مالكي الأراضي النبلاء من رؤساء القبائل عاجزين وذلك من خلال إجراءات الإصلاح الزراعي في الستينات وسحق معارضة الطبقات الدينية والتي لم تعد تشكل تحدّياً خطراً على النظام منذ عملية القمع الدامية ضدّ المشاغبين في سوق طهران عام ١٩٦٣. وكانت الحكومة تتكوّن من مجموعة من الفنيين لا تمتلك فئة تدعمها سياسياً بل وكانت تعتمد كلياً على رغبة الشاه. وكانت القوات المسلحة وقوات الأمن موجودة وموالية للشاه قائدها العام، كانت إيران خلال العقد الماضي على العموم، نموذجاً للهدوء إذا قورنت بمعظم دول العالم الثالث مع إمكانية التطوّر التي تعززها زيادة أسعار النفط ولم يبدو ثمة سبب يمنع الشاه من الاستمرار في سياسته.

وكان مصدر قلقنا الوحيد هو أن النظام قد أصبح شديد الاعتماد على شخص واحد هو الشاه وإن إزاحته من المشهد نتيجة إغتيال أو مرض أو حادثة يتعرض لها سوف تخلق فراغاً كبيراً في السلطة وقد شعرنا وللسبب ذاته، بأن الشاه قد أصبح معزولاً بصورة متزايدة وبات معتمداً على تأييد

القوات المسلحة وقوات الأمن. وقد أصبح من الصعب أن نتصوّر كيف كان بأمكانه أن يتوقع تحقيق حلمه في التحوّل الاجتماعي والاقتصادي الشامل للمجتمع الإيراني دون القيام بتحويل سياسي مواز لهما. وبعبارة أخرى دون تمكين شعبه من المشاركة في عمليات اتخاذ القرارات التي كانت تؤثر في حياة أفراده تأثيراً كبيراً.

لقد قرّرت تحرّي جميع هذه المسائل عن كثب عند إقامتي في طهران، وهنالك دوافع فكرية، بالإضافة إلى المتطلبات المهنية المتمثّلة بإسداء نصيحة صادقة للحكومة البريطانية والقطعات البريطانية العامة والخاصة عن الوضع الداخلي تدفعني إلى أن أراقب أولاً بأول صورة إحدى دول العالم الثالث القلائل التي أوشكت عموماً، كما لا يعتقد على اختراق حاجز التخلّف لقد قال لي الكثيرون عندما كنت أجمع المعلومات الضرورية عن إيران بأنها يابان المستقبل أو كوريا الجنوبية أو البرازيل. هل سيحدث ذلك فعلاً؟ لقد كانت للبلاد قيادة قوية وإن ما شاهدته من بناء إيران من قبل الحكومة ومؤسّسات المقاولات الخاصّة قد أدهشتني وسوف لن تعود هنالك شحة في المال. لقد كان من المحتمل نجاح مطامح الشاه أو فشلها يعتمد على استمرار هذه السياسة.

لقد تأكّد لي بأن مراقبتنا للمشهد الداخلي يجب أن تدار بتعقّل. وكان هدفي الرئيس هو الاستمرار في بناء علاقة وطيدة وطبيعية مع الشاه وحكومته دون أن نقع في مصيدة ما تعكسه تجارب الماضي. ولِمَ لبريطانيا من سمعة تستحقها حول التدخل في شؤون إيران الداخلية طيلة أكثر من قرن. لقد زعم بأننا قد ساعدنا في جلب والد الشاه إلى العرش وبأننا مشتركون بالطبع في حملة على التنازل عنه عام ١٩٤١ وفي استخلاف ابنه، وقد تمّ ربطنا تقليدياً بالجماعات الدينية الإيرانية وكذلك بالتجمّعات السياسية الأخرى المعارضة للشاه حالياً لقد تجمّعت كل هذه الأمور وراء الفترة الحاسمة. وهي تأميم النفط الإيراني على يد الدكتور

مصدق في أوائل الخمسينات والتسوية اللاحقة بعد سقوطه ولكن ذاكرة الإيرانيين بعيدة الغور وعُقد الشاه من بريطانيا كانت ماثلة في ذهنه بوضوح... لقد كنت بحاجة إلى أن أراقب المشهد السياسي دون إثارة الشك حول التدخل اللامشروع في شؤون إيران الداخلية أو القيام بإتصلات سريعة فيما لو اكتشفت ستجرّ الخراب الكبير على علاقتنا بالشاه. سوف لن يكون هنالك «**تجسس على إيران**» في سفارتي.

الفصل الثاني

١٩٧٤ ـ ١٩٧٥

كانوا يكرهون السلطة الامبراطورية ويحتقرونها ولكن أغلبهم كان
على استعداد للإنحناء خنوعاً أمامها. نعم حتى أن خيرهم كانت
ترهبه القوّة الحقيقية التي تكمن تحت أبعة تلك العظمة.

عن جوزيف كونراد قلق

لم يطل بي المطاف حتى اكتشفت بأنه مهما كانت الفوائد التي ستجلبها سياسات الشاه إلى شعب إيران فإن السعادة لن تكون إحداها في طهران على الأقل لقد كانت طهران عام ١٩٧٤ رغم موقعها الرائق على سلسلة جبال البرز الشاهقة التي تعتبر قبة من الجليد تجسيداً لكل ما هو سيء في إنجازات الإنسان المعاصر. لقد كانت بشعة تمتدّ على غير نظام، لا تملك خصائص تميّزها ولا يحكمها نظام معيّن، وتعجّ بالمركبات والبشر مدفونة تحت سحابة من التلوّث، وبذلك فقد كانت إحدى المدن الرأسمالية البغيضة في العالم. كانت المدينة تنبض بفعاليات من كل نوع كالبناء والهدم والتجارة والصناعة والإدارة وجميع هذه الفعاليات إشارات على وجود اقتصاد مزدهر، ولكن الشعب على العموم بدأ وكأنه بالتأكيد يفتقد الحيوية والبهجة وكان متوتراً. لقد طغى تدفق «الحضارة العظيمة» على ما في الحياة التقليدية في العالم الإسلامي من ألفة

معروفة بين الناس ولم يحلّ محلها النشاط والحماس اللذان ينتظر أن يظهر في مجتمع يمرّ بعملية تغيير شاملة وسريعة.

ماذا كانت هذه الحضارة العظيمة التي يطبل ويزمر لها يومياً في الصحافة الموجهة وفي الإذاعة والتلفزيون بطريقة تتسم بالصرامة لقد اخترع الشاه عام ١٩٧٢ مصطلح «الحضارة العظيمة» هذا الذي ربما كان يعني في اللغة الإنكليزية ما هو مناف للطبيعة والعقل أكثر مما يعنيه بالفارسية وكان يصرح باستمرار أنه سوف يتحقق بنهاية الثمانينات لقد كانت الصورة التي أرتأى الشاه تحقيقها بجعل إيران دولة صناعية متطوّرة تماماً. وعلى أنها يابان آسيا الوسطى، صورة مادية عموماً. بل لقد تجاوز الأمر ذلك. فإيران حسب رأي الشاه جزء من الحضارة الغربية فصلتها عن شركائها ومكافئيها الطبيعيين مصادفة جغرافية. وإن الإيرانيين حسب رأيه آريون وليسوا ساميين وأن قابلياتهم ومواهبهم قد خنقها غطاء الاحتلال العربي والإسلامي الذي صاحبه قبل ١٢٠٠عام. وكان يرى لمهمته هي رفع هذا الغطاء والعودة بإيران إلى سابق عظمتها بين القوى العظمى. وهكذا لم تكن الحضارة العظيمة مجرّد مسألة رفع المستوى المادي للحياة لدى الشعب الإيراني، رغم أن ذلك كان أوضح مظاهرها، بل كان لها محتوى نفسي أيضاً فيجب العمل على غلونة[1] الإيرانيين للخروج بهم عن طريقتهم الإسلامية التقليدية البطيئة في الحياة ويقتدون أوروبا كما هي عليه في القرن الحادي والعشرين وسيتمّ ذلك في ظلّ قيادته الشخصية المهملة. إن أقرب مثل لذلك في التاريخ الحديث في المنطقة هو قيام مصطفى كمال أتاتورك أن يعود بتركيا إلى أصلها التركي، باتجاه معاكس لوضعها الإسلامي كما كان حال سكنة هضبة الأناضول. لقد جعل البلد أوروبياً عن طريق تحوير اللباس التقليدي وتحوير اللغة

---

(١) الغلونة: التنبيه عن طريق صدمة كهربائية «المترجم».

التركية باستبدال الخطّ العربي بالخطّ اللاتيني، وبدء برنامج صناعي وإنشاء مؤسّسات سياسية وفق النموذج الأوروبي وهكذا. وكان من أكثر المعجبين به رضا شاه والد الشاه الذي ارتأى ابنه بأنه قد اختير لتحقيق حلم أبيه.

شعرت خلال النصف الثاني من عام ١٩٧٤ بأني قادر على استخلاص بعض الاستنتاجات المؤقتة حول تأثير هذه السياسات الثورية (دعنا لا نشكّ بأن الشاه كان ثورياً) على الشعب الإيراني، ومدى احتمال تمكّن الشاه من ترجمة حلمه الطموح إلى حقيقة. لقد تحقق الكثير وما زال يتحقق بهذا الاتجاه دون شك، وخصوصاً بإزالة العقبات المالية السابقة. لقد انغمست البلاد برمتها في جنون من النشاط وأخذت الثورة الصناعية تنمو بسرعة في أغلب المدن وزودت المراكز المدنية القديمة، وخاصة في الأقاليم، والتي كانت تعتمد على الأسواق التقليدية، بساحات حديثة ومنشآت سكنية تخدم القطاعات الصناعية والتجارة. ولكن الإزدهار الذي بدأ أوائل عام ١٩٧٤ قد انتج توترات وتناقضات. فقد أدّى التدفق الواسع للنقود واستثمارها اقتصادياً عقب ارتفاع أسعار النفط في كانون الأول علم ١٩٧٣، دون أن تتحقق مقابل ذلك أية زيادة في الإنتاج إلى تضخم خطر لدرجة أن الحكومة اعتزمت بوجود تضخم بلغت نسبته السنوية ٢٠٪ وكان الرقم الحقيقي أعلى من ذلك بكثير. لقد أصبحت السكك الحديد الإيرانية البدائية عاجزة عن الوفاء بمتطلبات النقل واختنقت المطارات القليلة الصغيرة، وبدأ نظام القرون الوسطى في التراجع الداخلي للبضائع عاجزاً تماماً عن إداء وظيفته.

ولم يكن شحة المواد الاستهلاكية العامة أمراً مؤقتاً لا يتكرّر باستمرار. لقد كانت هذه الأعراض الناتجة عن التوسّع السريع جداً تهدّد خطط الشاه بالمخاطر بتهديد لاستقرار البنية الاجتماعية. كان القرويون

يتدفقون إلى المدن بحثاً عن الشوارع التي زعم لهم بأنها معبدة بالذهب لكنهم لم يجدوها كذلك وأصبحوا عندئذ دون جذور يقيمون في مناطق بروليتيارية غير صالحة للسكنى. أما القرى العاملة الماهرة فقد كانت شحيحة بصورة مثيرة لليأس ذلك لأن نظام التربية غير الناضج أخذ يتلكأ بتلبية الطلب المنطلق كالصاروخ وأخذت الطبقة الوسطى الجديدة، وهي المستفيد الرئيس من الحكم البهلوي بالإضافة إلى الأغنياء جداً تعاني من آثار التضخم فقد كان من الطبيعي على سبيل المثال، أن يدفع مدير من الدرجة الوسطى أو مثيله من موظّفي الدولة ٧٠٪ من راتبه الإجمالي بدلاً من الإيجار فقط وكانت الراديكالية الداخلية ومستوى كلفة بعض مشاريع الشاه المتحبّبة التي تتطلب أبهة خاصة تمزّق حياة سكّان القرى، فأزدادت تبعاً لذلك نسبة الشعور بالاكتئاب والاغتراب.

كانت إيران عام ١٩٧٤ ميداناً لتناقضات مدهشة. فلو أني ذهبت لزيارة مصنع حديث وخرجت بأحساس ينبئني أني قد رأيت شيئاً يناظر ما هو موجود في أوروبا الغربية هل ذلك يعني أن الوصول إلى الحضارة العظيمة بات ممكناً؟ ولو أني زرت سوقاً مزدحماً سأتركه بإنطباع بأن شيئاً لم يتغير في هذا البلد الذي هو أكثر البلدان تقليدية شاهدت أرصفة خرمشهر في رأس الخليج العربي وبقيت يائساً من أن التنظيم سوف يسري على الأكوام الهائلة غير المنتظمة من المكائن، وأكياس السكر وأكوام السمنت المتحجّر والبضائع الاستهلاكية المصنّفة. أن مشهد كهذا كان سيرهب الإله هرقل وأية قوّة فارسية غارقة في الحياة القروية التقليدية الطاعنة في القدم تقف على النقيض من منطقة واسعة للاستثمارات الزراعية التي تملّكها الأجانب حيث أزيلت القرى القديمة لتسهيل عملية استخدام المكائن الزراعية تاركة خلفها دون شك القرويين مكتظين في مجاميع متزاحمة من الأكواخ الحديثة دون أرض. وكانت هنالك إنفجارات خطرة نتجت عن تخريب المكائن الذي يقوم بها العمّال

انتقاماً من ربّ العمل في المنطقة. زرت منطقة حظر فيها الصيد قد انشأت وفق النموذج الغربي من أجل ازدهار المحيط الطبيعي حيث طردت منها القبائل الرعوية التي سجنت الأرض لقرون على أن يوقف ويسجن كل من يتجرّأ ويعود بقطعانه إليها. ولكن بدلاً من أن تصبح المنطقة مكاناً يمنع فيه قتل الطرائد أصبحت في الواقع حقلاً يصطاد فيه أركان النظام. لقد شاهدت تباهي الأغنياء في بذخهم في الشراء في شمال طهران والقذارة المقززة لسكّان جنوب طهران. كذلك شاهدت التطوّر الحقيقي الذي شهده مركز المدينة حيث أصبح منطقة للطبقة الوسطى وكانت السيارات التي تختنق بها الشوارع من طراز السيارات المجمّعة محلياً (بريطانية الصنع) التي تعود للطبقة الوسطى وليست سيارات الكاديلاك العائدة للأغنياء. رأيت قاعدة سلطة الشاه في المنشآت العسكرية الجديدة والثكنات الحديثة في طهران. الأقاليم وفي غطرسة الضباط والجنود الإيرانيين في شوارع طهران وأسواقها. لقد حضرت المشهد البديع لدورة الألعاب الآسيوية في الملعب الجميل الذي أنشأ لإستضافة الألعاب الأولمبية عام ١٩٧٤ وكنت أعرف بأن حوالي عشرة آلاف طالب قد يلقي السافاك القبض عليهم عشوائياً خلال فترة الألعاب الآسيوية فيما لو قاموا بالشغب. وما زالت ذكريات أولمبياد ميونخ ماثلة في ذاكرتي، لقد زرت الجامعات والمدارس حيث وجدت مقياس الثقافة الإنفجارية وعدم الارتياح والعداء للنظام في عدد من الجامعات حيث تظهر سيارات اللاندروفر العائدة «للسافاك» كأنها من المناظر المألوفة باستمرار لقد أذهلني الفعالية المحمومة التي جلبها الإزدهار النفطي، وكذلك صدمني مقدار الدمار الذي جلبه. رأيت القضبان تلوح عندما مرّرت أمام الضريح الكبير في مشهد، وكذلك الاحتقار الصريح من قبل الحاكم الإقليمي المعيّن حديثاً لمجمل التراث الإسلامي.

لقد كانت وجوه الملالي الصامتة تتناقض بوضوح مع الحياة المتحرّرة في بيوت التقنيين والمقاوليين في المنطقة الشمالية. من العمال الصناعيين الذين يتقاضون أجوراً عالية بالظهور وكانت القوات المسلحة موحّدة وقوية ومجهّزة بشكل جيد وموالية للنظام. وكان جهاز الشرطة متواجداً في كل مكان وفي كل زمان وكان عديم الرحمة.

أما الشاه فقد كان حازماً وأتوقراطياً ويمتلك السيطرة التامة. لقد كان من الصعب على المرء أن يتصوّر كيف كان من الممكن أن يسقط نظامه، حتى لو وقع له حادث أو مرض مفاجئ أو إصابته رصاصة الإغتيال، فمن المرجح أنه بعد فترة من الركود والاضطراب السياسي وحكماً يحتدم النزاع بين القوات المتآمرة وتنحل المعارضة ستنبثق حكومة مركزية قوية بأمرة الأمبراطورة وبمساعدة القوات المسلحة، لحين بلوغ ابنه سنّ الرشد لقد كانت إيران، حسبما اعتقدت في نهاية عام ١٩٧٤، رهاناْ جيداً لبريطانيا مثلها مثل معظم دول العالم كانت هنالك مجازفات بالطبع ولكنها ما كانت لتمنعنا من الإفادة من الفرص الاقتصادية الهائلة التي أتاحها تطلّع الشاه المتسرع للحضارة العظيمة.

كان لدي الكثير من التحفظّات، بالطبع ولكنها كانت تنصب جميعاً تجاه البلد على المدى الطويل. وكان واضحاً أن الشاه لن يحقّق أهدافه ضمن نظرية قصيرة المدى للزمن.. لقد قال لي أحد موظّفي سفارتي في هذا الخصوص أن النقلة إلى الحضارة العظيمة تشبه نقاط الحبر على قطعة قماش بكاملة. لقد كانت النزعات والتمزّقات التي سبّبها الإزدهار ظاهر للعيان أن إرتفاع أسعار النفط كان كارثة على إيران هذا ما قاله لي مصرفي إيراني حكيم في منتصف عام ١٩٧٤. ولم تكن أغلب المشاريع المفضّلة لدى الشاه واقعية أو عقلانية لم تكن لها علاقة بحاجات شعبه. لم تكن

لديه شعبية وربما لا يستثني من ذلك سوى محدثي النعمة والطبقة الوسطى الصاعدة والعاملين الصناعيين في حين كان الطلبة والجماعات الدينية معادين له. وكان هناك شيء بسيط من العنف والإرهاب، وكان هناك تضخم يفسد الآمال الصاعدة لدى جميع طبقات المجتمع. كانت الحكومة قمعية وفاسدة وغير كفؤة، في العديد من المناطق. وربما كان أبرز مظاهر عدم كفائتها هو فشل الشاه في أن يستقطب شعبه نحو سياسته. كان التخلّف الذليل والإذعان هو أبرز مظاهر النظام الإيجابية في حين كانت السلبية المتجهة هي السمة الغالبة على الشعب. كان الشاه يرغب بأن يقدم شعبه مبادرات على كل الأصعدة ولكنه لم يكن مستعداً لتفويض السلطة له. وكان على عجل كبير من أمره بحيث لا يستطيع أن يجازف بقبول التأخر الذي تفرضه المناقشة الجماهيرية الحقيقية على تحقيق حلمه. واتخذ الكثير من الإيرانيين هذا الأسلوب الاتوقراطي على أنه أمراً مسلّم به ولكنه كان يلقي رفضاً متزايداً لدى التقليد المتحرّر خاصة لدى الشباب الذي تثقف في الغرب والذي كان من المفترض أن يمثّل جمهور الشاه الديناميكي. وهكذا وحيث كان الوقت يضغط بثقل أكبر عليه، أصبح الشاه أقلّ ميلاً إلى منح الثقة حتى لوزراءه. وأصبح البرلمان يشبه كثيراً ختماً مطاطياً مستعبد أصبحت الصحافة تراقب عن كثب. وكان الإعلام الحكومي منمقاً ومتغطرساً وكانت الشرطة السرية كثيرة الإنتشار.

انصرم عام ١٩٧٤ وهو أكثر الأعوام حساسية في تاريخ إيران الحديث وخاصة في فترة السنوات العشرة الأخيرة منذ أن وطد الشاه سلطته ثانية بعد سقوط الدكتور مصدق عام ١٩٥٣ وكانت نصيحتي الواضحة للنشاط البريطاني وللجماعة المالية تلخص فيما يأتي:

إن إيران بلد من بلدان العالم الثالث،
ليس هنالك بلد في العالم الثالث تبدو
فيه مسألة تغيير النظام بشكل مفاجيء
مسألة مثيرة للدهشة، فإذا أردتم القيام
بأعمال هذا فعليكم بقبول المجازفة لذلك
عليكم أن تبيعوا حيثما أمكنكم ولا تقوموا
بالإستثمار إلّا إذا لم تستيطعوا البيع دون
ذلك، وإذا كان عليكم أن تستثمروا فافعلوا
ذلك ضمن الحدّ الأدنى واختاروا صناعات
تأتي فوائدكم منها مما تستوردونه
لتشغيلها من إنكلترا - مصانع تجميع بدلاً
من مواد متوفرة في إيران وضمن هذه
التحدّيات فإن إيران سوق جيد مثلها مثل
الأسواق التي يمكن إيجادها في العالم
الثالث وربما أحسن من أغلبها بكثير.

لقد دهشنا جميعاً من قصر فترة الإزدهار حيث انتهت منتصف عام ١٩٧٠ وكانت إيران مقبلة على عجز في الميزانية يبلغ بليوني دولار. ولما تعمّق الركود الاقتصادي في الغرب انخفض الطلب على النفط. وكان التضخّم المالي السريع في الداخل والخارج وانخفاض القيمة الشرائية للدولار قد خفضا القيمة الشرائية لإيران فالمشاريع التي تم تخمينها بمئات الملايين من الدولارات أصبحت الآن تكلّف البلايين. ومما زاد المشاكل تعقيداً شيوع الفساد. وهروب رؤوس الأموال إلى الخارج والأزمات في القوى العاملة على جميع المستويات والاختناقات الأساسية. وكانت الطلبات الشرهة للقوات المسلّحة والخطّة الخمسية

المضاعفة قد دخلتا ميدان التنافس. وبحلول الصيف تمّ إلغاء بعض المشاريع الكبيرة والطموحة أو تقليصها كمؤسّسات إنشاء آلاف الأسرة في مستشفيات ستيني وتجهز وتدار كلياً من قبل ملاك من الأجانب. وقد أهملت إعادة تنظيم جهاز التوزيع في إيران. أما غزو الشاه المشؤوم لسوق السكر العالمي فقد مات في موجة من الإتهامات التي واجهها. أما آلاف عجلات النقل الأمريكية التي طلبها الشاه لإزالة البضائع المتراكمة في موانيء الخليج العربي فقد غاصت في السواحل الملحية في بندر عباس، لم يكن لها سائقون وسوف لن يكون لها سائقون قط. وأصبح السعر لأول مرّة السمة الرئيسية لإرساء العقود.

لقد انقطع الإنفاق الحكومي وتمّ تمديد فترة إنجاز معظم المشاريع الدينية. وحدّدت الأسعار الداخلية بقوانين وتمّ تعيين مجموعات من أعضاء اللجان الأهلية لتخويف التجّار من أجل خفض أسعارهم لقد استهلكت حملة ضدّ الفساد وتمّت معاقبة عدد من التجّار في السوق والمقاولين حتى أن أحد أقارب الشاه كان عليه أن يختبىء لفترة. وقد طلب من الشركات الأجنبية توقيع شهادات خطّية تقسّم فيها بصراحة المبالغ التي دفعتها ولمن دفعتها عن عقودها وبإختصار لقد كان عاماً من الاعتدال في التقويم عقب التوقّعات الخيالية لعام ١٩٧٤. ولم يكن في منأى ريح التقشّف الباردة، ذلك الأسلوب الفارسي المعروف، سوى الجيش لقد رافق أحباط الآمال المبالغ بها لعام ١٩٧٤ توعك سياسي واضح تخلل جميع قطاعات المجتمع الإيراني وفي آب شعرت بحاجة لتحوير الصورة المشرقة نسبياً التي نقلتها إلى لندن في عام الإزدهار ١٩٧٤. كانت الجماعات الإرهابية المعروفة بعنادها السياسي تجمع بين عناصر راديكالية من المتطرفين اليمنيين والمتطرفين اليساريين. الذين كانوا يعملون بكفاءة متزايدة وحنكة وتنسيق. وقد وقعت في النصف الأول من عام ١٩٧٥ العديد من الإغتيالات السياسية بلغت اثنتي عشرة

حالة اغتيال سياسي حالتان منها كانتا موجهتين ضد اثنين من الضباط العسكريين الأمريكان وأحد موظّفي السفارة الأمريكية. لقد كانت هناك موجة من المتفجرات في الأقاليم منها إنفجارات في الجمعية الأمريكية - الإيرانية والمركز الثقافي البريطاني في مشهد وكان السافاك قادراً على احتواء هذا العنف ولكنه لم يكن قادراً على إنهاءه. وما هو أخطر من ذلك كله الاضطرابات والمظاهرات العنيفة في عدد من الجامعات بما فيها جامعات في المراكز المدنية مثل طهران وشيراز وتبريز والأحواز. وكان الشباب المثقّف مستلباً بشكل جدي وكان هنالك رباط يمكن إدراكه بين أهل الفكر بشكل عام والمجموعات الإرهابية المتطرفة. كانت الجامعات مكتظة جداً وتفتقر إلى الكادر ومستوى التدريس فيها رديء. وكان الامتعاض من الفساد، ومحاباة الأقارب، وقمع الحرية، وقمع النشاط السياسي العلني قد ترك الطلبة دون متنفّس سوى النضال. وهكذا كانت اللقاءات الرئيسية بين الأعداد الكبيرة من الطلبة والسلطات هي الهجمات بالعصي والجلد والاعتقالات الجماعية التي يقوم بها السافاك والشرطة فمن الطبيعي أن هذه الظاهرة قد عجلت سخط الشعب على النظام.

أما الطبقات الدينية أيضاً التي لم تغفر للشاه ولأبيه محاولته كسر سلطته حيث كانت تعارض النظام بشدة وتخشى تحوّل المجتمع الإيراني من مجتمع إسلامي إلى نموذج علماني غربي، وكانت في أفضل الأحوال محايدة وسلبية وفي أسوأ الأحوال معارضة إلى حدّ المشاكسة كانت تعلم بأن تأثيرها على الجماعات عميقة الإيمان قوي جداً ومع ذلك فقد كانت تخشى قبضة الشاه الثقيلة وإمكانية استخدامها. ولكن كان بين ظهرانيها رجال لهم متانة في الخلق وكانوا قادرين ولو طرقتهم الجراءة على إسداء تأييد كبير إلى الجماعات المتطرفة الذين تحوي فلسفتهم عناصر من المذهب الإسلامي.

إن من الصعب تخمين أين يقف الكسبة في السوق، الحراس، التقليديين للإقتصاد الإيراني الذين ما زالوا يشكّلون الأغلبية الساحقة في المدن. لقد كان السوق لعدة قرون الرافد الأول الذي قدم المادة الأولية للجماهير المدنية التي قامت بصورة دورية بتهديد الأنظمة المتتالية وكسرها. كان العاملون في السوق يعانون من ارتفاع درجة التضخم وكانوا يدركون بأن القطاع الاقتصادي الحديث الذي يقوم الشاه بتطويره بأضطراد سيدمر حياتهم فالسوق سلاح فعّال في يد كل واعية للهياج وكذلك يشمل القطاع الذي تستطيع الطبقات الدينية أن تستمدّ التاييد منه بسهولة. لقد تعامل الشاه بقسوة في السابق مع مثيري الشغب في السوق وكان آخر ذلك ما وقع عام ١٩٦٣ حيث تمّ قمعهم بالقضاء على مئات الأرواح. وكان أهل السوق في هذه الأثناء، هادئيين وكان اعتقادي أن الشاه سوف يتعامل بحزم مع أية مشكلة يقوم بها ذلك القطاع في المستقبل.

لقد وجدت ـ من وجهة نظر النظام ـ بعض الملامح الإيجابية في المجتمع الإيراني وفي تقديري فقد كان المزارعون القرويون ورجال العشائر الذين يمثّلون ٥٠٪ من سكّان إيران في حال أفضل تحت ظلّ الحكم البهلوي. لقد تغيّرت الحياة في القرية الإيرانية الاعتيادية قليلاً، لكن التغيّر الذي حدث كان نحو الأفضل. كانت هنالك مدارس في القرى في عموم البلد وكانت ثمة عيادات صغيرة ومشاريع لإسالة الماء والطاقة الكهربائية. لقد أنشئت الطرق الفرعية بربط القرى البعيدة بالمدن المحلية. وأصبح جهاز الراديو ترانستور والدراجة النارية يشكلّان بعض السمات العامة في القرية. ولم يعدّ القرويون أقناناً لدى مالكي الأرض غير الموجودين بينهم أو وكلائهم القساة، بالإضافة إلى هذا، فقد قامت حكومة مركزية بتهدئة البلد لأول مرة منذ عدّة قرون. لقد أصبح من الممكن الآن السفر في عموم إيران دون رفقة وبدون مضايقة وكان

القرويون معتادين جداً على عشوائية وقسوة الحكومة. بحيث لم يكن بأمكانهم أن يرفضوا فعلاً استمرارهم تحت ظلّ النظام الحالي. لقد كانت القرى، من الناحية الأخرى، صغيرة جداً ومشتتة جداً حيث يبلغ عددها ٦٠٠٠ قرية في بلاد تبلغ مساحتها مساحة أوروبا الغربية وبذلك لا يمكن أن تنظم أو يمكن تعبئتها لتأييد النظام أو معارضته ولهذا لم يكن للقرى تأثيراً بارزاً لتساهم في كونها مصدراً لتدفق السكان المتزايد في المدن.

والأهمّ من ذلك، كانت الطبقة المنظّمة من العمّال التي تتزايد رغم أنها كانت صغيرة نسبياً، في الصناعات الجديدة التي انشأتها برامج الشاه وتسكن قرب المدن جميعاً. لقد كان أفرادها أفضل حالاً بكثير مما كان آباؤهم يحلمون بأمكان تحققه، رغم التضخم والإخفاق المشوّش في الإزدهار. لقد منحتهم شحة الأيدي العاملة قوّة اقتصادية وأجور نقدية وارتفعت الفوائد الإضافية بسرعة حتى وصلت إلى ما وصلت إليه المستويات الأوروبية الغربية في بعض الأحيان. لم يكونوا بحاجة إلى اتّحاد مهنية مستقلّة لإصلاح حالهم وكان على أرباب العمل أن يتنافسوا بشدة من أجل الحفاظ على الأيدي العاملة والتي يمكن أن تنتقل إلى المصنع المجاور فيما لو رفضت مطالبها. لقد أصبحت الأجور العالية والسكن الرخيص للعمال وحضانات الأطفال وأجور العمال لأيام العطل سمات عامة وبدأ العاملون وعائلاتهم منشغلين تماماً ببناء أنفسهم في المجتمع الحديث الإستهلاكي. ولم يكن لديهم ثمة سبب مادي لاتباع أي نداء للنهوض وإسقاط النظام الذي قدم لهم الكثير ليعيشوا في بحبوبة من العيش عرفوها حديثاً.

لقد كان المستفيدون الرئيسيون من المسيرة نحو الحضارة العظيمة هم دون شك أفراد القوات المسلحة ومحدثوا النعمة بين الطبقة العليا والطبقة الوسطى كالتقنيين والموظّفين الحكوميين والصناعيين،

والمصرفيين والمقاولين، والسماسرة وما شابه. وكما هو ظاهر فإن هذه المجموعة الأخيرة كان يستحوذ عليها التقدّم المادي. وكانت الأشباح الرئيسية التي تطاردها هي التضخم المادي وارتفاع الأسعار وارتفاع الإيجارات لقد عملت هذه العوامل في منتصف عام ١٩٧٥ على زيادة الامتعاض بين أفرادها ولكنهم ظلّوا مؤيدين للنظام بشكل عام. فإن أية حكومة مرتقبة لإيران لا يمكن أن تفعل لهم ما فعلوه البهلويون. وبالمثل، لم تكن هنالك علاقات الاستثناء، المعروفة في الشرق الأوسط، بين صفوف القوات المسلحة التي تمثّل أساس قوّة الشاه، لقد كانوا طبقة موسرة، معزولة عن السكّان المدنيين، ذات رواتب عالية ومحصّنة من التضخم عن طريق المنح والفوائد الإضافية. لقد كانت تلك القوات مسلحة ومجهّزة إلى حدّ الإسراف وفي تزايد مستمرّ. وكانت سياسة الشاه الخارجية هجومية بما يكفي لإشباع غرورهم ولكنها لم تكن متهورة بحيث تضعهم في خطر فعلي. وقد اجتمعت لهم الأسباب للبقاء موحّدين وموالين خلف قائدهم العام.

كان استنتاجي هو أن ما أصيب به النظام من توعك سياسي واقتصادي عام ١٩٧٥ لم يمثّل تهديداً لوجود النظام، فقد كانت إيران فعلاً بحالة تقليدية من النمو السريع يشهده المجتمع في الشرق الأوسط إلى دولة حديثة ومتطوّرة - أو إلى شيء يقرب من ذلك تحت قيادة ديناميكة متسلّطة. لقد أفاد معظم الشعب من سياسات الشاه الثورية. وكان هناك جَيَشَان اجتماعي بالتأكيد، وتضخم حادّ، وآمال صاعدة لا يمكن تحقيقها كلياً. لقد كانت هنالك سمات سلبية علقت بالنظام منذ فترة قديمة. كالطغيان والفساد ومحاباة الأقارب والقمع والوحشية والتي أنفرت الجيل المثقّف من الشباب. وكان الحراس التقليديون للمجتمع الإيراني، الملالي والعاملون في السوق في حالة عداء وقلق. هكذا كان التوعك السياسي والعنف المنقطع. ولكنه كان من المستحيل أن ترى كيف

يمكن لمثل هذه العناصر المتفرقة من المعارضة أن تجتمع لخلع ملك قوي وحازم، مدعوم بقوات مسلحة قوية وموحّدة. لم يكن هنالك، كما بدا لي، وضع سوف يتمخض عن ثورة في البلد.

لقد كان الشاه يعي الإنحراف، فرغم أنه كان يميل إلى أن يعزوه إلى مكائد الأجانب إلّا أن سياسته لا يمكن أن توصف بأنها مضللة. كانت استراتيجية العمل على تسريع المسيرة نحو الحضارة العظيمة من أجل جعل مادة المعارضة التقليدية في وضع غير ذي بال وبصورة رئيسية الطبقات الدينية ومن أجل تحييد معارضيه من الجيل الأكثر حداثة عن طريق سيل جارف من النشاط الاقتصادي والإزدهار الوطني. لقد ذكرت بعض الخطوات التي اتّخذها لتبرير الإسراف في عام الإزدهار ومحاربة مساوئ التضخم، والفساد والهدر، والقصور في الكفاءة لقد كان ردّ فعله السياسي خليطاً متجانساً من القمع والتجريب الخاطيء والإغراء المادي فقد كبحت الصحافة أكثر من ذي قبل وقصرت بالنتيجة على بعض الصفحات من الإعلانات العريضة المتسمة بالتقليد. وأخذ الطلبة غير المقتنعين بسياسة الدولة يعاملون كأعداء للدولة وأخذ عنف رجال الشرطة يوجه ضدهم دون رادع. وأصبح السافاك متواجد في كل مكان وفي كل حين وتأكدت جميع مساوئ الدولة البوليسية. وإن هذه السياسات بغض النظر عن تأثيرها المباشر على ضحاياها. من المحتمل أن تكون قد عملت الكثير في إثارة عداء المفكرين على جميع الأصعدة أكثر من أي وقت آخر.

وبموازاة هذه الاستخدام الموجع للعصا، فقد قرّر الشاه عشوائياً في آذار عام ١٩٧٥ إلغاء تعدد الأحزاب الذي انحلّ ليحلّ محلها حزب واحد هو حزب الانبعاث الجديد المسمى (رستا خيز). لقد كان هذا حزب الملك الذي يجب أن يواليه جميع الإيرانيين المخلصين ـ أما الذين يرفضون الإنضمام إليه يمنحون جوازاتهم إلى المنفى على نحو لا يصدق.

كان الهدف من ذلك تعبئة البلد بكامله في إطار الراستا خيز وراء سياسات الشاه. لم يكن يسمح إلّا بالنقد البناء ـ وأن يتمّ تشجيعه أيضاً أما الذين ينتقدون من خارج الحزب فإنهم يصنّفون على أنهم خونة وقد فشلت هذه التجربة مثل الكثير من سابقاتها في كسب زخم من التأييد. لقد كانت هنالك بالطبع عبارات تأييد وكان هناك إنضمام جماعي للراستا خيز من مؤسّسات من جميع الأنواع وعلى مستوى البلد كله. وكانت وسائل النجاة شائعة في إيران وتمارس بصورة واسعة ولكن لم يكن ثمة دليل على الحماس الجماهيري الصادق، ولم يكن هناك اعتقاد بأن الشاه سوف يسمح للراستاخير بأن يتطوّر إلى كيان مستقلّ قد يهدد تسلّطه. ولم يكن هنالك إحساس بأن هذا المخلوق الجديد يمكن أن يتجاوز كونه وسيلة تحايل سياسية جديدة من ابتداع الشاه قد حكم عليها بالهزل منذ البداية.

لقد تمّ توجيه إغراءاته المادية إلى الطبقة الجديدة من العمّال الصناعيين واحتفظ بها على أنها مرحلة جديدة من ثورة الشاه والشعب، واعتبرها المكافئ الصناعي لإصلاح الأراضي وإصدار مرسوم يلزم جميع مالكي المصانع التي تتجاوز حجماً معيّناً ببيع ٤٩٪ من حقوقهم إلى عمالهم خلال زمن معيّن، وتباع حصة أكبر من ذلك إلى العاملين في الصناعات المؤمنة وقد فشل هذا الإجراء المتطرف في تحقيق المردود المرغوب به أيضاً، فبالنظر إلى إحساسهم الفطري بعدم الأمان، وضعف الإيمان بالسلطة، أظهر العمّال رغبة في تقاضي أجورهم نقداً بصورة مستمرّة وتجنّب اختيار المشاركة في حصة رغم الشروط السخية الممنوحة لهم. لقد كانت النتيجة النهائية لذلك هي إشاعة روح عدم الإستقرار والشعور بالغبن بين الصناعيين والمقاولين الذين بدوأ يظهرون تردداً في استثمار المزيد من رأس المال في أعمالهم، وإذا كان من المحتمل أن لا ينجوا من المجازفة بسبب قرارات الشاه العشوائية، التي يتخذها دون أدنى مشاورة مسبقة مع الذين سيكونون أكثر المتأثّرين بها.

كان اعتقادي الشخصي، كما عبرت عنه في حينه، بأنه لو كان للشاه أمل بتعويض العوامل السلبية وتحفيز الإلهام الصادق (مقابل الإذعان والطمع) بصورة واسعة والذي كان ضرورياً لتحقيق حلمه بتحقيق تحوّل كليّ في إيران، فأن مفتاح ذلك لا يكون في محاولة إدامة مجتمع خانع مرتكز إلى الصناعة والتطوّر الزراعي والمبادرات السياسية التجريبية، بل في نجاحه بما يمكن وصفه بالقطاعات الاجتماعية والإدارية. فلو كان بالإمكان دفع البرامج التجارية المتأخرة عن موعدها لفترة طويلة إلى الإمام بقوة مثل الرعاية الصحية الشاملة وتوسيع المدارس والجامعات يرافق ذلك إصلاحات نوعية. وتدريب القوّة العاملة، وطرق التوزيع الحديثة والاتّصالات المحسّنة والإصلاح الإداري، والقضاء على الأسباب الجذرية للاستياء والمعارضة وقد يمهّد الخلاف وكذلك ما يغري باللجوء إلى القمع. ولكنني سلمت بأن جميع هذه احتمالات كبيرة: كما هي الحال في أقطار أخرى في مواقف مماثلة.

توصلت إلى عدد من الاستنتاجات لبريطانيا من خلال الوضع اللامستقر في إيران خلال عام ١٩٧٥. ولم يعد هناك شك بأن استمرار نظام الشاه وتحقيق أهدافه كانا في صالحنا فليس من المحتمل أن ترى نظاماً آخر في إيران تكون سياساته التجارية والخارجية والستراتيجية ملائمة لأهدافنا ونستطيع أن نكون معه علاقة عمل وثيقة كعلاقتنا مع نظام الشاه لكنني لم أأومن بأن من المفيد أن نسدي له النصيحة حول كيفية إدارة شؤونه الداخلية على الرغم من أن بعض طرائفه كانت نابية عن الذوق وغير مجدية. فلو نصحناه بأن يكون ديمقراطياً ومتساهلاً مع الطلبة وأن يحدّ من تعدّي السافاك في القمع... إلخ. فإننا سنلقي الكثير من التحذير والتوبيخ الذي يصبّه في آذاننا وسوف يبعد ذلك المسافة بيننا وبينه ويقلّل من تأثيرها عليه. إن له ذاكرة لا تنسى وأن شبح التدخل البريطاني في شؤون إيران ظلّ هاجساً إلّا أنه لم يمت. ولذلك اعتقدت

بأن أفضل دور لنا، وهو أيضاً الدور الذي يخدم مصلحتنا السياسية والتجارية، وهو أن نشارك بفاعلية في مجالات التطوّر الإداري والإجتماعي التي كنت قد لفتُ النظر إليها. إن هذه المجالات قد تشكّل الأسس التي قد يقوم عليها الاستقرار الحقيقي النابع من الفراغ السياسي الذي تنشده حمومة دكتاتورية قوية.



الفصل الثالث

النظام البهلوي

كان أحسن الأزمان كان أسوأ الأزمان؛ كان عصر السفاهة، كانت حقبة الإيمان ، كانت حقبة الشك، كان فصل النور كان فصل الظلام، كان ربيع الأمل، كان شتاء اليأس.

عن تشارلس ديكنز قصة مدينتين

آن الأوان لأتفحص بالتفصيل طبيعة النظام الذي استثمرت بريطانيا الكثير من خلال وجوده. لقد تأكّدت أغلب الإنطباعات التي غادرت بها إلى طهران قبل عامين، نتيجة للتجربة المباشرة كان الشاه بالنسبة لكل الدواعي والأغراض هو النظام؛ حيث الملك والدولة لفظين مترادفين. فهو مركز لسلسلة من الدوائر التي يقوم بينها القليل من الاتّصال ومن خلاله فقط ـ كالبلاط والعائلة المالكة، والحكومة المركزية، ونظام الحكومة المحلية والقوات المسلحة والسافاك. والشرطة، كانت هذه المؤسّسات قائمة بوظائفها بصورة مستقلّة الواحدة عن الأخرى وتعرض أعمالها على الشاه مباشرةً. لقد كان الشاه على سبيل المثال، رئيساً للمجلس الاقتصادي العالمي، الذي يضمّ غالبية الوزارات وهو القائد العام للقوات المسلحة، وهو السلطة العليا للاستخبارات وجهاز الأمن والمدير المباشر للبلاط وللفعاليات المتشعّبة التي طوّرها لأعضاء عائلته.

أي نوع من الرجال كان هذا الرجل الذي جلب إلى العرش عندما كان يبلغ من العمر (٢٢) عاماً في ظلّ الاحتلال البريطاني والسوفيتي والذي ساد وحكم طوال أكثر من (٣٠) عاماً خلال أزمات سياسية لا تحصى ولا تعد، ونجا من العديد من محاولات الاغتيال وهو الآن الدكتاتور الذي لا ينازعه أحد في بلده وهو أيضاً قائد معروف على مستوى العالم.

انشأت أواخر عام ١٩٧٥ علاقة عمل حميمة معه، بحيث كنت أقابله على انفراد أو بصحبة آخرين بمعدل مرّة واحدة كل أسبوعين أو ثلاثة طيلة ما يقارب السنتين. ومع ذلك فقد وجدته مبهماً ومركّباً من عدد من التناقضات. كل أسلوبه مع مندوبي التلفزيون الغربيين الذين يجرون المقابلات معه، جافًا ومتغطرساً فيه شعور بالتفضّل، والتنازل ووعظ أما خطبه العامة لشعبه فقد كانت معدّة بعناية دون أن يكون لها هدف واضح ومحدد، وخالية من التأثير. لقد كان في سره هادئاً، ومتأمّلاً وواسع الاطّلاع، بصورة ملفتة للنظر، حول الشؤون الخارجية والعسكرية وكان مستمعاً يقظاً. وكان من الناحية الاجتماعية خجولاً ومنطوياً يتجنّب الحديث في المسائل الصغيرة. فقد يحصل سؤال تافه على إجابة جادة ومفصّلة منه بصورة ثابتة. كان يحتقر أهل الفكر والمنظّرين جميعاً. ولكن لم يكن لديه أي شك في قدرته على ترجمة مفاهيمه النظرية المنمقة إلى الواقع العلمي. كان شغولاً لا يكلّ، كرّس نفسه لتحقيق أحلامه لإيران بحث كان قليل الاسترخاء فيما عدا التمرين البدني. حيث كان فارساً ماهراً، ومتزحلقاً، ولاعب تنس. كان بصفته صانع سياسة، خليطاً مدهشاً من الجسارة وانتهاز الفرص والحيطة. وكانت المظاهر المرئية لقوة إيران ومجدها من العناصر السائدة في حساباته ولكنه لا يجازف دون ضمان التأمين الوافي. لقد كان منشيء الزيادة الكبيرة في سعر النفط في كانون الأول عام ١٩٧٣، ولكنه أصبح بعد ذلك من أكثر

المؤيدين للغرب وبشكل متزايد رغم أن الغربيين كانوا المتضررين الأساسيين من ارتفاع السعر لقد ساند التمرّد الكردي في العراق عندما كان يحقق نجاحاً، وكانت ماكنته الدعائية تتبجح بأن الجيش الإيراني قادراً على أن يصبح على أبواب بغداد خلال أربع وعشرين ساعة. ورغم ذلك وبعد أن سقطت المقاومة الكردية في شتاء عام ١٩٧٤، وواجه صورة الحرب المفتوحة مع العراق نبذ الأكراد ووقع اتفاقية مع أعدائه الرئيسيين في العراق. لقد كانت اتفاقية مفيدة لمصالح إيران الوطنية مادياً واعتمد بشكل متزايد على الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية ولكنه وازن هذا الانحياز بالزيادة في التجارة والتعاون الصناعي مع الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية ووازنها أيضاً بالرعاية الحريصة للصين أما في مسائل السياسة الخارجية والستراتيجية فقد كان سياسياً بارعاً ومؤدّباً بارعاً ينتزع الاحترام.

والحقيقة أن هذه هي المواضيع التي كان له ولع كبير فيها ومعرفة جيدة. لقد عاشر قادة العالم لسنوات عدّة وقرأ الصحافة الأجنبية بشراهة ونتيجة لذلك قام بعمل وزير الخارجية في حكومته بتوفير جميع مصادر وزارة الخارجية له يومياً. فهو لم يكن في هذا المجال من الحياة الوطنية معزولاً ولا يمكن الوصول إليه. لقد كان من الممتع العمل المشترك معه. لا يمكن أن يقال نفس الشيء عن الشاه فيما يخصّ الشؤون الداخلية لإيران. لقد كان واضحاً لي منذ بداية مهمتي أنه كان معزولاً بشدة وبصورة خطرة بالأبهة والعظمة التي كانت تحيط الملك الفارسي تقليدياً. كان البلاط الأمبراطوري يتألف ببهرج خادع حاد ومزوق، حيث أن الوظيفة الرئيسية التي تؤديها الشكليات المنمّقة والبروتوكول الصارم تبدو حجب الملك عن الاحتكاك المباشر بشعبه وكان الأمن عنصراً إضافياً مساهماً في عزلته. ولم يكن كل هذا غير معقول لو أخذنا بنظر الاعتبار محاولات الاغتيال العديدة التي تعرض لها الشاه منذ الأربعينات

ولكن كان من المستحيل عليه أن يمتلك الإحساس الصادق بواقع شعبه حيث لم يسمح له بالتجول بسيارته في الشوارع والاختلاط مع الزحام وعندما يظهر، حتى في المواقع العامة، يكون معزولاً عن الجمهور بزحام مضاد للرصاص، ولم يكن يسافر إلى مكان ما إلّا بطائرة اعتيادية أو مروحية.

تعرفت على هذه السمة من حياة إيران في مرحلة مبكرة. رافقت الشاه في آذار عام ١٩٧٤ في زيارة إلى مجمع الأعمال الزراعية في الجنوب الغربي (الذي عجز عن دفع ثمنه بعد سنة أو ما يقرب على ذلك). حيث كانت بريطانيا تمتلك جزء من أحد المشاريع الذي تديره المصالح البريطانية بصورة كاملة. لقد نوقشت الخطط الأمنية المعقّدة قبل وصول الشاه، وتمّ إعداد برنامج الزيارة بشكل أثار دهشتي، بحيث كان الشاه سيلتقي بفريق الإدارة الأجنبي متجنّباً المئات من العاملين الإيرانيين في تلك المنطقة. ومما سرني هو أن شيئاً ما وقع عن الطريق الخطأ حيث كنت برفقة الشاه، وحال دخولنا وجدنا أنفسنا فجأة محاطين بحشد كبير من عمال الحقل والفنيين الذين كانوا يصيحون ويؤمنون ويجهرون بكلامهم بوجه الشاه ويوصلون توسلاتهم إليه. ولما كنت معتاداً على المساواة الحميمة في العالم العربي، فقد اعتبرت هذه الظاهرة مسألة طبيعية وكنت متشوّقاً لأرى كيف سيردّ الشاه على ذلك. كان هادئاً تماماً، ومبتسماً ومستجيباً جهد إمكانه لصيحات المديح المشوّشة والالتماسات التي كانت ترتفع من حولنا. رأيت فجأة من خلال طرف عيني، سرية مشاة، لم يكن هنالك جند في المشهد قبل ذلك - تقدم نحونا لتحيطنا بحراب مشرّعة وكان من الواضح أن لديها أوامر لتفريق الحشد بالقوّة. ومن حسن الحظّ فقد أمرها المعاون العسكري للتفرق وهكذا مرّت اللحظة العصيبة.

ولما عدنا إلى سيارتنا لنذهب إلى موقع وقوف الطائرات المروحية

الأمبراطورية، وجدت نفسي جالساً إلى جوار أسد الله علم، وزير البلاط والرجل الأقوى بعد الشاه دون منازع، الذي قال لي بعدما غصنا في مقاعد السيارة؛ كانت تلك اللحظة إحدى أسوأ لحظات حياتي ولم أع ما كان يريد قوله. بدت لي تلك الحادثة الصغيرة مثلاً رائعاً للاتّصال المباشر بين الشاه والشعب (ألم نكن نعيش في ظلّ ثورة الشاه والشعب رغم كل شيء؟) التي أظهر الشاه فيها الكثير من الفضل عندما ترك الفلاحين يشعرون بذلك الشعور الدافئ حيث أنهم تكلموا مع حاكمهم وجهاً لوجه.

أجابني علم: ولكن المجازفة الأمنية كانت مرعبة، ماذا كان سيحدث لو بدء الجنود على إطلاق النار؟. فكرت حينئذ بالواقع، بأنني قد دخلت عالماً مختلفاً جداً عن ذلك الذي ألفته في أماكن أخرى في الشرق الأوسط.

شهدت العديد من مظاهر بُعد الشاه عن شعبه، خلال السنة التالية، وفي الواقع كانت حالة مجمع الاعمال الزراعية المناسبة الوحيدة التي رأيت الشاه فيها على اتّصال مباشر مع مواطنيه طوال أعوامي الخمسة في إيران. ولاحظت بدهشة في البداية ولكن أصبحت بعد ذلك مسألة اعتيادية بأن حضور الجماهير في جميع المناسبات الرئيسية التي يحضرها الشاه كانت خدعة زائفة، ولدى افتتاح دورة الألعاب الآسيوية في ملعب أريامهر الفخم في صيف عام ١٩٧٤، كان الحشد الهائل المؤلف من (١٠٠,٠٠٠) مائة ألف شخص الذي حيّا الشاه بحماسة قد تدرّب عليها جيداً، يضمّ في الواقع، وحدات من القوات المسلّحة إضافة إلى عدد من الوفود التي تمّ اختيارها بحذر من الحزب الحاكم، والكشافة والمنظّمات النسوية وما شابه ولم يكن الاستعراض العسكري السنوي الذي يقام في كانون الأول للاحتفاء بذكرى تحرّر أذربيجان من الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤٦، جولة موفقة عبر شوارع طهران حيث كان الشاه يقف على منصّة التحية محاطاً بشعبه. لقد كان الاستعراض يقام على

امتداد طريق مهجور يقع على بعد عدّة أميال من العاصمة. وكان الشاه يصل بطائرة مروحية، ويركب جواداً لمسافة مائتي ياردة ويمضي الساعات التالية في صندوق زجاجي مضاد للرصاص شيّد خصيصاً لذلك العرض. ويجلس الجمهور الصغير من الدبلوماسيين المرتجفين والشخصيات الإيرانية العسكرية والمدنية من الوجهاء وممثلين عن الشعب تمّ انتقاؤهم بشكل جيد في مظلات منحدرة من الصفيح بينما تلعلع الدبابات والبنادق من أمامهن وتئز الطائرات فوق الرؤوس ويسير الجنود بنشاط وخيلاء كالأوز أمام قائدهم العام في مقصورته الزجاجية.

وذهبت الماكنة الدعائية إلى الحدود الأورويية[1] لتعزيز خرافة الاتحاد الروحي بين الشاه وشعبه ولإخفاء حقيقة كونه بعيداً عنه. وكان التلفزيون يقدّم عوناً لا يقدر بثمن في هذا الخداع. ولم أدرك ما كان يقع فعلاً إلاّ أوائل عام ١٩٧٦. حضرت وزوجتي مراسم الاحتفال بالذكرى السنوية الخمسين للحكم البهلوي في ضريح رضا شاه. وصل الشاه والأمبراطور في طائرة مروحية كالعادة. ونزلا على مسافة (٢٠٠) متر من الضريح سمعنا موجة قصيرة من التصفيق وبعد حوالي دقيقتين ظهر الزوجان الأمبراطوريان وسارا أمامنا وصعدا السلالم المؤدية إلى الضريح وأخذت المراسيم تجري على عادتها. ولما قفلنا عائدين نقود سيارتنا إلى طهران لاحظت أربعة رؤوس خيل تطلّ مما بدأ لي على أنه عربية كبيرة لنقل السجناء وقد أدهشني ذلك. قلت لزوجتي لقد بدأ السافاك بإلقاء القبض على الخيول كما يبدو وبعد ذلك بقليل رأيت ناقلة دبابات

---

(١) الحدود الأوروبية: نسبة إلى الروائي الإنكليزي الشهير جورج أوريل صاحب رواية اسمها ١٩٨٤ تتحدث هذه الرواية، التي كتبها عام ١٩٨٤ عن حكومة دكتاتورية من نسج خيال الكاتب وكانت تلك الحكومة تمتلك دعاية خيالية متبجحة تحاول إظهار الاتّحاد الروحي بين الحاكم المستبدّ الذي يدعي الأخ الأكبر وأبناء شعبه متناسبة حقيقة أن الشعب كان يكره حاكمه ويخشاه إلى حدّ رهيب. «المترجم».

تحمل عربة رسمية مغطاة بغطاء بلاستيكي. وقلت يا للغرابة لا بدّ أن يكون الشاه والأمبراطورة قد سارا فيها من الطائرة المروحية لم تكن المسافة تزيد على مائة ياردة ولما وصلنا إلى منزلنا شاهدنا الاحتفال بكاملة في التلفزيون. وتحريت لما رأيت بأن الشاه والأمبراطورة قد تجولا بعربة مفتوحة تجرّها الخيول لمسافة تبدو عدة أميال يحيطهم من الجانبين حشد مبتهج أو كانت خدعة بلا شك؛ لا بدّ أنهما سارا مسافة حوالي (٥٠) ياردة بين جماعة صغيرة من المصفقين المستأجرين قبل أن يصعدوا سلالم الضريح. ولكن تمّ خلق انطباع مغاير للملايين من مشاهدي التلفزيون.

كان هذا النوع من الممارسات موضع سخرية السلك الدبلوماسي وهو مزيج من الروريتانيا[١] ورواية عام ١٩٨٤[٢] بدلاً من أن يكون موضوع تأثير وبما أنني قد سيرت التجربة، أصبحت أكثر خوفاً من نتيجة هذه العزلة على حكم الشاه، لقد سمع الحقيقة من الأجانب حول مسائل السياسة الخارجية وحول أداء إيران وتأثيره على القوى الخارجية ولم ينفر من ذلك أتذكر مناسبة في عام ١٩٧٥ حين سألني الشاه حول تقويم صادق لإداء الفرقة الإيرانية وأضاف لقد أخبرني قادتي أنهم على أتمّ حال، وأنت تعلم الحقيقة وأريد سماعها منك. أخبرته أني أستطيع أن أعطيهم خمس درجات على مقياس مؤلف من عشر درجات: فالضباط الأقدم غير مرنين وغير بارعين والجنود غلاظ ولكنهم يفتقرون إلى التدريب على حرب

(١) **الرويتانيا**: مملكة خيالية في وسط أوروبا من ابتداع الكاتب أنثوني هوب ويشير اسم روريتانيا عموماً إلى حكومة من النوع الخيالي تشبه حكومة الفرسان والنبلاء في القرون الوسطى لكنها تحكم في ظروف أوروبا الحديثة، وذلك يشير إلى عدم ملاءمتها. «**المترجم**»

(٢) **١٩٨٤**: رواية بنفس الاسم كتبها جورج أورويل عام ١٩٨٤ وصوّر فيها حكومة خيالية مستبدة وظالمة وكذوبة «**المترجم**».

العصابات والتكتيكات على مستوى الفصيل والسرية ضعيفة والجنود يرفضون الحراسة في الليل وهكذا وتقبّل الشاه هذا التقويم في غير صالح جنوده الذي يحبّهم دون أن يندهش. وأستطيع أن أقتبس العديد من الأمثلة المشابهة. ولكن حول المسائل الداخلية حيث كان الأجانب يخشون أن يطأوا ذلك، كان اعتقادي بأنه قد تمّ إخباره ما يريد أن يسمعه فقط، حيث أن قواته الاستخبارية المتبجحة كانت سيئة في هذا الجانب مثلها مثل بعض من الوزراء المتملّقين الإذلاء في بلاطه، وبأن عزلته قد منعته من معرفة أتجاه شعبه أولاً بأول وبعكسه فإن رجلاً بمثل ذكائه وحذره السلفيين ما كان يسمح ببعض الإهانات اللامبررة والحمقاء للتراث الإيراني التي أزعجت الكثيريين من خلال العامين الأولين لي في إيران.

أنا لا أعتقد بأنه لو كان أكثر اطّلاعاً لكان قد قام بتحوير كبير جداً بحجم مشاريع التنمية لسنة الازدهار، تلك المشاريع التي ماتت عام ١٩٧٥ بعد أن ساهمت في التشويش الإداري والاجتماعي والاقتصادي لعام ١٩٧٤ ولما قام بتقليص برنامجه العسكري الذي كان طموحاً من حيث المعدات والقوّة البشرية فقد كانت هذه الأمور مركزية حسب اعتقاده كي تأخذ إيران موقعها بوصفها أمّة غربية، وصناعية وقوية ومستقلّة على قدم المساواة مع القوى الكبرى في أوروبا الغربية. **ولكن لو كان واسع الإطلاع بواقع شعبه هل كان يسمح للأمبراطورة بتنظيم مؤتمر زرادشتي في طهران في منتصف شهر الصيام رمضان، يختتم بأستقبال تسقى فيه الشمبانيا في القصر؟** وهل كان يسمح بسخافات الروّاد في العيد الثقافي العالمي السنوي في شيراز؟ وهل سيعطي الإذن بإزالة السوق القديم من حول الضريح المقدّس في مشهد لكشف الضريح حتى يصبح كنيسة من الكنائس الإنكليزية؟ لقد بدا لي وبدا بالتأكيد لزملائي الدبلوماسيين العرب الذين قاطعوا الاستقبال في ختام المؤتمر الزرادشتي أن شيئاً كهذا قد يكون مسؤولاً عن جلب تأثير أعظم على الجماهير المسلمة والعميقة

الإيمان بالدين وعلى قادتهم الدينيين المنشقين مما يجلبه فشل بعض المشاريع الاقتصادية العملاقة عبر التقدّم الاجتماعي والاقتصادي الصادق الذي كان يشهده البلد. ربما أعتقد الشاه أو الأمبراطورة أن هذه المظاهر علاج بالصدمة لإيقاظ الشعب الإيراني من سباته الإسلامي وربما اتّخذت لخلق الانطباع لدى الأجانب حول السمة العالمية والتحديث في إيران حيث أنها كانت ستصبح إحدى مراكز العالم من الناحية الحضارية وكذلك من نواحي القوّة السياسية والعسكرية والصناعية. ولكن كان على الشاه أن يعرف أكثر من ذلك كان يكره الطبقات الدينية ردّ الفعل الأسود مثلما يكره الشيوعيين «الثورة الحمراء» وربما أكثر منهم. ولم يعلن حرباً مفتوحة ضدهم على الرغم من كرهه لهم، فقد درس الحركات الإسلامية بنفسه، وكان العديد من القادة الدينيين أصحاب المقام الرفيع يتسلّمون إعانات مالية سريعة بناءاً على أوامره. لماذا إذاً كان يمنح العتاد المجاني لأولئك الذين يعارضونه ويمهّد الأرض للمنشقين دون مكسب واضح لقاء ذلك؟ كانت هذه أسئلة أقلقتني في حينها ولكني لم أعتبرها جزءاً من عملي لأناقشها معه رأيت في الأمبراطورة المكمل التام للشاه. فإذا كان فيه ما يثير الرعب والخوف كانت هي تثير الحبّ والتعاطف كانت جميلة وذكية مولعة بالفنّ، ورحيمة وكانت علاقتها بزوجها تبدو متحرّرة بشكل بارز ومتفتحة كانت النظرة العامة للأمبراطرة بأنها واحدة من الأشخاص الذين يستطيعون أن يعبّروا له عن آرائهم وكان تأثيرها نافعاً. ناصرت أهل الفكر الفنانين وحقّقت الكثير في مجال الرفاه الاجتماعي وعمل الخير وكانت تمثّل نموذجاً ومصدر إلهام للطبقة الإيرانية الرفيعة التي لم تكن بطبيعتها ميالة للإيثار.

ونظراً لأنها لم تنشئ في الثوب الأرجواني في كنف أب ساذج مستبدّ كما هو الحال مع الشاه، لذلك كانت أكثر انفتاحاً منه وأكثر صراحة

وحساسية مع الشعب فقد كانت تنفر من الحاجز الأمني والحيثيات الإدارية وتحاول كسرها كلما تسنّى لها ذلك. أتذكر مرة أخبرني فيها حاكم محلّي كيف أنها نظّمت زيارة لقرية معيّنة حيث كان كل شيء بالطبع قد أعدّ لها بصورة جيدة. قرّرت فجأة وهي في طريقها، زيارة قرية أخرى لم يتمّ إعداد أي شيء لتلك الزيارة فيها، لترى حياة القرويين كما هي فعلاً. أخبرني الحاكم المحلّي بأنه قد أخذ بمظاهر الحبّ الحقيقي الذي استقبلت به في هذه الزيارة المفاجئة. كما أتذكر أنا أيضاً في عام ١٩٧٥ أنني كنت أرافقها لاطلعها على الجناح البريطاني في معرض طهران التجاري الدولي السنوي. كانت زيارتها مفاجئة أيضاً كان الجناح يغصّ بالطهرانيين من الحرفيين رجالًا ونساءاً. سوف لن أنسى غضب الأمبراطورة حينما باشر حراسها الأمنيين بفسح الطريق لها بصورة وحشية عبر أحد الأروقة المزدحمة، وكيف أنها غاصت دون حراسة وسط جمهور الناس ولم يكن ثمة شك بالاستقبال المخلص لها.

كان لها إحساس لطيف بقيمة التراث الفني الإيراني وقد فعلت الكثير من أجل منع القوّة المدمّرة للحضارة العظيمة من تدمير أفضل ما في فنّ العمارة الإيرانية المحلّية فقد تمّ شراء المنازل القديمة، وخصوصاً في الأقاليم وتمّ إصلاحها وفتحها للعامة وتمّ جمع اللوحات الإيرانية، والسيراميك والسجاد وعرضت في متاحف جديدة وفي قصور جرى تحويرها لهذا الغرض أحياناً وقامت بتشجيع الموسيقى الإيرانية والمسرح والحياة الفكرية. وازدادت السياحة الداخلية من خلال جهودها مع حركة الرفاه، وأخذت الطبقة الوسطى من الإيرانيين تفخر بالدليل المرئي لعظمة ما في بلدها.

لقد أدّى كل هذا وكثير غيره من نشاطات الأمبراطورة التي تدعو إلى الإعجاب إلى تخفيف طابع الحياة المادية التي كانت المظهر الأساس للحضارة العظيمة. وشعرت من المؤسف أن رؤى الأمبراطورة عن

المستقبل الحضاري لإيران بمقابل تقديرها لكل ما هو جميل وثمين في ماضيها كانت متنوّعة ورائدة جداً بحيث لم يتمكّن البلد من هضمها. وكما ذكرت آنفاً. فإن التأثير السياسي لعيد شيراز كان خطراً وقد كرّس أغلب العيد «للتهذيب» الجذري للفنون الثقافية العملاقة التي كانت أكبر من قدرة البلد على إدارتها.

وكان هنالك أيضاً وزير البلاط عَلْم، رجل القوّة، انحدر أسد الله عَلْم من عائلة قديمة ارستقراطية من برجينا في شرق إيران وتصل جذور عائلته، عبر القرون إلى السلالة الطاهرية في القرن العاشر وأبعد من ذلك إلى الأصول العربية والساسانية المميزة. لقد خدم أسرة عَلْم السلالة الحاكمة بأمانة. كان أبو أسدالله مقرباً من رضا شاه وكان أسدالله نفسه صديقاً وموثوقاً من محمد رضا شاه بقدر ما يستطيع أحدنا أن يتذكر. لقد رأس العديد من الدوائر العليا وكان رئيساً للوزراء في زمن اضطرابات السوق في طهران عام ١٩٦٣. لقد أعطى الأمر للجنود بإطلاق النار على المشاغبين وقال لي عام ١٩٧٥ كان عليَّ أن أفعل ذلك. أن جلالته رقيق القلب جداً ولا يحبّ إراقة الدماء كان علم بصفته داهية متمكّناً وذا حساسية سياسية الشخص الوحيد ربما، ما عدا الأمبراطورة، القادر على مصارحة الشاه بالقول والاختلاف معه في الرأي واقناعه لتغيير شيء ما. وكان بطبيعته التقليدية نوعاً ما وأسلوبه الإقطاعي يمتلك إحساساً بالشعب، وذلك ما كان النظام البهلوي يفتقر إليه بشكل عام كان بإمكانه أن يكون فظًّا وقاسياً ولكنه كان في نفس الوقت واسع الاطّلاع وكان مجمل تركيبه السياسي معروفاً في عموم البلد. كانت عائلة الموالين لإنكلترا لعدة أجيال لأغراض شخصية أو مصلحة بل إيمانها بأن العلاقة مع بريطانيا تخدم مصالح إيران كثيراً. لقد أصبحتُ صديقاً حميماً له وأعتمدت عليه كثيراً في إسداء النصحية والحصول على المعلومات وكانت نصيحته مبنية على أسّس صلبة دائماً.

ومن المؤسف بأنه لدى وصولي إلى إيران كان في قبضة مرض اللوكيميا (مرض الدم) ذلك المرض الذي أودى بحياته أوائل عام ١٩٧٨ . كان عقله ناشطاً على الدوام ولكنه كان يتعب بسرعة. كان وكما صرح لي مراراً. يرى بأن الصعوبة أخذت تتزايد وتكلفه طاقة عصبية في مواجهة الشاه حيث أن الأخير أصبح أكثر عزلة وتشبثاً بمفاهيمه القاطعة الخاطئة.

كانت ستراتيجية علم هي ترك المسائل الصغيرة تمرّ والاحتفاظ بقوّته إلى المسائل الرئيسية. ولكنه ظلّ الرجل الأقوى في البلد بعد الشاه دون منازع وكان الجميع ينزلون عند إرادته بما فيهم رئيس الوزراء. وقد كونت بعد عامين حبًّا واحتراماً عميقين له، ولما بدت الأمور تسير باتجاه غير صحيح بصورة مزعجة كان حضوره الإيجابي والحصيف يهدئني. وكانت العائلة المالكة - أخوات الشاه وإخوته العديدون - ينتشرون في البلاط يمسك كل منهم مسؤولية مؤسّسة شبه مستقلّة وشبه رسمية ومستقلّة عن الحكومة المركزية. فقد كانت **الأميرة أشرف** أخت الشاه التوأم سيدة هائلة ونشيطة. مثلت إيران في المؤسّسات العالمية، وكانت رئيسة المؤسّسة الأمبراطورية للخدمات الاجتماعية. أما **الأميرة شمس** شقيقة الشاه الكبرى لقد كانت تدير مؤسّسة الهلال الأحمر الإيرانية، في حين كان أنصاف - الأخوة يتولّون مسؤوليات أقلّ مستوى. كان أغلبهم وأبنائهم أناساً جذابين وأذكياء، وكانت للأميرة أشرف شخصية قوية وديناميكية بصورة استثنائية، وقد قاد ذلك إلى برود المشاعر بينها وبين الشاه بصورة مستمرّة أما سياسياً فقد كانت العائلة المالكة كالقطرس حول رقبة الشاه. وكانت رائحة الفساد القوية تنتشر فيما بينها وخصوصاً في سنة الإزدهار عندما بلغ سجل مقياس ردود الفعل ارتفاعات هائلة هنالك حقيقة يؤمن بها الجميع - لا أدري مدى نصيبها من الصحّة هي أن من غير الممكن ضمان العقود دون التوسّط هذا الأمير أو تلك الأميرة.

وقد لفقت العديد من الإشاعات لتأييد هذه الفكرة وقيل أن كل ميدان من ميادين التنمية قد أصبح مرتبطاً، في ذهن الناس بما ينهبه الأمير أو الأميرة فلانة. لقد نجا القلة من أفراد العائلة فيما عدا الشاه، من هذه التهمة وهكذا توفّرت فرص الاتهام للمعارضين. وضاعفت طريقة الحياة الباذخة لتلك العائلة هذا الشرّ، وشكا حتى مؤيدو الشاه من أنه لم يفعل شيئاً للسيطرة عليها. لم يكن لدي سبيل بالطبع لمعرفة حقيقة هذه القصص التي لا تحصى عن الفساد والانحراف ولو صحّ منها العشر فإن الحالة سيئة بما فيها الكفاية، ولكن العامل الهامّ ليس في كون هذه الاتهامات مبرّرة أو لا بل في كون الجميع يؤمنون بأنها كذلك.

لعبت مؤسّسة شبه رسمية أخرى دوراً هامًّا في الحياة الوطنية وكانت موضعاً للطعن السياسي أيضاً، وهي المؤسّسة الوقفية البهلوية. ونفذت مجساتها عميقاً في العديد من سمات الاقتصاد في الداخل والخارج. وقد انشأت أساساً مع مصرفها الخاص (بنك العمران) من أجل الاستخدام الجيد والسريع للربح الحاصل من مبيعات أراضي التاج. فقد استثمر الوقف في التجارة في الصناعة والفنادق والعقارات، والخدمات بدعوى تكريس الفوائد للخدمات الاجتماعية وتمويل الزمالات الدراسية الإيرانية في الخارج وإلى الاعمال الخيرية الأخرى. لقد كان الاكتشاف الدقيق لكيفية عملها مستحيلاً ومن المستحيل أيضاً الحكم على مستواها الأخلاقي وما من شك في أنها قد قدمت بعض الخير وأفاد من نشاطاتها العديد من الناس. ولكنها مثل العائلة المالكة، قد اعتبرت مؤسّسة فاسدة على نحو واسع يثير السخرية. تجمع مال الرشى الملائم للشاه والمنصفين من حوله. كان هذا الإدراك السياسي أهمّ من الحقيقة الدقيقة للمسألة.

يلي ذلك على الجانب المدني للحكومة المركزية نفسها، وأعني بذلك مجلس الوزراء وتشعّباته كمصارف الدولة للتنمية، والصناعات المؤممة (النفط والغاز والكهرباء إلخ...) المؤسّسات التي تعمل من

خلال رئيس الوزراء. رغم أن رئيس شركة النفط الوطنية الإيرانية قد فصل مسؤولياته بربطها بالشاه مباشرة. لم أرى في حياتي العملية مثل هذا النظام اللامع من المواهب. تتكوّن المؤسّسة الحكومية، مع وجود حالة أو حالتين استثنائيتين، من رجال يمتلكون مهارة عالية وذكاء حادّ وخبرة ويمتلكون ما كان يبدو قابلية غير محدودة على العمل الجاهد وقد قضى العديد منهم أعواماً في الغرب كأطباء أو رجال أعمال، أو مصرفين أو أكاديميين واكتسب الكثير وعلى وجه خاص الدكتور جمشيد أموزكار، وزير المالية ولاحقاً السكرتير العام لحزب الراستاخيز، سمعة عالمية. وكان رئيس الوزراء أمير عباس هويدا صديقاً مقرباً لي وأتحيّز لصالحه دون خجل. كان كثير الشكوك مرحاً ومثقّفاً فقد كان يمثّل في إيران ما يمثّله السيد روبرت والبول[1] في بريطانيا ورغم سخريته الظاهرة فقد كان وطنياً مخلصاً وعاملاً لا يكل من أجل مصالح بلده.

لقد كانوا جميعاً مثقلين بالعمل شديدى الضيق منه، وغير قادرين على تجاوز الخطأ البيروقراطي ولم تعرف لهم مواهب إلّا على نحو سطحي أو بعمق محدود. وكانت السمة الملفتة للنظر جداً في الحكومة هي طبيعتها السياسية. وكما قال هويدا مرةً الشاه رئيس المجلس وأنا مديره الإداري. وقد رأى هو وزملاءه أن واجبهم الوطني يملي عليهم

---

(١) **روبرت والبول**: أحد المشاهير في التاريخ البريطاني. كان رجل أعمال بارع وقائد ناجح لحرب الوكك عمل وزير الحربية من ١٧٠٨ ـ ١٧١٠ ومن ثم قائداً للبحرية من ١٧١٠ ـ ١٧١١. أعفي من منصبه بعد سقوط وزارة الوكك وسجن في برج معزول. أصبح بعدها رئيساً للوزراء من ١٧١٥ ـ ١٧١٧، وثانية من ١٧٢١ ـ ١٧٤٢ شجع التجارة طيلة فترة توليه المنصب والغي الرسوم الجمركية. عارض فكرة الحرب مع إسبانيا التي وقعت بين عام ١٧٣٨ ـ ١٧٣٩. واخطأ إذ بقي في منصبه عندما أصبحت نية الحرب لا تقاوم كان متسامحاً ويمتلك روح الفكاهة ويرغب كثيراً في ترفيه الشعب **«المترجم»**.

تنفيذ أسلوب الشاه الشخصي في الحكم وعمل كل ما في وسعهم من أجل تنفيذ برامجه. نعم لقد ساد الإيمان بأن بعضهم كان يتحيّن الفرص ليحصل على حصته من الأرباح ولكن سمعة الحكومة بشكل عام كانت نظيفة مقارنة بالبلاط والعائلة المالكة. وكان هويدا نفسه بعيداً عن الطعن، ورغم أنه كان مثل السيد روبرت والبول إلّا أنه كان متسامحاً جداً مع هفوات الآخرين من أجل أن يديم رضا الشعب كانوا يعلمون بأن وجودهم في مناصبهم يعتمد على نزوة الشاه العشوائية، وتتبخر ثقتهم العالية بأنفسهم بسرعة في الحضور الملكي. لم يكن أحد منهم مقرباً إلى الشاه حتى هويدا الذي كان رئيساً للوزراء لمدة (١٢) سنة بحلول عام ١٩٧٥، وكنت أشك فيما لو كان رغم كل ريبتهم، يجرؤون على تجاوز الشاه في اندفاعاته المتهورة. فعندما قرّر الشاه فجأة مضاعفة الخطّة الخمسية الخامسة مما أدى إلى تأجيل التشوش الكامل للازدهار لم يثر قراره هذا أي جدل أو نقاش.

كان رأي هويدا كما عبّر لي عن ذلك، هو أنهم يجب أن يفعلوا كل ما في وسعهم ومهما كان العجز فأن الكثير سوف يتحقّق في هذا الحال.. لقد كان هو وغلام رضا نكبه محافظ طهران الذي كان صديقاً حميماً لي في الواقع من التقنيين القلائل الذين يمتلكون حسًّا سياسياً. كانا هو والمحافظ رغم الكره الشديد الذي يكنّه أحدهما للآخر خبيرين في الحيل السياسية التي تتطلبها المهنة وإلقاء الخطب في التجمّعات السياسية (الفاشستية نوعاً ما). ومصافحة الناس في شوارع طهران، والزيارات المفاجئة للمدن الإقليمية والتحرّيات الشخصية للحوانيت لمعرفة ما إذا كانت الأسعار مناسبة، والجولات والتوقفات القصيرة في المدن، كانا يمتلكان إحساساً بميول الشعب، على العكس من أغلب زملائهم كانوا يبدون أوروبيين أو امريكيين أكثر مما هم إيرانيين وشعرت بأنه من المؤسف أن لم يتّخذ الشاه بالحسبان. حيث كان بإمكان المحافظ نكبه أن يخبره بأن خطّة السوق التي

يحيكها وزير التجارة، فيريدون مهدي الذي كان نفسه مقيما في ألمانيا الغربية لسنوات عدة، وذلك بإلقاء النظام التقليدي للمخابز الصغيرة والتحوّل إلى تجهيز الخبز في إيران بالأرغفة الكبيرة (اللوف) على الطراز الغربي، وكانت هراء وستؤدّي إلى معارضة الأعداد الكبيرة من أصحاب المخابز الصغيرة في الأسواق. وهكذا كانت النتيجة، ولكن بعد إنفاق الكثير على الدراسات العملية وأشغال القوى العاملة الإدارية في الأعداد لهذا المشروع الذي كتب عليه مسبقاً أن يجهض بالنظر لغياب النقاش الأكاديمي الجاد في مجلس الوزراء وهدر الكثير من الوقت والجهد بقيام هؤلاء الرجال المخلصين بتكريس جهودهم للصراع الخاسر من أجل إرضاء رغبات سيدهم التي تحكمها نزواته.

وأخيراً كانت هنالك المؤسّسات التوأم للسلطة البهلوية وهما القوات المسلّحة والسافاك. تختلف إيران عن تركيا في أنها لا تمتلك تراثاً لجيش قوي ومنظّم، ففي منتصف القرن التاسع عشر كانت تجربة تجنيد القوات الإقطاعية قد تلاشى أثرها ولم يكن الجيش الإيراني بدائي التكوين فعّالاً وانتعشت القوى البعيدة عن المركز وأصبحت قدرة الحكومة المركزية محدودة فصارت الأقاليم غير الإيرانية في محيط الأرض الإيرانية - كالأذربيجانيين والأتراك والأكراد والعرب والبلوش والتركمان - مستقلّة تقريباً. واضطرت القوّتان الأجنبيتان المهيمنتان - بريطانيا وروسيا القيصرية - اللتان قسّمتا إيران إلى مناطق نفوذ عام ١٩٠٧ لإدامة الأمن في مناطقهما وذلك عن طريق زيادة حجم قواتهما: فقد حكم القوقازيون الذين يأتمرون بأمرة ضباط روس في الشمال وحكمت المناطق الإيرانية الجنوبية من ضباط بريطانيين من الجيش الهندي في الجنوب وكما هو معروف أبو شاه والذي عرف فيما بعد برضا خان، جندياً في البداية بعد ذلك أصبح ضابطاً قوقازياً. ولم يكن تصميم رضا خان غير طبيعي حين عزم

على اجتثاث وضع كانت فيه الحكومة الإيرانية لا تستيطع حتى أن تديم سلطتها داخل حدودها ناهيك عن حماية نفسها من التدخّل الأجنبي. وقد لجأ إلى بناء قوات مسلحة نظامية تدين بالولاء المبدئي لنظامه وهي التي سوف تعمل بعد ذلك على توطيد نظام حكومة إيران (أو بالأحرى حكومة الشاه البهلوي) في كل أنحاء البلد وتعمل بكل ما تتمكن من قوّة على أبعاد أي معاد أجنبي.

كان إنشاء هذه الطائفة العسكرية البسيطة التركيب إبداعاً مهمًّا في البنية الاجتماعية ـ السياسية الإيرانية ولكن تجربة رضا الشاه التي نجحت نجاحاً باهراً في إرساء الأمن الداخلي وإعادة توحيد الدولة في ظلّ حكمه قد سقطت عند مواجهتها الاحتلال الإنكليزي ـ السوفيتي عام ١٩٤٠. وانبرى محمّد رضا شاه لإعادة بناء نموذج أبيه وتوسيعه. وظهر في عام ١٩٧٥ أنه قد فاق بنجاحه خيال الجيل السابق. فقد فرض سيطرته الشخصية على القوات المسلحة في أوائل الستينات وذلك بقيامه بترشيح ممثلين شخصين له إلى المناصب العليا. وقد حافظ على موقعه، الذي لا ينازعه أحد قائداً عاماً للقوات المسلحة وفي حرز من أيّة حركة منشقة قد يقوم بها قادته للإطاحة به أولاً: بتعيين سلسلة من الرؤوساء الموالين غير اللامعين لكل صنف في القوات المسلحة وثانياً بالإشراف الشخصي على النقل والترقيات إلى حدّ الرتب الصغيرة وثالثاً بالمباعدة بين قيادات الأصناف الثلاثة، وأخيراً توليه شخصياً منصب رئيس أركان الجيش. فقد كان قادة الجيش والقوّة الجوية لا يلتقون مطلقاً إلّا بحضور الشاه. وكان المقابل الإيراني لمصطلح رئيس أركان الدفاع يطلق عليه بحق رئيس أركان القائد العام حيث أن الأمر في الواقع كان كذلك بالضبط. ولم تكن هنالك سيطرة مدنية على القوات المسلحة ويقوم وزير الحرب في مجلس الوزراء، الذي يكون ضابطاً برتبة فريق أما في الخدمة الفعلية أو ضابط

متقاعد بأعمال إدارية روتينية، تشبه نوعاً ما وظائف مدير العينة والتموين في الجيش.

كانت القوات المسلحة تؤلف طبقة ذات امتيازات ومدللة وكانت معزولة عن المدنيين لكونها غارقة بالمعدات الحديثة والمعقّدة. وكان أغلب أفرادها من المجندين في حين كان ضباط الصف الأقدمون، ومعظم الضباط وجميع الرتب في وحدات معيّنة من الحرس الملكي من الدائمين. وكانت أغلب المدن الكبيرة لها حامياتها ذات الموقع البارز في الضواحي وأعداد كبيرة من مساكن المتزوّجين والحوانيت المخفضة الأسعار والتسهيلات المدرسية والرياضية التي غدت من المشاهد المألوفة، وكانت دليلاً على سياسة الشاه في إنشاء طبقة عسكرية منغلقة ومتميّزة سوف لا تقدّم الولاء المطلق له ولمن يعقبه فحسب بل، وكما تمنّى شاه، لتخفيف أعداءه في داخل إيران وخارجها. لا شك أن القوات المسلّحة كانت تمثّل مظهراً من مظاهر الشجاعة كان القلّة من الضباط الأقدمين وليس الكثير منهم، مقتدرين وأذكياء وكانت فرق التجريب والأعداد البريطانية ترافق الأفواج المدرّعة، وكان قادة الكتائب الأصغر والأسطول والبحرية إلى حدّ كبير منضبطين بشكل جيد. ولكن كبار الضباط كان يميّزهم بشكل رئيس اعتلاء صدورهم بالميداليات (عن أي حروب يا ترى؟). وتبخترهم على الطريقة الألمانية الأميركية. كان الغباء الأحمق، وخاصّة في القوات البرّية، سمة ليست بالغريبة لدى ضباط الرتب العالية حيث كانوا مجاميع من الدمى. وكان الجنود العاديون من القرويين من آسيا الوسطى يبدون غلاظاً وغير متذمّرين. وكان الأسطول والقوة الجوية ملئيين بالزهو والاندفاع. ولم يكن أفراد القوات المسلّحة محبوبين لدى السكّان المدنيين، إذ كان سلوكهم المرتفع في الشوارع والمحلات التجارية ومركزهم المرموق وحصولهم

على حصة الأسد من الميزانية كفيلاً بذلك ولكن ظاهرياً في الأقل كانوا يبدون كأنهم قادة هائلة يرتكز عليها النظام.

وأخيراً كان هنالك السافاك الذي أصبح في منتصف السبعينات أحد الأغوال الرئيسية في الصحافة الغربية وهدفاً يتناوله بالنقد مناصرو حقوق الإنسان في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية هل كانت صورة هذه المؤسّسة من السوء مثلما رسمها الأعلام الأمريكي والأوروبي. ربما ولكن لا بدّ أن يضيف المرء هنا بأن هنالك وحشية مماثلة تمارس دون شك في الكثير من الأنظمة الدكتاتورية في العالم الثالث تديرها أنظمة الأمن السرية فيها. ولم يكن **الجنرال نعمة الله ناصري، مدير السافاك،** مديراً بارعاً كان شخصاً يفتقر إلى الذكاء، وكان موالياً جداً وقد عمل أمراً للحرس الأمبراطوري سابقاً. هو الرجل الشجاع، وهو شخصياً الذي نقل **للدكتور مصدق** بأن الشاه قد أعفاه من منصبه رئيساً للوزراء وقد تمّ إلقاء القبض عليه للقصاص منه وكان محظوظاً إ ذ هرب بحياته. كان رجلاً قاسي القلب وكان سيقوم بردع أيّة حركة تأييداً منه للبهلويين. . لقد كان أسلوب السافاك في عهد ناصري هو المضايقة المستمرّة دون التمييز والوحشية بدلاً من مراقبة الموقف ومعالجته بحنكة. وقد كانت الاعتقالات الجماعية شائعة وكان يعتقد بأن السافاك يتواجد في جميع ميادين الحياة الوطنية المهمّة، والحكومة والجامعات والمصانع ومنظّمات الطلبة الإيرانيين خارج إيران، والأحزاب السياسية (كما كانت تدعي كذلك). وكانت هذه السمة حول حضور السافاك في كل مكان وكل حين قد أبرزها الأعلام على أتمّ وجه. وقد يبدو ومن غير المحتمل لأسباب بسيطة تتعلّق بقدرة الإنسان المحدودة بأن السافاك كان بأمكانه أن يرى كل شيء فعلاً كما صوّرته الدعاية الشعبية وكان استنتاجي وهو ليس نهائياً بالضرورة لعدم توفّر الدليل القاطع بأن اهتماماً كبيراً كان موجّهاً للشيوعيين والجماعات اليسارية الأخرى وإلى شريحة الطلبة ككل،

وكذلك لمراقبة أصدقاء إيران المعروفيين بما فيهم نحن البريطانيين. حيث كان من مصادر تسليتنا هو أن كشك السجائر خارج أبواب السفارة مباشرة كان يحوي جهاز هاتف لاسلكي كنت أتساءل فيما إذا كان أفراد السافاك سألوا أنفسهم لماذا تنتشر المعارضة بهذا الشكل الواسع أو لماذا يقصّرون أنفسهم على الهجمات البدائية على مظاهرها وأتذكر مرة في هذا السياق أني قلت للشاه في عام ١٩٧٥ كيف كنت مرتعباً من وجود العديد من المجمّعات الجامعية التي زرتها. وحتى أن سفيراً أجنبياً في زيارة معدة له مسبقاً لا يمكنه إلاّ أن يلاحظ الفتور والعداء على أوجه الطلبة الذين لا يتكلّمون بسبب الواقع الملموس لمراقبة السافاك والشرطة لهم وكانت إجابته أنهم مجرّد شرذمة من المشاغبين المتأثرين بالغرب والذين يجب التعامل معهم بحزم وفي نفس الوقت الذي افترضت فيه بأن إجابته تلك هي الطريقة غير المباشرة ليقول لي بأن أهتم بعملي فقط، افترضت بأن الشاه، لا بدّ أن يكون قد تنبّه إلى مدى عداء الطلبة للنظام وإلى أسبابه وأنا أتسائل الآن: هل كان الشاه يؤمن فعلاً بما قال لي؟ وهل كانت فكرته مبنية على تقارير الجنرال ناصري، وإن كانت كذلك فهل أن هذا ما يعتقده ناصري؟.

يمثل ما ذكرت في هذا الفصل، كل ما اسعفتني به الذاكرة بأمانة، حول فهمي الشخصي لطبيعة النظام كما رأيته بعد حوالي عامين في إيران. كانت مزيجاً شاملاً مما هو جدير بالإعجاب وما يثير الكره وما هو جاد، وما هو سخيف. كانت الدعاية تتخطّى الإنجاز بكثير وكانت الفعالية السياسية الظاهرية مخنوقة بسبب قمعية نظام الشاه. يبدو بأنه كان يرى في نفسه مزيجاً من آمر كتيبة قاسي ومدير مدرسة عامة من العصر الفكتوري. كان الفساد منتشراً لقد كان عصر الرجل المتوسّط. ولكن كانت هنالك استقامة وتفاني وطنيان. وكان التقدّم الهائل يفسده الفشل الذريع. ولكن كما بدا لي الأمر فمهما كانت إحباطات النظام لم يكن

الضعف والتردد إحداها. وكانت القوّة المسلّحة للبلد تساند الملك وجهاز الدولة بقوّة فما دامت القوات المسلّحة موالية وما دام التقدّم الاقتصادي والاجتماعي مستمرًّا مهما كان متعثراً فإن المجازفة لتغيير النظام كانت ضئيلة على الرغم من شدّة الإرهاب والانشقاق الطلابي، والعداء العنيد للطبقات التقليدية التي تضمّ المؤسّسة الدينية والسوق. هكذا رأيت الصورة في عام ١٩٧٥ وهي تخلي السبيل لعام ١٩٧٦ الذي غدت فيه خمسين سنة من الحكم البهلوي جديرة بالتجسيد.



الفصل الرابع

السفارة

قبل أن أوجّه كلامي متحدّثاً عن تطوّر دراما الأعوام الثلاثة الأخيرة للشاه ربما يكون من الضروري أن أذكر شيئاً عن تنظيم السفارة والدوائر الحكومية وشبه الحكومية البريطانية المرتبطة بها في إيران. إن ما أكدنا عليه من نواحي مختلفة من عملنا هو ذو صلة بمجمل التحليل، وفي الواقع، بقدرتنا على الإجابة بصدق في إذهاننا أو في تقاريرنا عن الأسئلة التي كنا نطرحها على أنفسنا باستمرار حول نقاط القوّة ومواضع الضعف في النظام البهلوي.

إن من يتجشم عناء قراءة هذا الكتاب، سيلاحظ شيوع لهجة المتكلّم المفقود في التعبير عن وجهات نظرنا. ليس هذا محض أنانية، بل أن نشر هذا الكتاب يبرّر في الواقع منهجاً مختلفاً يتعلّق باحترام الذات. لقد كنت أنا السفير وتقع على عاتقي المسؤولية النهائية في تقويمات السفارة، وبالإضافة إلى هذا لقد كنت أكثر المختصّين خبرة في شؤون الشرق الأوسط بين موظّفي السفارة. لم أدر السفارة كما كان الشاه يدير حكومته على كل حال كان لا يطلب آراء الآخرين ولم يكن مستعدًّا لسماع وجهات نظر لا تتطابق مع وجهة نظره. لقد قمت بكتابة الرسائل والبرقيات المهمّة بنفسي وبعد ذلك رأيت وجهات نظر الموظّفين الأقدم في سفارتي قبل أن أقرّر الصيغة النهائية لها. وإلى جانب هذه الوسائل

البيروقراطية كانت ثمة مناقشات مستمرّة تتراوح بين الاجتماعات الأسبوعية مع الموظّفين واللقاءات مع مجموعات صغيرة منهم كيفما اتفق والتي تكون مهمتها النظر في مسائل معيّنة. وهكذا فإن وجهات النظر التي طرحتها في الفصول السابقة وإن كانت تعود لي في النهاية، إلّا أنها تمثّل إجماع رأي السفارة في حينه.

قمت أواخر عام ١٩٧٥ وبموافقة دائرة الخارجية، بإعادة تنظيم موظّفي السفارة لتحقيق أولوياتنا. وقد كان هنالك أولاً تشجيع التصدير بجميع أوجهه ـ للتعامل مع الزيادة الكبيرة من الزائرين لأغراض العمل، والاستفسارات التجارية، والمساعدة في تنظيم زيادات التصدير التجارية، والوفود التجارية والبحث عن فرص تجارية جديدة وتغذيتها لوضعها جدياً في ماكينة تشجيع إعادة التصدير وكانت مراقبة سياسة النفط والغاز الطبيعي الإيراني عن كثب فعالية مماثلة، وكذلك تشجيع الاستثمار الداخلي الإيراني في المملكة المتحدة ومساعدة الشركات البريطانية وإنشاء مشاريع إيرانية ـ بريطانية مشتركة في التصنيع والخدمات وتشجيع إنشاء غرفة تجارة إيرانية بريطانية وإسداء النصح حول المشاريع المالية البريطانية مثل جعل طهران مركزاً مالياً عالمياً وتوسيع سوق الأوراق المالية في طهران وأستطيع الاستمرار بهذه القائمة إلى ما لا نهاية.

وأعتقد بأن ذلك يكفي للقول بأنه يوجد ثمة عمل كاف في هذا الحقل لإشغال وقت جميع موظّفي السفارة بما فيهم أنا في سوق معقّد وسريع النمو كهذا. لذلك قمت بتعزيز الشعبة التجارية والاقتصادية عن طريق إضافة عدد من الأفراد على المستوى المكتبي وكذلك تفويض مسؤولية فعاليات تشجيع التصدير والتقرير الاقتصادي إلى نائبي (الذي تمّت ترقيته) والذين كان عليه سابقاً ينحصر بالجانب السياسي فقط. لقد كنت محظوظاً في هذا الخصوص ذلك إن وكيلي المفوض جورج تشالزر

كان أحد أكثر الموظّفين في الخدمة دراية وخبرة في المسائل التجارية والاقتصادية والمالية والنفطية.

وهكذا أصبحت الشعبة التجارية لبّ السفارة. حتى أن الملحقيات الموجودة لدينا أصبحت مجموعة متكاملة تشمل البحرية والجيش والقوّة الجوية كانت منشغلة أولاً في جمع المعلومات العسكرية عن القوات المسلّحة الإيرانية بل في خدمة برنامج مبيعاتنا العسكرية الدفاعية إلى إيران وكذلك مساعدة فرق التدريب العسكري البريطانية والفرق المتواجدة لأعداد المعدات الجديدة التي يشتريها الإيرانيون من بريطانيا. لقد كانت المهمّة الأساسية للملحقيات مهمّة تجارية وليست سياسية.

جعلني تحديد القوّة البشرية، التي تبتلي بها جميع الأقسام الحكومية في أغلب البلدان، أمتلك شعبة سياسية صغيرة نسبياً. ولكي أكون أميناً، كانت إيران مهمّة جداً لبريطانيا، فلو كنت قد طلبت تعزيزات للجانب السياسي لكان من المحتمل أن أحصل عليها وقد أجيبت جميع طلباتي لتوسيع الشعبة التجارية في السفارة على الرغم من الضغوط على الإنفاق العام في بريطانيا في السبعينات وتبقى حقيقة أني كنت مقتنعاً بما فعلته سواء كنت مصيباً أم مخطئاً.

كانت شعبة المضبرة (الأرشيف) تضمّ عدد (ليس كبيراً) من الموظّفين الكبار بما فيهم اثنين أو ثلاثة يتكلّمون اللغة الإيرانية. وكان من المتوقع منهم أن يسدوا النصح ويقدّموا تقاريرهم حول الموقف السياسي الداخلي ويسهموا كذلك بإدارة القدر الكبير من العمل الروتيني الذي كان لنا مع وزارة الخارجية الإيرانية والأقسام الحكومية الأخرى من ذات المستوى من العمل ويشمل ذلك الاتّصال المتبادل مع السافاك، والشرطة والاستخبارات العسكرية الإيرانية. ولكن ذلك كان يتمّ إلى حدّ ما تحت مظلّة السنتو في سياق ما كان يهدد إيران من خطر خارجي وتهديد

استقرار الدول المجاورة التي كانت مهمّة للمصالح البريطانية والإيرانية سياسياً واستراتيجياً. وبالإضافة إلى ذلك كان لدي موظّف صحفي يتعامل مع الوسط المحلي ومع المراسلين الأجانب الذين كانت لهم وكالات تراقب التطوّرات الداخلية، وهنالك موظّفون يهتمون بالشؤون القنصلية والثقافية.

لقد أشرت في الفصول السابقة إلى أن أحد العناصر الأساسية في سياستي هي تطبيع العلاقات مع الشاه وحكومته، وفوق ذلك إبعاد شبح التدخّل البريطاني في الشؤون الداخلية لإيران. ولذلك فقد خرجت من المتعارف عليه بعدم استخدام عدد من المصادر البريطانية المكشوفة لجميع المعلومات. كانت الجالية البريطانية في أواخر عام ١٩٧٥ كبيرة ومنتشرة عبر البلاد وربما يتراوح عددها من ٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ شخص. فقد كانت لنا مراكز للمجلس البريطاني في طهران، وشيراز والأحواز، ومشهد، وتبريز وكانت وظيفتها الأساسية تدريس اللغة الإنكليزية وتبادل الاتّصال مع الجامعات، التي كان لدى أغلبها أساتذة بريطانيون. وكانت هنالك فرق تدريب عسكرية ومدنية مرتبطة بوزارة الدفاع في طهران وشيراز والأحواز وبوشهر وبندر عباس وقرب ساحل بحر قزوين. وكانت تلك الفرق منشغلة بتدريب وحدات من القوات المسلحة الإيرانية وأعداد وإدامة المعدات الدفاعية البريطانية كانت هنالك ما يقارب الخمسة عشر أو العشرين مشروعاً صناعياً أو خدمياً إيرانياً ـ بريطانياً مشتركاً في طهران والأقاليم، تعمل في التجميع أو تصنيع منتجات متنوّعة جداً بدءاً من السيارات وانتهاء بالقفازات المطاطية. وكان المقاولون البريطانيون يقومون ببناء محطات الطاقة والتأسيسات الفنية البحرية والعسكرية والموانئ والورش والمجمّعات السكانية وأعمال أخرى كثيرة. فقد كانت في طهران جماعة مزدهرة من المصرفيين والمقاولين والمدرسين والمحاسبين ورجال الأعمال. . . . إلخ. كان لي ولموظّفي السفارة سبب

وجيه للسفرِ عبر البلاد للمجمعات البريطانية في الأقاليم. ففي بعض الأحيان يوظّف مشروع كبير لمئات من العاملين في مدينة رئيسية أو قربها، وأحياناً يقوم عدّة فنيين بالمساعدة في فتح منجم بعيد على طريق ترابي في سلسلة تلال منعزلة، أو يذهب مبشّر وعائلته إلى قرية كردية أحياناً أخرى وتعمل جماعة من الآثاريين في موقع مثل موقع ميديا أحياناً. فلم تكن هنالك شحة في البدائل وقد سعيت لتحقيق كامل الفائدة من فرص السفر في هذا البلد الجميل، والواسع والمدهش تاريخياً وآثارياً.

ولكننا لم نستخدم هؤلاء الناس كعملاء بالمعنى الفنّي للكلمة. كنا نرغب بالطبع بسماع ما يقولونه حول الظروف المحلية ونعلم بالطبع أية أسئلة نسألها وأية مناقشات نجريها معهم. كما كنا نفعل مع العديد من الإيرانيين الذين نتصل بهم. ولكن لم يكن ثمة شيء خفي أو ماكر في هذا الصدد وليس من المستغرب في ضوء تاريخها، أن تكون جميع الأنظمة الإيرانية كتومة ومتشككة في الأجانب. أن هذا، وكما ذكرت في المقدمة، ينطبق تماماً على البريطانيين، وللاسباب التي شرحتها، لم أكن ضحية لتخيلاتي. فقد كان وجود من يتحدث الفارسية بطلاقة من بين موظّفي سفارتي لا يعتبر خدمة لإيران بل يعتبر دليلاً على نية خبيثة. بعثت لنا وزارة الدفاع ذات مرة ضابطاً إلى فريق تجهيز دبابات التشيفتن شاءت الصدف أن يكون من المتكلّمين بالفارسية بطلاقة ومن الواضح أن ذلك الأمر بدا لنا وكأننا اخترنا الضابط الذي يمتلك المؤهلات الفنية المناسبة لهذا الغرض وبدلاً من الترحيب به فقد أعلن ذلك الضابط ذو الحظّ العاثر على أنه شخص غير مرغوب فيه حالما اكتشفت السلطات بأنه يمتلك هذه المهارة الخطرة. وقد أدركت منذ البداية بأن معرفتي بالتركية قد تعتبر عائقاً وليس شيئاً نافعاً (هل كان يعتقد بأن لي دوراً في تشجيع الحركة الانفصالية في إقليم أذربيجان الناطق بالتركية؟). كما

كانت خبرتي الطويلة في العالم العربي (حيث كنت أول دبلوماسي خدم في البلاد العربية يعيّن سفيراً في طهران) قد جعلني عرضة للاتهام بأنني لست صديقاً لإيران.

هكذا نظمتُ السفارة كأنها وكالة لزيادة الصادرات البريطانية وللمصالح التجارية والمالية والاقتصادية العامة لبريطانيا. وقد صحّ ذلك أيضاً بالنسبة للموظّفين المدنيين والعسكريين، بينما قام حتى الموظّفون السياسيون بدور في البحث عن فرص جديدة للتصدير. وكان المجلس البريطاني منظّماً، ليس على حساب نشاطاته الثقافية الصرفة بالطبع ليركز على السمات التجارية في تدريس اللغة الإنكليزية وزيادة مبيعات البضائع والخدمات الثقافية البريطانية كالدعوة القوية لقبول الطلبة الإيرانيين في المدارس البريطانية والجامعات والمؤسّسات الفنية وإنشاء مكان مناسب (للجامعة البريطانية المفتوحة) في إيران وتبادل الأساتذة الجامعيين وهكذا. وكانت دراسة الوضع السياسي الداخلي لإيران فعالية مهمّة ولكنها كانت ثانوية. لقد كانت مهمّة لأننا نحتاج إلى إرسال التقارير إلى لندن وإسداء النصح للمصدرين والمستثمرين البريطانيين في المستقبل. وكانت ثانوية بسبب التحفظ في جمع المعلومات، وكما أعتقد لأن القيام بجهد واضح في هذا الاتجاه سيعرض علاقتنا بالنظام إلى خطر دون الحصول على فوائد تعوض ذلك بخصوص المعلومات الإضافية لما نستطيع اكتسابه من خلال الملاحظة المفتوحة واستخدام خبرتنا وقدرتنا التحليلية.

الفصل الخامس

١٩٧٦ ـ ١٩٧٧

حتى الإنكليز الذين لهم من ماضيهم دروس توجههم، . . . راقبوا التقدّم التدريجي لهذه الثورة التي تبدأ عهداً جديداً، كما لو أنهم فعلوا ذلك من خلف ستار سميك.

عن دي توكوفيل: النظام القديم والثورة الفرنسية

أدّى الشعب مطيعاً فعاليات الاحتفال بمناسبة مرور (٥٠) عاماً على الحكم البهلوي ولكن لم تكن ثمة مسحة من العفوية أو الحبّ بادية على الشعب، باستثناء بعض القادة الذين بدوا نشيطين بشكل ملحوظ في الاحتفال الرئيس في ضريح رضا شاه: في مناسبة بادرة وفخمة في مكان بارد فخم.

لم يكن عاماً من الابتهاج، فقد اعترف رئيس الوزراء للسيد كالاهان وزير خارجية بريطانيا الذي كان يزور إيران في آذار بأن الحكومة الإيرانية كانت تعاني من الشعور المفرط بالنشاط والخفة في فترة الإزدهار عام ١٩٧٤ وبداية عام ١٩٧٥. لقد ضحت بالترشيد في المال والتخطيط المنطقي من أجل السرعة والتنفيذ إلى حدّ كبير. سيكون هنالك حذر أكبر وتدقيق أشد إرتباطاً بالمشاريع في المستقبل. كان هذا يعكس مزاج الشاه. ذلك لأن عامين من الأداء الاقتصادي الذي فيه القليل من الفتؤات

المشجعة والكثير من الأغوار المثبطة للعزم، قد أعطى تفكير الشاه إحساسات أكثر حيوية بالأمور الملحّة وأصبحت أولياته منظّمة بدقّة أكبر الآن. كانت ميزانية التنمية التي هي قيد الأعداد للخطّة الخمسية السادسة، تتركّز بشكل أقلّ اتّساعاً وعلى أساس طبيعي وبشري على الصناعات الأساسية أو على خلق دور أكبر للقطاع الخاص. كان يضع التوكيد ليس على الإيمان الأكيد بأن الأموال لو أنفقت بكميات كبيرة سوف تحلّ المشاكل بل على العمل الجاد، والإنتاجية المتزايدة، وتجنّب الهدر وإدراك الكلفة. سوف لن تكون ثمة مشاريع جديدة، وكان الدمج وإعادة التقويم شعارين مطروحين.

وعندما استعرضنا، في حزيران عام ١٩٧٦، تقدم إيران نحو تحقيق أهدافها المرسومة للخطّة الخمسية في آب عام ١٩٧٤، كانت الحاجة إلى مثل هذه الرصانة واضحة كان التطوّر الصناعي يلفت النظر رغم أنه كان يتلكأ في بلوغ الأهداف التي وضعت له. وقد كان من الصعوبة بمكان الكشف عن العلاقة بين الوعود والإنجازات في أي مجال آخر وكانت الزراعة كارثة وكان توكيد الحكومة على معدل نمو سنوي بنسبة ٧٪ مجرد أكذوبة وكانت واردات المواد الغذائية تتزايد بشكل سريع نتيجة لزيادة الطلب كان من المحتمل أن الإنتاج الزراعي سينخفض حيث باع القرويون أرضهم لحساب مشاريع العقارات والتنمية الصناعية وبعدها تقاطروا نحو المدن. كان تطوّر مصادر الماء يسير بصورة حسنة ولكن وسائل الاتّصال كانت كارثة. لم يحدث توسّع في الموانئ إلّا نادراً ولم يصل تطوّر الطرق البرية وسكك الحديد إلّا إلى نسبة ٢٠٪ من الرغم المرسوم لها. أما في المجال الاجتماعي، فقد كان ثمة عجز بنسبة تقترب من ٩٠٪ من الأعداد المقرّرة للحصول على تدريب فنّي. وكانت الثقافة تتسع بسرعة لكن نقص المدرسين يعوقها. وقد تمّ إحراز تقدم لا

بأس به نحو إقامة التعليم المجاني الشامل وتمّ تحقيق قدر جيد من العمل في مجال إيصال البرامج التعليمية إلى المناطق الريفية والعشائرية. ولكن جميع هذه بما فيها التوسّع الجامعي، كانت تعاني من التراجعات إلى سابق عهدها لأسباب مالية ولندرة الأفراد المؤهلين. ويصحّ ذلك عينه على حقل الصحّة. كانت إيران تمتلك (١١٠٠٠) طبيباً في البلاد (وكان يساوي هذا العدد يمارس أعمال مربحة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية) بمقابل الحاجة إلى ٤٠٠٠٠ ـ ٥٠٠٠٠ طبيب. وكان نصف الأحد عشر ألفاً الموجودين على الأقلّ يعملون في طهران حيث كان بإمكانهم أن يحشو جيوبهم بالمال من الأعمال الخاصة وكان منتسبوا التمريض والمساعدون الفنيون ندرة وليس بإمكان برامج التدريب أن تحقق نتائج عاجلة. لقد بذلت جهود حثيثة لتوسيع فوائد التأمين الاجتماعي لتشمل عدد أكبر من الناس حيث كانت مقتصرة على العمال المنتظمين في العمل ومنتسبي الحكومة ـ ولكن هنا أيضاً قامت المشاكل المالية والإدارية بعرقلة التقدّم بصورة جديدة.

كان الإخفاق النسبي لهذه البرامج، من وجهة نظرنا، التي كانت أقرب إلى الصواب، أخطر الأمور على النظام على الأمد الطويل. وكان التقدّم نحو دولة يسودها الرفاه أحد العناصر المركزية في ثورة الشاه «البيضاء». كان ذلك لأسباب إيديولوجية من جهة، ولتجنب المراكز التقليدية للقوّة والتأييد وإنشاء قاعدة جماهيرية للنظام من الجهة الأخرى، ليصبح البهلويين هم الحكّام الذين جلبوا الصحّة والثقافة، والأمان لجميع الشعب في إيران ما لم يجلبه الشاه، أو مالك أرض أو بلوتوقراطي (شخص ثري متنفذ) رجل دين أو منظر من قبل.

لم يكن الشاه قد فشل في ذلك، فلو أخذنا التخلّف المرعب في إيران الخمسينات مقارنة بأيّة واحدة من جاراتها (بإستثناء أفغانستان)

نرى أنها قد خطت خطوات واسعة، ولكن كان من الملاحظ في عام ١٩٧٦ أن الأجور المرتفعة والآمال كانت تميل إلى جعل الطبقات العاملة في المدينة، وخصوصاً عمّال الصناعة والبناء، أكثر وليس أقلّ تقلباً في اتجاهاتها السياسية والاجتماعية. وقد عملت الفجوة الواسعة التي فتحها الإزدهار بين الدخول الريفية والمدنية كحافز قوي للهجرة من الريف إلى المدن والتي كانت تجري بوتائر غير صحيحة. وأصبح النقص في الإسكان في المدن مشكلة سياسية خطرة. وقد أفسدت محاولات الشاه الجديرة بالثناء لإنشاء دولة مزدهرة بسبب هذه العوامل وعوامل أخرى، وكانت الآمال المتصاعدة التي يغذيها إعلام حكومي متبجح اكذوبة، تبدو وكأنها سوف تستمرّ بتخطي الإنجاز رغم عظمته.

كانت هنالك علائم مشجعة في هذه الفترة من إعادة التقويم. وكان أسلوب الشاه في إدارة الاقتصاد حتى الآن أسلوب مدير شركة أوتوقراطي قديم الطراز. ولما تلاشى الإزدهار أدرك بأن الاقتصاد قد أصبح كبيرا. جداً ومعقّداً بحيث لا يستطيع إدارته بصفته الرئيس الوحيد. ولاحظت في نهاية العام وجود استشارات حقيقية ونقاش حرّ حول المسائل العلمية بينه وبين حكومته مما كان قبل عامين أو ثلاثة.

لم تكن ثمة علائم على أن الموقف أخذ بالتدهور من الناحية السياسية، بل كانت هنالك في الواقع علائم واضحة على الإصلاح. وكان حزب الراستاخيز ما يزال ينظر إليه بسخرية قاطعة من قبل أهل الفكر في طهران ولكنني كونت انطباعاً بأن الشاه كان يقوم بمحاولة جادة لينفخ الحياة فيه. وإن كان ذلك ضمن حدود مرسومة بعناية، وكانت انتخابات المجلس الجديد تحت ظلّ نظام الحزب الواحد، في منتصف عام ١٩٧٥ مفتوحة نسبياً، وفي عام ١٩٧٦ كان هنالك العديد من الوجوه الجديدة في البرلمان - من العمّال الماهرين والفلاحين وأعضاء من الطبقة الوسطى الصغيرة المثقّفة الجديدة. أما على المستوى المحلي في

الأقاليم، فقد رأيت الدليل على أن حزب الراستاخير قد أصبح مجموعة نشيطة مؤثرة في مناطق معيّنة بحيث لا يمكن لطبقة الموظّفين إهماله. وقد تمّ تعيين جمشيد أموزكار سكرتيراً عاماً للحزب في تشرين الاول عام ١٩٧٥. لم يكن لديه جمهور سياسي خاصّ به ولكنه كان يعتبر رجل مستقلّ التفكير، وأقلّ تلوّثاً بالخنوع للشاه مقارنة بغالبية زملائه التقنيين. وكان لامع الذكاء والمقدرة أيضاً. قال لي مرة بأن الشاه قد أعطاه خمسة عشر عاماً ليحوّل حزب الراستاخير خلالها إلى قاعدة جماهيرية تملئ الفراغ بعد أن يغيب الشاه عن المشهد ولم يكن هنالك دليل بالتأكيد على أن الراستاخير سيسمح له أن يصبح أداة مؤثّرة في إدارة نشاط الحكومة المركزية أو يشارك في صنع القرار. ورغم ذلك، شعرت في نهاية عام ١٩٧٦ إلى حدّ ما، وأؤكّد إلى عبارة حدّ ما أن هنالك إهمالاً للراستاخير يقلّ عما كنت أشعر به عند تأسيسه قبل عامين تقريباً.

ولما أصبحت على معرفة حميمة بالمزيد من الإيرانيين، أدركت بالمثل بأن إيران ليست دولة بوليسية بالمعنى المطلق والعام الذي نربطه بالدكتاتورية الأوروبية. كان المثقّفون الإيرانيون في سريتهم، وخاصة مع الأجانب ناقدين لجوجين ومدمّرين، ليس لأهداف الشاه فحسب بل لعدم أهلية السلطات لتحقيقها. كانت الإنتقادات تطلق، كما أعتقد بغض النظر عن من قد يستمع لها تقريباً. كانت حرّية التعبير هذه نوعاً من صمام الأمان للتعويض عن غياب المؤسّسات الديمقراطية. وكان هنالك أيضاً حرّية السفر إلى الخارج وتحويل النقد. حيث لم تكن ثمة إدارة للتحويل. بل اعتقادنا في منتصف عام ١٩٧٦ إن ما كان ينقل إلى الخارج في كل شهر يبلغ بليون دولار من رأس المال الخاص. وكان هذا في غير صالح الاقتصاد بالطبع وهو بعدم الشعور بالأمان من الناحية الاقتصادية والسياسية. وكان مع ذلك مصدر ارتياح للطبقات الثرية يمكّنها من السفر وامتلاك الثروة في أوروبا وأمريكا لتشعر بالتحرر من المحيط

الاحتجازي في إيران البهلويين. وهذا نوع من الحرّية ربما يحسدهم مواطنوا البلدان الشيوعية عليها.

كانت الطبقات الثرية تعيش حياة جيدة بما فيه الكفاية وكانت انتقاداتها ذات نبرة مستقبلية. لقد اعتاد أبناؤها كسائر الإيرانيين، على البوليس السري، ونقص الحرّية والشعور بالأمان. وكانوا كسائر الإيرانيين، يسخرون من السلطة طبيعياً ولكنهم يقبلون وجودها كما هي عليه حيث أن السلطة والهيمنة قوّتان أكثر فعالية من الضوابط والحقوق وكانوا كسائر الإيرانيين، أكثر تركيزاً على المصلحة الذاتية وكانوا مترددين في توريط أنفسهم في تأييد أي نظام.

كانت المشاكل تكمن في المستويات الأدنى ولكنها كانت تبدو طبيعية. فمن الناحية المادية، استطاع الشاه أن يتخلّى عن القليل من العادات على الإنفاق العام. فقد كانت جماعة الطلبة الآخذة بالنمو السريع لا تمتلك بشكل عام المصادر المادية للبقاء خارج الرهان عن طريق ملكية الثروة في لندن أو لوس أنجلس، بحساب أو دون حساب في بنك سويسري وإذا لم تستجيب تطلباتهم في إيران بشكل أفضل سيصبحون مصدراً خطراً لعدم الرضا.

لقد غيرت المجموعات المتطرّفة، التي اجتذبت من طبقة الطلبة، تكتيكاتها منذ عام ١٩٧٥ لقد أخذت تعمل على الخفاء لتشويه سمعة النظام. فقد فشل تحدّيها الصريح لقوات الأمن وتكبدت خسائر فادحة، حيث قتل منها ما قد يبلغ (٢٥٠) شخصاً عام ١٩٧٦، كان هذا العام هادئاً بالتأكيد مقارنة بعام ١٩٧٥، في المجمّعات الجامعية.

لقد كنا على صواب إذ لم نغيّر حكمنا على أن عنصر القيادة الدينية التي تمثّل النقاء الديني والتي تقف ضد التحديث، ما زالت تحظى بالكثير من التأييد العاطفي من قبل الجماعات غير المثقّفة. ولم نهمل إمكانياتها في الحصول على التأييد الجماهيري. ولم أكن على أيّة حال، أتوقع بأنها

سوف تبادر إلى تحدّي النظام بل إلى مغادرة الظهور على أنها مصدر قوّة لتغذية المعارضة الفاعلة إذا ما تطوّرت.

كانت خلاصة الرأي التي كوّنتها أواخر العام تتلخص بشكل عام كالآتي:

ما زالت إيران تكتنفها أبخرة عدم الاستقرار والتوعك عشية الإزدهار وكانت السياسات الحكومية على المدى القصير أكثر رزانة وأكثر عقلانية وبدأ الحزب الواحد الذي تأسّس حديثاً كأنه بتقدم بعض الشيء. لم يكن عاماً سيئاً لقوات الأمن في حربها ضد الإرهابيين وكان البلد هادئاً عموماً، ولم يكن الموقف الداخلي بالتأكيد أسوأ من السابق، وربما كان في بعض النواحي الهامشية أحسن منه وكان الجوّ العام أخف وطأة بعض الشيء. ولكن التضخم ما زال يصنع جميع طبقات المجتمع بشدة، ولم تحقق الآمال المبالغ فيها وكانت الظروف الاجتماعية في المناطق الفقيرة من المدن سيئة.

كانت ثمة مشكلة هائلة تواجه الشاه وهي تغير الاتجاهات الرئيسية للإيرانيين. وعلى الرغم من أن عدم الاقتناع الحادّ، على كل حال، كان يسري بين معظم عناصر المجتمع الإيراني بوتائر أعلى مما كان عليه في السنوات التي سبقت الإزدهار إلاّ أن مظاهر عدم الاقتناع هذه كانت تميل إلى البقاء مشوّشة ودون قيادة مركزية.

لم يكن ثمة وضع ثوري فالقوات المسلحة كانت موالية وبمقابل هذه الموالاة لم تكن هنالك أسس صلدة قد تظهر لمعارضة النظام. ولم يكن ظهور الوضع الثوري خطراً كبيراً على الأمد القصير ليؤدي بالنتيجة إلى إنهيار الاستقرار الإيراني، بل أن المسألة الأكثر أهمية هي هل سينجح الشاه في تحويل إيران إلى دولة صناعية حديثة (أو شيء مقارب إلى ذلك) دون تخريب المجتمع الإيراني إلى درجة يصبح عندها من الصعب على ابنه أن يثبت نفسه. إن ابنه لا يمتلك الخبرة ولا السلطة اللتين يمتلكها

أبواه للهيمنة على القوات المسلحة وكذلك ليس من السهل أن ندرك كيف ستتمكن سياسات الشاه من النجاح في إنشاء قاعدة جماهيرية عريضة وكافية ليستند عليها ابنه، ولم أجد، على الرغم من ذلك، سبباً يمنعنا من الاستمرار بمتابعة مصالحنا الاقتصادية والتجارية الأساسية في إيران بكل ما أتيح لنا من قوّة رغم كل المشاكل والإحباطات والاختلاطات التي تبعث على السخط فإن إيران كانت تتطوّر بمستوى عال وهي مستقرّة سياسياً (وفق مقايس المنطقة) وحكومتها منظّمة بشكل جيد. وكان الاقتصاد يسير نحو إيقاع أبطئ من السابق بشكل صحّي لقد تحقق الكثير، وبدا لي أن الكثير من الإنجاز سوف يتبع ذلك.

أنشأ الشاه، لما يقرب من عقد من الزمن، علاقة استثنائية مع الإدارة في واشنطن مع الرئيس نكسون أولاً وبعده مع الرئيس فورد الدي أظهر ثقة تفوق الوصف بالشاه، تلك الثقة التي أرادها الأخير. ولكن لم يحصل عليها من الرؤوساء الأميركان الذين تعاقبوا على الرئاسة طوال عهده. لقد بررت فترة نكسون / فورد ستراتيجية الشاه في محاولته تحويل إيران إلى صديق وحليف مستقلّ ولا يستغني عنه لأقوى دولة في العالم. وعقب زيارة نكسون لإيران عام ١٩٧٢ (حيث أغتيل ضابطان أمريكيان برتبة كولونيل في طهران قبيل وصول الرئيس). حصل الشاه على تفويض بشراء أيّة معدات عسكرية يريدها بأستثناء الأسلحة النووية ولعدم الوصول إلى اتفاق مع بريطانيا في الخليج العربي أواخر عام ١٩٧١ منح نكسون الشاه رعاية من شأنها أن تجعل من الشاه وتجعل بلده (إيران) نموذجاً لمبدأ نكسون في تطوير المسؤولية والتي بالمقابل ستفرضها الولايات المتحدة لتقوية الدول الإقليمية. وكما أن من المزمع أن تصبح إيران القوّة الرئيسية للمحافظة على استقرار الخليج العربي والمنطقة الواقعة خلفه وبهذا يتمّ إنشاء أول خط دفاعي للمصالح الغربية المتعاطفة في نفط الخليج والمملكة العربية السعودية لقد عزّز ذلك مكانة الشاه في

أعين الأمريكان وخلف رابطة فريدة من الاعتماد المتبادل. وتبنّى الشاه سياسات خارجية وستراتيجية تلائم الولايات المتحدة (وبريطانيا بقدر ما يتعلق الأمر بذلك)، وبالمقابل انفتح بشكل واسع وعاء الإمدادات العسكرية الأمريكية والدعم السياسي. لقد حزن الشاه على سقوط ضمن بأن اتجاهاً أكثر إنسانية وديمقراطية من جانبه سيحببه للرئيس الجديد ويبدو الضغط الأمريكي الذي كان سينشأ ضده ولكني لا أعتقد أن ذلك دافعه الأول. ولم أفهم لماذا اختار الشاه وقتاً لإعطاء المزيد من الحرّيات يتزامن مع الوقت الذي سقطت فيه وعوده الاقتصادية والاجتماعية الشعبية وابتعدت عن التحقيق، آخذاً بعين الاعتبار مدة بقائه، وهو المعروف بحدة الذكاء وعندما هبطت المعنويات السياسية والاجتماعية لشعبه، وعندما ظهر للجميع أن النظام قد فقد القدرة على المبادرة في محاولة التحويل الشامل للمجتمع الإيراني وعندما تقهقرت الاتجاهات المشرقة التي تبجح الشاه بأنها قريبة المنال، وأصبحت مستعصية على الفهم. كان من الصعوبة بمكان تخيّل وقت أقلّ مواتاه لإرخاء هيمنته السياسية.

كانت نظرتي غير النهائية في حينه، التي لم أعد النظر فيها بعد وقوع الحوادث، هي أن **قرار الشاه كان مبنياً على العوامل الآتية**: كان يتحدث باستمرار خلال عام ١٩٧٦ بصورة سرية عن التنازل الطوعي عن العرش. كان يرى بأنه سيتخلّى ربما في منتصف الثمانينات، لصالح ابنه وهو ما زال نفسه قادراً على ممارسة وإدارة تأثير مهدي خلف الكواليس خلال فترة الانتقال الصعبة. كان يعي أن سلطته مبنية على أساس ضعيف ومستند كما هي الحال، على موالاة القوات المسلّحة وقوات الأمن، وهذا لا يخدم ابنه في إدامة النظام البهلوي. لقد حاول إنشاء قاعدة سياسية من خلال حزب الراساخيز ولكنها فشلت في أن تغادر القاع، ولم يبد عليها أنها ترتفع فوق مستوى خلف السياسية المحلية. بدء الوقت بالضغط على

الشاه (لو وضعنا في ذهننا أنه كان يعي مرضه في ذهنه) وكان بحاجة إلى اتّخاذ مبادرة سياسية جديدة ليضمن وراثة ابنه فقد جرب كلاً من الحكم المباشر ونظام تعدد الأحزاب ونظام الحزب الواحد على التوالي ولم يفلح أحدها. لماذا لا يرخي الأعنة لذلك وينتظر ماذا سيحدث؟ ربما سيظهر تلقائياً نموذجاً سياسي مقبول، دون قرار فوقي. أن سياسة الرئيس نكسون ولكن علاقته بالحزب حينئذ كانت واسعة وعميقة وكان بأمكانه أن يثق بأن جبرالد فورد لا يملك القدرة على الإبداع ليغيّر الوضع ولمدة.

ولم يخف الشاه امتعاضه لدى فوز الرئيس كارتر في انتخابات عام ١٩٧٦ لم يشعر بالإرتياح للرؤساء الديمقراطيين الذين هم أكثر ميلاً لوضع عنصر أخلاقي في بنية السياسة الخارجية الأمريكية. وكانت انتهازية نكسون وكيسنجر المحسوبة تروق للشاه كثيراً. ولم تفعل مناصرة الرئيس كارتر لقضية حقوق الإنسان في بلدان العالم الثالث، بما فيها إيران، وتأكيده على الحاجة إلى تخفيض حجم المعدات العسكرية التي تنقل إلى العالم الثالث، شيئاً في تهدئة مخاوف الشاه. وقد تلت ذلك فترة من عدم الاستقرار في العلاقات الإيرانية/ الأمريكية ولا حاجة للقول أن ردود فعل معارضي الشاه وخصوصاً جماعة الطلبة الكبيرة ذات الطبيعة الصاخبة في الولايات المتحدة، والقادة السياسيين في طهران (الذين ازدهر حظهم في وقت قصير أيام الرئيس كنيدي) كانت تماماً على العكس. لقد استمدّوا الشعور بالإرتياح والجراءة مما اعتبروه بحق إضعاف الدعم المطلق الذي تلقاه عدوهم من واشنطن لسنوات عدة.

إن من المدهش لدى تأمل الأحداث أن الشاه قد اختار هذه اللحظة ليبدأ التحرّر الذي يستطيع أن يحقّقه نظامه. وكان العديد من الناس في ذلك الحين، ونتيجة لذلك ينافسون هذا التغيير: أهو نتيجة لمباشرة لضغط إدارة كارتر؟ دعنا نسأل/ أن الرئيس كارتر قال للشاه بأنه إذا لم يتم إصلاح حقوق الإنسان في إيران وإذا لم يتمّ البدء نحو إيجاد بنية سياسية ديمقراطية

أكثر تحرراً، فإنه لا يستطيع أن يعتمد على التأييد المعنوي والمادي الأمريكي بعدئذ. أنا لا أعلم الحقيقة ولم أقبل هذه النظرية حينئذ ولا أقبلها الآن وفي الواقع أخذت علائم التحرر الشاحبة تتبيّن أواخر عام ١٩٧٦، خلال شهرين أو ثلاثة قبل تولّي الرئيس كارتر منصبه. لم يكن لدي شك في أن الشاه، بانتهازيته المعهودة قد تحمل معها فائدة إضافية في إرضاء الرئيس الأمريكي الجديد الغامض وكذلك في دحض الانتقاد المتصاعد في أوروبا الغربية. فلو نجحت تلك السياسة فخير على خير، وإن لم تفلح فليس من الصعب كبح الأعنة ثانية (هكذا كانت ثقة الشاه على معالجة الوضع السياسي الداخلي وفقاً لرغباته).

لم تعلن الحكومة شيئاً للملأ، كما هي العادة في عالم إيران السري. ولكن حالما انصرم عام ١٩٧٦ وحلّ عام ١٩٧٧، أصبح من الملاحظ أن هنالك جوًّا جديداً فيه الكثير من الحرّية السياسية، وكذلك فيه معاملة أحسن لمعارضي النظام، مما كان في السابق وفقاً للمقاييس الدقيقة للأعوام القليلة الماضية. فقد أعفي حوالي (١٠٠٠) سجين على دفعات في مناسبات مختلفة مثل رأس السنة الفارسية وميلاد الشاه. وكان بضمنهم عدد من السجناء السياسيين. وقد جرت لأول مرة ومنذ عدة سنوات محاكمة علنية لأشخاص متهمين بنشاطات مناوئة للدولة، وسمح فيها لمراقبين أجانب، بمشاهدة المرافعات القضائية وسمح إلى لجنة الصليب الأحمر بتفتيش سجون إيران. وشرع قانون جديد يمنع الاحتجاز دون محاكمة. وقد أتيحت حرية أكثر للتعبير بمحاذاة هذه الإجراءات المادية. وأصبحت الجرائد أقلّ تقليدية وأفضل عند القراءة. وأخذت النشرات التي توزع بشكل دوري توقع بصراحة من قبل محامين وكتاب وأكاديميين وأعضاء من الأحزاب السياسية من الجبهة الوطنية السابقة. كانت هذه النشرات قاسية في نقدها لسياسات وممارسات النظام ومقترحة الإصلاحيات لم يحدث شيء لكتابها. وأصبحت شعائر صلاة

الجمعة في المساجد، هي الأخرى أكثر حدة وعداء صريحاً لسياسات الشاه في تحديث البلاد وللنظام الملكي نفسه ومرة أخرى لم تعد ثمة اغتيالات أو إجراءات انتقامية من قبل السلطة، خلال الأشهر العشرة الأولى أو ما يقاربها من ذلك العام.

لم ترافق هذه الأنفاس الضعيفة من الهواء السياسي أيّة إصلاحات في الوضع الاقتصادي. وقد بدت النتائج اللاحقة للإزدهار الاقتصادي غير ممكنة التصحيح. وكان التضخم يتصاعد بسرعة وربما بلغ ٣٠٪ في السنة. وهذا رقم أسوأ بكثير من رقم عام ١٩٧٥ أو ١٩٧٦. وإنهارت مشاريع الحكومة للإسكان المدني ذي الكلفة المنخفضة خصوصاً في طهران وتم إلغاءها. وغدت ظروف الفقراء في جنوب طهران بائسة وتهاوت شبكة الكهرباء الوطنية في الصيف، تحت وطأة طلبات البيوت وطلبات المصانع المتزايدة. وكانت ثمة شحة حادة في الطاقة الكهربائية في القرى والمدن مما جلب الدمار الصناعي والامتعاض لدى الأسر ولم تعان المناطق الغنية في طهران كالعادة إلاّ القليل. وكان أضواء شمال طهران واضحة يراها سكنة المناطق الجنوبية الفقيرة وهم ينضحون عرقاً لعدة أيام أحياناً دون ضياء أو تكيف هواء أو ثلاجات ـ تلك الهبات التي جلبتها لهم الحضارة العظيمة منذ فترة وجيزة فقط.

كانت ظروف الأقاليم أقل سوأً وقد أدهشتني، خلال تجوالي، النظافة والتنظيم، والنشاط الصاخب في المدن الإقليمية متوسطة الحجم سواء كان ذلك في الصحراء الشرقية الكبرى أو في كردستان أم أذربيجان، أم لورستان. ليست هنالك مشكلة، بل كانت الحياة في الأقاليم تتحسّن على كافة الأصعدة وكان هذا التحسّن يجري دون ذلك التخريب الذي يرافق الأوضاع الاقتصادية ـ الاجتماعية، البارز في أسواق وشوارع طهران المتوترة، والتي تعجّ بالناس والقذارة. وقد بدا لي في مدن متباعدة عن بعضها مثل سيمنان على حافة الصحراء الشرقية وخرم أباد

عاصمة لورستان في إيران الغربية. كما لو أن عملية تحوّل سعيدة جداً قادمة حيث الجديد يتمم الحسن في القديم ولا يطأه في التراب.

أحسست بالارتياح من خلال المناخ الأكثر انفتاحاً الذي ساد في النصف الأول من عام ١٩٧٧، على الرغم من أن الاقتصاد قد استمرّ بالتداعي. أن من الممتع أن تسمع الشباب الإيراني - وأعني على وجه الخصوص الآثاريين والعاملين الاجتماعيين الذين قمت معهم بجولات في الأقاليم وهم يعرضون وجهات نظر انتقادية قوية. ويعترفون بالأخطاء السابقة ويناقشون الكيفية الأفضل لإدارة شؤون البلاد في المستقبل. وكان مما يبعث على الارتياح أن تسمع الوزراء ومديري المصانع والمقاولين الصناعيين يتحدثون دون حرج عن الصعوبات التي يواجهونها من شحة العمل، وأزمات توليد الطاقة، والفيض في إنتاج منتجات معيّنة للأسواق التي لم تتخذ شكلاً مادياً بدءاً بكلفة وحدات عالية وسيطرة نوعية رديئة. كان ذلك تغييراً مطلوباً يحلّ محلّ التبجح الذي عرفته السنوات السابقة تلك الثقة المهزوزة بأن كل شيء سوف يكون على ما يرام لو استمرّت إيران بالتوسّع، من التنظير الزائف لمعهد ماسوشتس للتكنولوجيا والمؤسّسات الإحصائية الخيالية. وبدأت أشعر بأن الواقعية الجديدة لا بدّ أن تكون تطوّراً صحيحاً، وأنها لو صحبتها حرية سياسية أكبر لتساهم في إدارة البلاد، ولو أصبح النقد من خلال الحرّية فقط، فإن إيران ربما ستكون مقبلة على دخول مرحلة من التطوّر أكثر استقراراً وتنظيماً، على العكس من الفوضى المسعورة لفترة الازدهار والتوعك الذي تبعها.

أعد الشاه مسرحاً لاستقبال هذا الوضع الجديد عندما قبل استقالة أمير عباس هويدا في أيلول ونصب الدكتور جمشيد أموزكار رئيساً للوزراء محلّه. كان هويدا رئيساً للوزراء لـ (١٣) عاماً وأصبح يمثّل صورة مصغرة لكل التفاؤل والتوسّع في السياسة الحكومية. وكذلك

اصبح يرمز إلى سياسة مدروسة في اتباع سلطة مجلس الوزراء وفي الواقع مجمل النظام السياسي إلى سلطة الشاه وتحويل الحكومة إلى فريق الإدارة الشخصي للشاه، كان أموزكار على العكس من هويدا، واضحاً وكان لامع الذكاء وكفوء. مثلما كان هويدا وكان قد حاز على شهرة حتى بين معارضي النظام، لاحتفاظه باستقلال فكري أكثر من بقية زملائه في مجلس الوزراء. وقد أوضح منذ البدء أنه سوف يتبنّى سياسة اقتصادية إدخارية متقشّفة مقتصدة على النقيض من الانفاق الحرفي أيام هويدا.

واستقال علم أيضاً من منصبه وزيراً للبلاط وغادره لأسباب حقيقية هي اعتلال حالته الصحية. كان على فراش الموت (وكان بحكم المتوفي منذ بداية عام ١٩٧٨) ولا يمكنه أن يعمل المزيد، رغم كل تفانيه وقوّة شخصيته. وفقد الشاه أحد أصدقائه الثقاة القلائل الرجل الوحيد تقريباً الذي استطاع أن يقف له ليخبره بالحقيقة. وحلّ هويدا محلّ علم في منصبه وعلى الرغم من مهارته وخبرته، لم يعتقد أحد أنه سوف يكسب علاقة عميقة مماثلة لعلاقة علم بالشاه وأعتبر الجميع تنصيبه هدية تعوضه عن فقدانه منصب رئاسة الوزراء أكثر مما هي ترقية له. وشعر العديد من الناس بأن الشاه ارتكب خطأً تكتيكياً حينما لم يزح هويدا عن المؤسّسة الحكومية، حيث أن احتفاظه بمنصب قد عكر وضوح صورة ترك الماضي التي كان الشاه يحاول إظهارها للشعب.

كان الجوّ السياسي في بداية الخريف أكثر تذبذباً من أي وقت مضى منذ وصولي إلى طهران أوائل عام ١٩٧٤. ولكن لم تكن ثمة علائم جادة عن فوضى تمهيدية لفقدان السيطرة الحكومية ولتوضيح هذه النقطة. لم يكن لدينا أي تردد في الاستمرار في الخطط لإقامة أطول وأكبر وأشمل مهرجان ثقافي بريطاني تقيمه بريطانيا في ما وراء البحار.

كان المهرجان الذي يدعم مالياً من قبل المجلس الثقافي البريطاني

والحكومة الإيرانية والقطاع الخاص البريطاني محاولة لاطلاع شعب إيران على أن لدى بريطانيا الكثير الكثير لتمنحه أكثر بكثير من ماضيها الامبريالي وتطلعها النهم لعقود مربحة. وقد أبدَ النظام تلك المحاولة بحماسة وكانت الأميرة فاطمة أخت الشاه الصغرى لأبيه رئيسة قوية ومقتدرة للجنة المنظمة استمرّ المهرجان فترة ثلاثة أسابيع من الرابع من تشرين الأول وحتى الرابع والعشرين منه كانت فرق الموسيقى العسكرية البريطانية بزيّها الكامل تعزف في المتنزهات العامة في طهران وفي الملاعب وفي الأقاليم وكانت هنالك فرق الباليه الملكية وشركة بروسبكت ثييستر وفرقة العولسي الرباعية الوترية وغيرها تعزف في طهران، وكانت ثمة سلسلة واسعة من المعارض في العاصمة والأقاليم. وغير ذلك كثير. كانت الجماهير متحمسة وكانت استحضارت الأمن في الأماكن العامة مهملة، ولم يكن ثمة دليل على الامتعاض أو العداء. بل على العكس، كانت العملية برمتها نجاحاً لا يوصف وعليه باركنا لأنفسنا أننا حققنا أهدافنا. وحتى بعد ستة شهور كان تحقيق شيء مماثل غير متوقع.

أدركنا خلال الشهور القلائل الأخيرة من السنة أن الشاه كان يسيء إدارة الوضع السياسي الجديد، الذي سمح الشاه له أن يتطوّر على هذا النحو فقد دعا شعبه لفتح حوار مع النظام نتيجة منحه حرّية أكبر للتعبير. ولكن لما فعل أبناء الشعب ذلك عن طريق الرسائل المفتوحة الموقّعة، ليس من قبل الشيوعيين والراديكاليين اليمنيين واليساريين فحسب يل من قبل أعضاء بارزين ومحترمين في المؤسّسة الأكاديمية والمهنية، لم يحصلوا على إجابات في البداية - حيث أهمل نقدهم المدروس لسياسة الحكومة. وبعد ذلك في أواخر الخريف، تمت مهاجمة المجموعات السياسية النشيطة الجديدة جسدياً وتمّ ضرب أعضائها من قبل عناصر وطنية متطوّعة، وحدثت إنفجارات عبوات ناسفة في مكاتب الأشخاص الذين تجرؤا على انتقاد النظام. وتمّ تفريق المظاهرات السلمية

والاجتماعات من قبل سفاحين يلوّحون بهراواتهم وتمّت مهاجمة وجلد أشخاص معينين، بما فيهم النساء، من مكامن في الطريق، وهم في طريقهم إلى الاجتماعات السياسية أو أثناء العودة منها.

إني ألوم نفسي لأني لم أحدّث الشاه حول ردّ الفعل الشديد لسياسته التحرّرية. لم يكن ذلك بسبب إرخائه الأعنة كما أعتقد هو الذي نفخ في قوى ردّ الفعل الأسود أو الثورة الحمراء شبحية المفضلين وكما ذكرت آنفاً، أتى أول إظهار للحرّية السياسية الجديدة من المعارضة المركزية المعتدلة، رجالاً ونساءً من الذين كان بأمكانه أن يجعلهم مشاركين جدد في بنية سياسة أكثر منطقية من سياسة الراستاخيز العقيمة. لماذا كان ردّ فعله تجاهم أولاً بأهمالهم، ثم بحالة من العنف المتستر بغطاء رقيق؟ وقد دفعني موظّفوا سفارتي أواخر العام لمصارحة الشاه بذلك. وكانت حجتهم أن لي معرفة به مثل أي سفير أجنبي آخر، أن لم تكن أفضل من ذلك، وعلى أن تجنبني الحذر للتدخل في شؤون إيران الداخلية قد منحني درجة الثقة استطيع من خلالها أن أفوز في لحظة مهمّة كهذه. كانوا على صواب ولكني لم اتخذ إجراءاً ما. وقد كانت علاقتنا أواخر عام ١٩٧٧ في حالة دقيقة، كما أراد لها الحظّ أن تكون نتيجة محكمة حول أعمال تخريب جرت في لندن وضمت ضابطاً بريطانياً في الخدمة حيث ظهرت فيها علانية إدعاءات مدمّرة ضد الشاه. كنت أقابل هويدا الذي أصبح وزيراً للبلاط، وأقابل الشاه باستمرار أيضاً حول نشر هذه المحاكمة وقضيت وقتاً عسيراً في ذلك. وكان الشيء الأخير الذي لا أريده هو أن أضيف عاملاً آخر للجدال عند حواري مع الشاه. لو كان علم في منصبه لكلمته عن ذلك ولكنه كان قد غادره. وهكذا تركت الفرصة تفوت. وكان من المؤكد عموماً أن شيئاً لم يتغيّر لو كلمته ولكن حقيقة كوني لم أفعل ذلك ستظلّ تعذب ضميري.

لم تكن الهجمات الجسدية على المعارضة المعتدلة على أيّة حال

الجزء الوحيد من التهريج الخطر الذي ارتكبه النظام في جوّ من الغليان المتزايد. وكما ذكرت سلفاً، كان مهرجان شيراز العالمي لسنوات عدة موضع خلاف بسبب الطبيعة المروّعة لما كان يؤديه الطليعة من الفنانين في بيئة إسلامية تقليدية ويحضر البال مثالان من الإداء المسرحي لتسلية جمهور أجنبي في غالبيته وهما قيام الراقصين البرازيليين بقضم رؤوس الدجاج الحيّ، وكذلك عرض مسرحي عن آلأم الشيعة والتعزية وقد تفوق مهرجان شيراز لعام ١٩٧٧ في إهانة القيم الاخلاقية الإيرانية. فمثلاً وكما ذكر لي شاهد عيان، تمّ تمثيل مسرحية تجسّد مساوئ الحكم العسكري والاحتلال فقد حجزت شركة المسرح حانوتاً في الشارع الرئيس من سوق شيراز للتمثيل فيه حيث كان نصف التمثيل يجري داخل الحانوت ويجري النصف الآخر خارجه على الرصيف، وكان أحد المشاهد الذي تمّ تمثيله على الرصيف اغتصاب امرأة يؤدي بالكامل (دون ستارة) يقوم به رجل (أما عاري أو بدون بنطل، لا أتذكر أيهما) على امرأة يخلع عنها لباسها من قبل مغتصبيها. ويضمّ الإعلان عن المسرحية، الذي مثل على الرصيف أيضاً مشهداً حيث يخلع أحد شخصيات المسرحية بنطاله ويدخل مسدس تمثيل في مؤخرته على افتراض أنه يضيف احتمالاً لانتحاره. وكان تأثير هذا العمل المقزز والشاذ على مواطني شيراز الطيبين وهم يتبضعون مساءاً لا يمكن تخيّله. وقد أثارت هذه الفرقة المضحكة عاصفة من الاعتراض وصلت إلى الصحافة والتلفزيون. وأتذكر أني قلت ذلك للشاه، وأضفت له أن المسرحية ذاتها لو مثلت في الشارع الرئيس في (مدينة ونشتر تمثّل مكافي إيران لمدينة كاتدرائية) سيواجه الممثلون والمنتجون المتاعب. وضحك الشاه متسامحاً.

إن الأثر السياسي لحادثة كهذه سيكون كبيراً جداً في أي زمان وعلى وجه الخصوص عندما تكون هنالك إمارات عدّة على زيادة مفاجئة في

التقاليد الدينية عبر البلاد. لقد كانت هنالك اضطرابات ذات دوافع دينية في جامعة طهران في تشرين الثاني - ربما حفزها جزئياً مهجران شيراز - وكانت هنالك تهديدات حول لباس الطالبات وتظاهرة حول تعميم الكافتيريات المختلطة للطلبة. أتذكر أني زرت شيراز ذات مرة في تشرين الثاني لأقرأ بحثاً في حلقة دراسية - بمناسبة المهرجان الثقافي البريطاني - حول العلاقات الإيرانية البريطانية. كان حضور الطلبة إلى الحلقة جيداً رغم الاضطرابات في المجمع الجامعي، ومرّ كل شيء بسلام. وقد اثار اهتمامي وصول حوالي ست طالبات يرتدين لباساً تقليدياً أسود اللون (جبة) ويعتمرون أغطية رأس سوداء. جلسنّ صامتات، وبدين غير مقتنعات، في الصف الأخير ولدى عودتي إلى طهران كنت جالساً في الطائرة جنب صديق لي كان حاضراً في الحلقة الدراسية وهو يعمل استاذاً في جامعة أصفهان. وأخبرته عن البنات اللواتي كن يرتدينّ السواد وأخبرني أنه كانت خلال الأشهر القليلة الماضية، ثمة زيادة ملحوظة في الحماسة الدينية في جامعة أصفهان. كان يعيش في مجمع الجامعة ولم يكن من غير الشائع بالنسبة له أن يرى صلوات الجماعة التي يؤديها الطلبة في ازدياد في الأماكن المفتوحة بعد الغروب. وسألته كيف يفسّر هذه الظاهرة؟ كان هنالك حسب وجهة نظره التقاء بين هؤلاء الطلبة المسلمين الراديكاليين والأعداد الكبيرة من الطلبة الجدد المستفيدين من الانفجارية الثقافية للشاه، الذين جاؤا لأول مرة من المدن الصغيرة وحتى من القرى. لقد أتى هؤلاء الشباب من بيئة تقليدية وقديمة الطراز، ووجدوا في حياة مدينة أصفهان صدمة لهم، فهي ترجمة لبابل حديثة. لذلك وجدوا في دينهم ملجأ لهم ووقعوا فريسة سهلة بأيدي العناصر النشيطة ذات الاتجاه الإسلامي الذين كان حماسهم السياسي شديد.

ويوجد لدي دليل آخر على هذا الاتجاه المزعج من أصدقائي في

جامعات طهران. أتذكر مرة أخبرني فيها أستاذ مطلع اطّلاعاً جيداً في جامعة آريامهر (وهي الجامعة التكنولوجية في طهران) بأن حوالي ٦٥٪ من طلبته متحمّسون باتجاه الإسلام، وحوالي ٢٠٪ نحو الشيوعية أما البقية المحايدة فهم غالباً في صف المجموعة الإسلامية فيما لو حدث الإضطراب.

كذلك بدأ آية الله الخميني في خريف عام ١٩٧٧ يجعل حضوره محسوساً وأن كان ذلك من منفاه في النجف إحدى المدينتين المقدستين للشيعة في المنطقة الجنوبية من العراق. توفي أحد أبناء خميني - الذي قتل من قبل السافاك - وقام العديد من الإيرانيين بزيارات لمدينة النجف لتقديم التعازي للإمام الخميني. وقد اغتنم هذه الفرصة لإلقاء محاضرات على أشرطة التسجيل الصوتي (الكاسيت) وتمّ توزيعها في أسواق طهران وفي الأماكن الأخرى من إيران. لقد رفع ذلك من جرأة الحماس الديني وكان من الواضح أنه، رغم كرهه للنظام البهلوي لم يشر إلى رضا شاه. كان حديثه المسجّل على الأشرطة يدور حول رضا خان وابن رضا خان وهكذا أشار إلى رفضه لشرعية الملكية الحاكمة.

وجد الشباب المثقّف في طهران عدة منافذ للتعبير عن آرائهم في الجوّ الجديد من الحرّية النسبية. وعلى الأقل ضمن الحضانة من الاعتقالات الجماعية الموجودة سابقاً وفي تشرين الأول أقيمت سلسلة من الندوات لإلقاء الشعر في المركز الثقافي الألماني الغربي حيث ألقى عدد من الشعراء الإيرانيين مقتطفات من أعمالهم الشعرية. وكان أحد هؤلاء الشعراء قد أطلق سراحه من الاعتقال السياسي قبل يومين فقط. وقد اغتنم الفرصة هو وزملاؤه لإسماع نقدهم القوي للنظام من خلال الأشعار التي أنشدوها. كانت الجماهير التي حضرت الندوة خلال أسبوع كبيرة جداً تقدر بحوالي (٦٢,٠٠٠) شخص وكانت تبدي اهتمامها بما ينشد من الشعر ولم يقم النظام بالإنتقام لذلك.

قام الشاه بزيارة رسمية إلى واشنطن، أواخر تشرين الأول، تتويجاً لمحاولات دبلوماسية عدة طوال عام لتطوير علاقة أوثق وأقلّ حساسية بينه وبين الرئيس كارتر. وجعل طلبة جامعة طهران وجامعة أريامهر هذه الزيارة مناسبة لإقامة تظاهرات عنفية مناوئة للشاه وكانت هنالك صدمات كبيرة مع الشرطة في الحرم الجامعي وفي نفس الوقت كان تلفزيون طهران يعرض فيلماً عن مراسم استقبال الشاه والأمبراطورة من قبل الرئيس كارتر وزوجته في البيت الأبيض أثار سخرية الجماهير. وكان العدد الكبير من الطلبة في الولايات المتحدة فعّالاً، حيث كانت هنالك مجموعات من المتظاهرين ضد الشاه متجمعة خارج البيت الأبيض. وكان السفير الإيراني في واشنطن فعّالاً هو الأخير وكان قد عيّن جماعات من المتظاهرين الموالين للقيام بمظاهرات مضادة. كان الصدام بين الفريقين المتضادين لا مفرّ منه مما اضطر الشرطة إلى استخدام الغاز المسيل للدموع. حملت الريح الغاز المسيل للدموع عبر حديقة البيت الأبيض، واستمتع مشاهدوا التلفزيون الإيراني بالمشهد المخزي لامبراطورهم وامبراطورتهم وكذلك للرئيس الأميركي وزوجته وهم يقفون بعناد وينتصبون ساكنين أثناء عزف النشيدين الوطنيين، ويضعون مناديلهم على أعينهم والدموع تسيل على وجوههم. لو لم يكن ذلك من أجل عهد منح المزيد من الحرّية فإني أشك بأن تلك الأفلام كان ستعرض في طهران.

صفع الحظّ العاثر الشاه ثانية في تشرين الثاني. لقد فقد في بداية العام مستشاره الأقوى الحكيم والموالي **أسد الله علم** نتيجة مرض عضال. وتوفي يوم الخامس والعشرين من تشرين الثاني الدكتور منوجهر إقبال فجأة نتيجة نوبة قلبية. لم يحقّق الدكتور إقبال نفس العلاقة الحميمة مع الشاه، كما فعل علم لكنه عرفه لسنوات عدة. لقد عمل رئيساً للوزراء وكان آخر ما تولّاه رئاسة شركة النفط الوطنية. ومن المحتمل أنه كان العضو الوحيد بعد علم الذي كان بإمكانه أن يجرؤ على محاولة التأثير

على الشاه. كان كبر سنه وتميّزه وأسلوبه كرجل دولة كبير قد منحه موقعاً لم يحصل عليه إلاّ القلائل. وقبل وفاته بشهور، كان منعزلاً تقريباً في المواقع العليا في الحكومة، وكان يتحدث إلى أصدقائه سرًّا بمن فيهم أنا. وبتعابير غامضة أشبه بالرؤى عن حالة البلاد، كان ذلك تغيّراً جذرياً طرأ على ثقته بنفسه في السنوات السابقة. فقد تكونت لدي انطباع وكذلك لدى السفير الذي سبقني وهو السيد دينس رايت (الذي كان مقيماً في طهران) الذي تربطني به صداقة جيدة كما أعتقد، عن قلقه الحادّ حول الاتجاه السياسي الذي يسير البلد فيه، وإحساسه بكارثة وشيكة الوقوع. وأعتقد بأنه قد توقع بأننا أصدقاء إيران الأجانب، سوف ننقل مخاوفه إلى الشاه. ولكني أؤمن أيضاً بأنه كان يهيء نفسه لمفاتحة الشاه صراحة قبيل وفاته بوقت قصير.

وتناولت العشاء معه قبل أسبوع أو أسبوعين من وفاته وغادرت منزله بانطباع مفاده، أنه غير مستعدّ للبقاء ساكناً مدة أطول بحضور حاكمه لو كان قد كلّم الشاه فلربما لم يجلب ذلك تغييراً أكثر مما لو تكلّمت أنا مع الشاه حول فشله للاستجابة، بغير طريق القوّة، للاقتراحات التي يقدّمها له شعبه من خلال حرّية التعبير التي أكتسبها أخيراً. ولكن، ومع اقتراب العاصفة كان من المأساوي أن يحرم الشاه من رجلين لهما منزلة عنده وهما علم وإقبال، الذين كان بأمكانهما نصحه بشكل جيد عندما تهاوت إلعوبته وبات غير متحفظ من اقتراحات أولئك الذين وثق بهم.

ولدى انتهاء العام. بدا أن عنف الدولة المتستر بغطاء رقيق قد أدّى بالنتائج فقد انزوت العناصر السياسية المعتدلة الناشطة، التي كانت لها تجارب مثبطة من الانتظار وعادت غالبية المجمعات الجامعية إلى العمل. كان إطلاق الحرّيات ما يزال كلمة السرّ على الصعيد الرسمي، وتمّ على الأقل تعليق الاعتقالات الجماعية بصورة مؤقتة. كان تقويمي للموقف كئيباً ولكنه غير مأساوي. وخشيت أن موجة النشاط السياسي

سوف تلتحم مع عدم الرضا الاجتماعي السائد ، وهكذا تنتج تدميراً مشتعلاً كان الشاه في حالة من قلة الثقة، يتلمس طريقه بحذر ولكن طريقة غير متقنة فيما يخصّ التطوّرات السياسية في المستقبل. كان زمام السيطرة ما يزال في يده ولم أتوقع وجود تهديد لنظامه. كانت المشاكل التي واجهها مقلقة ولكنها ليست خطرة. وبدت لي روح الواقعية الجديدة في بعض المجالات في إدارة الاقتصاد خاصاً أساساً أكثر صلابة للتقدم عليه من الثقة المبالغة المتعجرفة في السابق.

ربما كانت أتعس مهزلة في عام ١٩٧٧ ، إذ إنني أكتب كتابي هذا بعد ستّ سنوات، هي زيارة الرئيس كارتر وزوجته لإيران عشية رأس السنة التي استغرقت ليلة واحدة يوم الحادي والثلاثين من كانون الأول. كانت زيارة الرئيس التي رافقته فيها حاشية تصل إلى (٥٠٠) شخص من موظّفين وصحفيين ورجال أمن، تهدف إلى إتمام إعادة الثقة الكاملة بين الشاه والإدارة الأمريكية عقب فترة الغثيان التي سادت العلاقات الأمريكية ـ الإيرانية منذ كانون الثاني عام ١٩٧٧ . كانت المأدبة الكبيرة التي أقيمت في قصر نافارين سرية ظاهرياً، ولكن نصّ كلمة الرئيس كارتر ألقاها بعد مأدبة العشاء تم تعميمها بصورة واسعة. لم أعرف من كتب خطابه ورفض أصدقائي في السفارة الأمريكية، بدافع الولاء، إخباري بذلك يوم عيد رأس السنة ولكن السخط عليه بلغ مبلغاً كبيراً سوف أموه على ذكر الأسماء التي قد يضايق الآخرين ذكرها وأذكر بأن الرئيس دعا الله أن تصبح إيران الشاه واحة للسلام والاستقرار في منطقة مضطربة وأشار بلغة منمقة إلى حبّ أبناء شعب إيران لمليكهم الشاه فقط. ولم يكن الشاه ليلتها أن يشكو من أية مسحة للبرود في التأييد الأمريكي له ولمملكته، بالتأكيد.

الفصل السادس

١٩٧٨ ـ ١٩٧٩

الثورات لا تحدث غالباً عندما تسير الأمور من سيء إلى أسوأ، بل على العكس فإنها تقع في أغلب الأحوال عندما يجد شعب ما. عاش تحت وطأة حكم قمعي لفترة طويلة. دون مقاومة من جانبه، أن الحكومة أخذت تخفف ضغطها على نحو مفاجيء، عندها سيحمل السلاح ضدها. وهكذا فإن النظام الاجتماعي الذي يسقط نتيجة الثورة غالباً ما يكون أفضل عموماً من ذلك الذي سبقه مباشرة وتفيدنا التجربة بشكل عام، أن أحرج لحظة لحكومة سيئة هي تلك التي تحاول فيها إصلاح طرائقها، إن فنّ الحكم البارع وحده، يستطيع أن يمكن ملكاً ما من إنقاذ عرشه، عندما يبدأ بإصلاح مواطنيه بعد فترة طويلة من الحكم القمعي. ويغدو الوضع الذي تحمله الشعب بصبر لفترة طويلة فترة مظلمة لأنه يبدو من وراء أفق أمراً غير محتمل بمجرد أن تخطر على بال الناس إمكانية إزالتها. ذلك لأنه مجرّد إصلاح بعض المساوئ الأخرى تبدو مثيرة للخنق أكثر من سابقتها: فقد تصبح معاناة الناس أقلّ من السابق لكن حساسيتهم تزداد خطورة وحدة.

عن دي توكوفيل: القديم والثورة الفرنسية

بعد أيام قلائل من مغادرة الرئيس كارتر، أشعلت الحكومة عن غير قصد الفتيل الذي شاء له أن يفجّر اللغم الذي سيدمر الملك البهلوي وكل ما كان يناضل من أجله بعد عام واحد. كانت السلطات قلقة لفترة معيّنة بسبب التأثير الكبير لأشرطة التسجيل الصوتي السرية لخميني على الرأي العام. وقد قرّر أحد ما، في بداية كانون الثاني. تشويه سمعة خميني علناً. أعتقد الكثير من الناس بأن ذلك قراراً شخصي أصدره داريوش همايون، وزير الإعلام ولكن ضمن البنية المتشظية للنظام البهلوي، وربما كان ذلك من قرارات الشاه نفسه أو السافاك أو مجلس الوزراء ككل. لا يهم ذلك يكفي أن نقول بأن الطريقة التي اختيرت كانت سخافة كبيرة وحتى في حينه اعتقدت بأنها ما كانت لتحدث لو أن «علم» ما يزال في البلاط أو أن الدكتور إقبال كان على قيد الحياة. نشر مقال طويل في إحدى الصحف الرئيسية ينتقد خلفية حياة خميني الشخصية. وأخلاقياته الخاصة. وسجله الديني بتفاصيل شنيعة، وحيث أن ذلك جاء في زمن من الاختمار السياسي الذي لم يسبق له مثيل طيلة خمسين عاماً. كان ردّ الفعل سريعاً. وقع شغب خطر في التاسع من كانون الثاني في مدينة قم المقدسة للمقام الروحي لخميني. وأفلت الموقف عن سيطرة الشرطة المحلية. وتمّ استدعاء الجند، لأول مرة منذ عام ١٩٦٣ . حيث أطلقوا النار على الحشد. أما بسبب الرعب أو عمداً. قتل عدد من الناس. وكانوا أقل من عشرة أشخاص حسبما ذكرت الحكومة وحوالي مائتي شخص حسبما ذكرت المعارضة. صدمت البلاد بكاملها وصعقت نتيجة لحادث. وتطوّرت أزمة بين القيادة الدينية الإسلامية والحكومة. وأغلق عدد من جوامع طهران، وأعلن القادة الدينيون الحداد المعتاد لمدة أربعين يوماً على أرواح اولئك الذين قتلوا في قم.

بدت الحياة تعود إلى مجاريها، بعد أيام قلائل، لدرجة أن ذوي البصيرة في النظام كانوا على ثقة تامة بتلك العودة. وأذكر مناقشة كاشفة مع هويدا بعد بضعة أسابيع ذهبت لمراجعته حول عمل روتيني. في محل إقامته الرسمي قرب مجمع قصر سعد آباد في شمال طهران، في إحدى الليالي كنا نتحدث حول مسألة أثارت اهتمامنا، حينما قال لي أنه قد تأخّر عن موعده مع طبيب الأسنان. ولما كانت عيادة الأخير في جنوب طهران وراء سفارتي بكثير. عرض عليَّ هويدا أن ينقلني معه كي نتمكن من الاستمرار بالنقاش وانطلقنا بسيارته وكان يقودها بنفسه دون حارس أو مرافق. كان الوقت حوالي التاسعة مساءً ، وكانت الشوارع مضاءة بشكل جيد. ولما توقفنا في أول زحام مروري، لاحظ عدد من المشاة وكذلك بعض العمّال في إحدى الشاحنات وجود هويدا وتزاحموا حول سيارته. فتح النافذة وتكلّم معهم ومازحهم. وقبّلوه وربتوا على ظهره، وكان مشهداً يبعث على الاطمئنان ولما استمرينا بالسير قلت له أن من السعادة أن ينقلني سياسي مشهور مثلك. أشار إليّ أنه كان رئيساً للوزراء لمدة ثلاث عشرة سنة وأنه كان يخرج عن المألوف عادة ليديم اتصالاً مباشراً مع الشعب. ولاحظت أنه لم يكن مكروهاً. وتحوّل النقاش إلى الوضع الداخلي وعبّرت له عن قلقي من الطريقة التي تسير بها الأمور. لماذا لم يكن موقف الشاه إيجابياً للحوار الذي حاول شعبه أن يجريه معه؟ لماذا كان يأمل أن يكسب من جلدهم سراً أو من حادثة مروعة مثل إطلاق النار في قم؟ . إلى أي مدى كان الوضع سيئاً حسب رأيه؟ سوف لن أنسى إجابة هويدا مطلقاً.

حسناً يا توني. أنت تعرف تعريف جلالته للحوار. ألا وهو أنا أتكلم وأنت تستمع. وسوف لن يغير هذا. بإمكان الحكومة أن تفعل المزيد. أن أموز كان لامع الذكاء ولكن تنقصه صلة السياسي بالشعب. آمل أن يتعلّم قبل فوات الأوان بأن الحكومة ليست مسألة إدارة بيروقراطية تماماً. أن

أسوأ خطأ ارتكبه هو قطع الإعانة المالية، التي كنت أدفعها للملالي لأكسب رضاهم حرصاً منه على توفير أموال الدولة. وقد طالبت الشاه بإلحاح بإعادتها لهم وعلى كل حال فإن الأمور ليست بذلك السوء. علينا أن نستدعي بعض الدبابات إلى الشارع الرئيسي في طهران وسيهدأ كل شيء. ولسنا بحاجة لأن نقوم بذلك الآن.

أعترف بأني شعرت بالإرتياح نتيجة هذه المناقشة، شعرت بإرتياح أكبر عندما اتّصل بي هويدا هاتفياً بعد أيام قلائل ليخبرني بلغة متحرّرة إن الإعانة المالية للملالي قد أعيدت. إن حقيقة كونه قد كلّف نفسه ليخبرني هذا أظهرت كيف كانت المسألة تشغل باله.

لكن الهدوء الذي سبق العاصفة لم يدم طويلاً. فبعد أربعين يوماً من حادثة قم بالضبط ثار المشاغبون في تبريز. عاصمة أذربيجان، مقر آية الله كاظم شريعة مداري أحد القادة الدينيين من آيات قم. أتّخذ الهياج هذه المرة صورة جماعات من الناس تتدفق فجأة من الجوامع. لتحرق الثورات التي ترمز إلى التحديث البهلوي كالمصارف ومخازن الشراب ومقرات حزب الراستاخيز. ومرة أخرى أخذت قوات الأمن على حين غرة (حيث تم صرف رئيس شرطة تبريز من الخدمة مراراً) واستدعيت الحامية للتدخل حتى أن دبابتين في المستودع المحلي للتصليح ولأغراض التدريب فقد نشرتا في الشوارع وهي علائم لإشارة هويدا لي. قتل العديد من الناس على أيدي الجيش واستغرقت إعادة النظام عدة ساعات وأقيمت فترات الأربعين يوماً من الحداد.

وتوصلت إلى أني لا أستطيع بعدئذ التغاضي عن مسألة مناقشة الشؤون الداخلية مع الشاه. ولما قابلته في المرة الثانية سألته مباشرة عن تقديره للموقف في ضوء الاضطرابات في قم وتبريز. وقلت له بأني أعلم أنه لا يرغب في مناقشة الشؤون الداخلية مع السفراء الأجانب وخاصة مع السفير البريطاني، ولكني لا أسأل لمجرّد حبّ الاستطلاع. إن لدينا جالية

في إيران تصل إلى (٢٠,٠٠٠) نسمة يعيش الكثيرون منهم ويعملون في الأقاليم وهناك ما يربو على (٥٠٠) مواطن بريطاني في تبريز. لذلك فمن حقّي أن أعرف مدى خطورة الموقف ذلك لأنني بغض النظر عن أي شيء آخر، مسؤول عن سلامة ومصلحة أبناء بلدي. كان الشاه أكثر واقعية وأقلّ امتعاضاً، حول جرّه إلى مناقشة موضوع حسّاس كهذا مما عرفته سابقاً، قال لي نعم أن الوضع خطر ولكنه كان عازماً على دفع عملية إطلاق الحرّيات إلى الإمام. طلب منه الكثيرون بإلحاح، خاصة السافاك أن يصبح أكثر صرامة مع المشاغبين، لكنه كان يرى أن لا مجال في العودة إلى الوراء.. لقد قرّر أن يمنح شعب إيران المزيد من الحريّة تدريجياً وسوف لن ينحرف عن مساره. كان لا يخشى، على وجه خاص الشيوعيين والعناصر الراديكالية الأخرى المشاغبة من جماعة الطلبة. أما الجبهة الوطنية والأحزاب السياسية القديمة الأخرى فلا تشكّل تهديداً خطراً. كان أكثر أعدائه حقداً وأكثرهم قوّة الملالي بما لديهم من سيطرة على فكر الجماهير. سوف لن يكون هنالك حلّ توفيقي معهم. فهم لم يغفروا لأبيه عدم اتخاذ نفس العلاقة مع القيادة الدينية للشيعة التي كانت موجودة في العهود التي سبقته. لذلك فإنهم لم يعترفوا قط بشرعية ملك أبيه وأقل من ذلك بالنسبة له. أنهم لا يمكن شرائهم ولا التفاوض معهم حول التعاون مع نظام لا يعترفون به. كانت تلك مواجهة مباشرة وكان أحد الجانبين لا بدّ أن يخسر. ورغم أن الشاه لم يطل في ذلك الحديث إلّا أنه تركني على ثقة أنه لا يمكن أن يتخيّل نفسه خاسراً في هذه المعركة.

انتشرت حوادث متفرقة على قرار حادثة تبريز، خلال الربيع وأوائل الصيف، في عدة مدن. بما فيها مدينة يزد الواقعة جنوب شرق إيران وفي طهران نفسها. وقد أغلق سوق طهران في مايس وكان ذلك نذير شرّ لم يحدث له مثيل منذ أعمال الشغب التي أعقبت الإصلاح الزراعي عام

١٩٦٣ . وأصبح من المعتاد نشر الجيش في مواجهة المشاغبين مما تسبب في خسائر أفدح وهذا جعل دائرة الأربعينية التي يستغلها المشاغبين مستمرة: قتلى حداد لمدة أربعين يوم، مزيد من الشغب، مزيد من القتلى وهكذا دواليك، وحاولت الحكومة تنظيم تظاهرات مضادة من خلال حزب الرايستاخيز ولكن تأثيرها كان ضعيفاً. كانت أحد الجهود الرئيسية التي بذلت في هذا النوع من المظاهرات في تبريز، وحضره رئيس الوزراء وأغلب أعضاء مجلس الوزراء، وإقامة حشد كبير منظّم تنظيماً جيداً حيث تمّ جلب القرويين من مناطق حول المدينة تبعد أميالاً عنها إلى تبريز. ولكن الحماسة كانت ضعيفة، وكما أخبرني صديق لي كان حاضراً هناك، أن العراك كان ينشب بين مؤيدي الراستاخيز المستأجرين والمتسلّلين من المعارضة. ولم تكن تلك مناسبة ميمونة.

وكان من المدهش، على الرغم من ذلك، الحدّ الذي استمرت فيه الحياة الطبيعية والطريقة التي استمرّت بها فرغم خطورة كل حادثة، بدا أن ليس ثمة دليل على وجود توتر عام. كان الشاه والأمبراطورة يجيئان ويذهبان في زيارات رسمية. ويستقبلون السيل المعتاد من الزائرين من رؤوساء الدول وعدد من أصحاب المقامات الرفيعة وكانت وفود التجارة الخارجية تتقاطر على إيران وكان من الصعب أن نتصوّر إننا نقف على حافة بركان. وقام وزير الدولة لشؤون الدفاع. السيد فريد مولي بزيارة إلى إيران في عطلة نوروز (رأس السنة الفارسية) أواخر آذار. وذهب إلى منتجع العطل في جزيرة كش في الخليج العربي ليقابل الشاه الذي استقبله بحرارة. كان يبدو سليماً وكان يتمتع بمزاج العطلة. كان عاد توه من جولة صباحية لركوب الخيل مع الملك حسين عاهل الأردن، وجرى اللقاء بوجود الكلاب والأطفال الذين كانوا يدورون حول الغرفة. لم يكن ثمة إحساس بالأزمة وأتذكر إننا توقفنا في شيراز لبضع ساعات في طريقنا إلى كش كي يستطيع السيد مولي وعقيلته التجول في المدينة وتمّ إخبارنا

أن ثمة اضطراباً في السوق ولكن كان الجوّ العام في المدينة له طابع يوم العطلة الرسمية الإنكليزية[1] وكانت العوائل تقوم بنزهات في جميع المناطق المفتوحة المتيسرة بعد ذلك طرنا أنا وزوجتي والسيد مولي وزوجته إلى بحر قزوين لنتناول طعام الغذاء مع هويدا في سقيفته جوار البحر في مأدبة غير رسمية. لم يكن أمتع منها ولا أكثر استرخاء ولا طبيعة.

كذلك زارت إيران السيدة مارغريت تاتشر، في شهر نيسان التي كانت في ذلك الوقت تتزعّم المعارضة برفقة السيد جون ديفس وزير حكومة الظل للشؤون الخارجية والكومنويلث، وتمّ برنامج زيارتها دون توقفات، فقد استقبلها الشاه وزارت الوزراء القيادين وألقت خطاباً في غرفة التجارة الإيرانية ـ البريطانية في مأدبة غداء كبيرة. كما أقام رئيس الوزراء مأدبة عشاء ممتعة ومبهجة على شرفها وقات بجولات اعتيادية إلى أصفهان وشيراز. كانت أصفهان تغّص بالسواح الأوروبيين والأمريكان كما هو شأنها في الربيع. وكان الدليل الوحيد على أن شيئاً ما ليس على ما يرام هو إلغاء زيارة السيدة تاتشر إلى سوق أصفهان الذي تمّ بهدوء. وفسّر لي مرافقها ذلك قائلاً احتمال وقوع بعض الاضطرابات. كانت هذه العودة المتاهة الظاهرية إلى الحالة الطبيعية بين حادثة وأخرى خارج إطار تجربتي وقد هدتنا جميعاً بشعور زائف على أن الوضع ليس شيئاً بالرغم كل شيء. لقد كنت معتاداً على الاضطرابات في بلدان الشرق الأوسط حيث يتصاعد التوتر بشكل ثابت وملموس ويبدو واضحاً حتى لدى أكثر الملاحظين سطحية. ولكن لم تكن هذه هي الحالة في طهران خلال النصف الأول من عام ١٩٧٨ . أتذكر أنني زرت مدينة يزد أنا وزوجتي بعد أيام قلائل من وقوع صدام كبير بين المشاغبين وقوات الأمن، حيث كانت إحدى سمات

(١) عطلة رسمية إنكليزية تعطل فيها المصارف.

ذلك الصدام هي قيادة الكلاب عبر السوق. زرنا معامل النسيج وتحدثنا مع الفنّيين والمديرين البريطانيين العاملين هناك. نعم لقد كان الشغب خطراً وكانت المعامل مضربة ليوم أو يومين. ولكن لما وصلنا هناك كان الجميع قد عادوا إلى العمل وكانت الأسواق مفتوحة حيث تبضعنا أنا وزوجتي منها وزرنا الجوامع الرئيسية التي كانت مهجورة في الواقع، ولم يكن ثمة إحساس بالعداء أو باضطراب وشيك الوقوع. وقد وقع في مناسبة أخرى في نفس الفترة تقريباً شغب في سوق طهران. وفي اليوم التالي تنقلت بسيارتي الرسمية من طراز رولس ـ رويس وعلم المملكة المتحدة يرفرف فوقها، في المنطقة الواقعة شمال السوق مباشرة. ومرة أخرى لم يكن هنالك سلوك عدائي ولا تجمّعات غاضبة من الناس تحوم في المكان، ولا حوانيت نصف مغلقة. كان كل شيء يبدو هادئاً، وكان عامة الناس يقومون بقضاء أعمالهم دون إعارة اهتمام إلى المظهر البهي للسفير البريطاني وهو ينتقل في منطقة تندر فيها رؤية السيارات الدبلوماسية الرسمية. كانت الحال كما لو أن كل حادثة كانت لعبة نارية اشتعلت وخفتت ثانية، تاركة المنطقة المحيطة بها كما كانت عليه سابقاً تماماً.

كنت أستحق التمتع بإجازة، أمدها ثلاثة شهور ونصف في بلدي أواخر مارس، حيث لم تمنح لي فرصة للتخلص من ضغوط إيران لمدة سنتين. فكرت كثيراً بوضع البلاد قبل أن أتمتع بهذه الاستراحة الطويلة. كنت قد بعثت عدداً من التقويمات إلى لندن، كانت تدور عموماً حول ما يمكن إنجازه السطور الآتية: لا شك في خطورة الموقف، حيث أن الجامعات في فوضى وعدم انتظام مستمر لطلبتها. ورغم أن هذا بحدّ ذاته لا يشكّل تهديداً للنظام ولكنه يساهم بشكل كبير في انعدام الثقة، لدى عامة الشعب. في قدرة الحكومة على حلّ المشاكل. أما الطبقات الحرفية لقد أعلنت المجابهة على ردّ فعل الشاه الذي رفض مطالبتها بإلغاء

الرقابة واستقلال القضاء وخضوع المؤسّسات الحكومية للمحاسبة السياسية ومنذ حادثة قم تولت الطبقات الدينية قيادة المعارضة وكانت تلهب حماس الشعب صراحة من خلال شعائرها الدينية في الجوامع. وبالرغم من جهود أموزكار فقد كان الاقتصاد يتخبط، حيث أن سياسة الإنكمشية سببت مصاعب مؤقتة وكان القطاع الخاص قد بدأ يفقد أعصابه. كانت الميزانية المجمّدة، لعام ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ في المسار الصحيح إلاّ أن توكيدها على الأمور الأساسية التربية والإسكان بكلفة منخفضة أو متوسطة، ومحطات توليد الطاقة والمواصلات ستأخذ وقتاً طويلاً لتظهر نتائج مفيدة.

لقد فقد الشاه بإختصار مبادئه وسياسته الداعية إلى إطلاق الحرّيات. تحوّلت إلى تكتيك دون ستراتيجية شاملة والتي لم ينتج عنها غير الزيادة المستمرّة في المطالبة. كان الراستاخيز أخفق إخفاقاً تاماً وبدا الشاه مستريحاً ليترك عناصر السلطة تقع حيثما وقعت. وفي حالة فشله كلياً في إعادة بناء موقعه بوصفه وطنياً مبدعاً، تحت سيطرة الظروف فإن تناقض إدعائه كونه الرأس المدبر لسياسية حركة يفترض بها أن تستمدّ الهامها من حاجات الشعب ربما سينفضح. كانت فلسفة الشاه، فيما يخصّ الثورة التي قام بها الشعب لا تحوي تعاليماً لزمن يصبح فيه الشعب غير مقتنع بسياسات الشاه.

لكني كنت ما أزال لا أعتقد أن خطر سقوط الشاه وارد كانت له تجربة واسعة، وقد ظلّت القوات المسلحة موالية له، وكان قد عاش فترات أكثر صعوبة خلال (٣٧) عاماً مضت. كان يستمرّ بسياسته إطلاق الحرّيات واثقاً من أنه يستطيع أن يصبح أكثر صرامة مرة أخرى حين تدعو الحاجة وإذا بلغت الحال حداً يتطلب معالجة صارمة فالقوات المسلّحة كانت ستؤدي واجبها كما فعلت عام ١٩٦٣ عندما رفع شيوخ القبائل والقادة الدينيون لواء الثورة بوجه الإصلاح الزراعي. بالإضافة إلى

ذلك، كانت المقاومة غير موحّدة. فقد كان لكل من الطلبة والحرفيين والعاملين في السوق والملالي مجموعة من مشاكلها الخاصة ولم تكن هنالك أي علامة للإلتقاء. لم يكن النظام في خطر كبير كما لاحظت. بل كان الأمر يبدو كما لو أن السيارة قد غاصت في أرض رخوة ومن الصعب معرفة الطريقة التي ستستعيد بها سرعتها ثانية كنت ما أزال مستعدًّا للرهان على البهلويين، ولكني غادرت إلى انكلترا في حالة من الشعور بالثقة أقلّ كثيراً مما ذهبت إليها للمرة الأخيرة في إجازة قبل عامين ونصف.

ولما عدت إلى طهران في أوائل أيلول كان واضحاً بجلاء أن هنالك تغييراً نوعياً نحو الأسوأ وأن الكيان البهلوي في خطر. وفي الوقت عينه كان هنالك هدوء في حزيران وتموز ولكن وقعت اضطرابات حادة في شهر رمضان الموافق للسادس من آب لغاية الرابع من أيلول كانت هنالك دورة من العنف الليلي حيث كانت حشود المصلّين الذين أصبح مزاجهم حاداً بسبب الصيام، والهبتهم خطب الملالي، تخرج من الجوامع فجأة في ثورة ضد رموز الحداثة والبهلوية والثقافة اللاسلامية. كانت إنفجارات الغضب هذه متقطعة وآنية وغير منظمة وتصعب السيطرة عليها من قبل الشرطة أو الجيش.

كانت القيادة الدينية بعيدة عن وحدة الأهداف. وكان خميني يطلب سقوط الشاه بينما كان شريعة مداري والآيات الأخرون في قم ومشهد يدعون إلى إعادة العمل بدستور عام ١٩٠٦ وتحديد سلطات الشاه، أما ملالي طهران فهم منقسمون على أنفسهم. لكن لم يكن أحد مستعدًّا للدعوة إلى الهدوء والاعتدال خوفاً من أن يقوم خميني العنيد والذي يرفض الحلول التوفيقية من الالتفاف عليه. أخذت الاضطرابات تزداد سوءاً وفي الثاني عشر من آب أعلنت الأحكام العرفية في أصفهان وبدا الشاه باتخاذ إجراءات مهدئة وأعلن الحرية الكاملة للصحافة والتعبير

وأعلن أن انتخابات جديدة ستجري عام ١٩٧٩ . ولم يصغ أحد له. وتم بتعقل إلغاء مهرجان شيراز ووقع في الثاني عشر من آب حريق مروع في إحدى دور السينما في عبدان وذهب ضحيته (٤٠٠) شخص. وألقت الحكومة باللائمة على الإرهابيين، واتهمت المعارضة الحكومة بالمسؤولية المباشرة، وصدق أغلب الناس المعارضة. كانت تلك هي القشة التي قصمت ظهر حكومة أموزكار وفي السابع والعشرين من آب استقال أموزكار الذي مقته الملالي لكونه تقنوقراطياً غير ودود وضد الإسلام واستبدله الشاه بعضو مجلس الشيوخ جعفر شريف أمامي وهو رجل ذو ماض ديني نزيه، وهو رئيس مجلس الشيوخ ولكن كان يلوثه أنه كان رئيساً للمؤسّسة الوقفية البهلوية. لقد دلل ذلك على جهد من الشاه لإظهار قطيعة تامة مرّ الماضي التقنوقراطي - ومهما يكن من أمر فإن شريف أمامي عدا ذلك لم يكن يظهر للشعب أنه قد فهم رغبته في العودة إلى طريق إسلامي أكثر تقليدية.

كانت تلك نقطة انعطاف ولكن ليست كما أرادها الشاه أن تكون. إذ يعتقد بأن الشريف أمامي قد اشترط في قبوله الوزارة بأن يكون طليق اليد ينظر إلى حكومته بوصفها تحظى بتأييد البرلمان وأن يتخذ الشاه مقعداً خلفياً. وهكذا تمّ كسر احتكار الشاه للسلطة.

بدأ شريف أمامي بإتباع نموذج استرضاء القوى التقليدية الذي ابتدأه الشاه قبل أسابيع قلائل. وقد ألقى التقويم البهلوي المحبب إلى نفس الشاه والذي يمثل تحدّياً صارخاً لأحاسيس شعبه الدينية لقد تمّ تدشينه عام ١٩٧٦ . كانت السنة الإيرانية سابقاً سنة شمسية مقابل السنة القمرية الإسلامية، ولكنها تشترك مع التقويم الإسلامي في أن تاريخها يبدأ بهجرة النبي محمّد (ﷺ) من مكّة إلى المدينة. وعلى كل حال قرّر الشاه في الذكرى الخمسين للحكم البهلوي عام ١٩٧٦ أن التاريخ يجب أن يبدأ منذ تسلم سايروس العظيم العرش قبل الهجرة بحوالي ألف عام.

وقد أثارت هذه العجرفة الأمبراطورية التافهة سخط الملالي وسخرية المفكّرين وامتعاض عامة الناس. وقد أغلقت جميع الكازينوهات إرضاء للتوجه الديني لحركة المعارضة الرئيسية. ومما يثير السخرية أن شريف أمامي بصفته رئيساً للوزراء أغلق نفس الكازينوهات التي كان قد ساهم في فتحها قبل وقت قصير عندما كان رئيساً للمؤسّسة الوقفية البهلوية.

لكن هذه الخطوات لم تنفع في تحجيم المد المرتفع. فقد سارت في عيد الفطر الذي يحلّ في نهاية شهر رمضان، تظاهرة واسعة ولكنها منظّمة. اشتملت على جميع شرائح المجتمع، وسارت من شمال طهران إلى جنوبها. لقد نظمت القيادة الدينية هذه التظاهرة بكفاءة ربما حسدتها عليها الدولة. وكان المتظاهرون معادين للنظام ولكنهم كانوا مسالمين وقد اختلط المتظاهرون اختلاطاً وديًّا مع الجنود. لم تكن ثمة حوادث ولكن قادة الجيش كانوا غاضبين من هذا العرض الكبير للقوّة الشعبية وخافوا على معنويات الجنود في الشوارع وكانت حرّية الصحافة التي أعلنت منذ وقت قصير - والتي لم يصدق بها كل من كان على اطّلاع خلال الشهور القليلة الماضية، أخذت الآن تطبع صور خميني على الصفحات الأولى للصحف مما زاد في غضب القادة. وقد أقنع القادة الشاه ورئيس الوزراء بعد إلحاح بإصدار مرسوم يحضر التجمّعات غير المجازة مستقبلاً.

وجرت تظاهرة ضخمة في السابع من أيلول، دون إجازة مسبقة وتمّ التخطيط لتظاهرة أخرى في الثامن من أيلول. وقد أعلن منعها متأخراً، وكان الكثيرون يرون حينئذ على أن هذه التظاهرات ما كانت لتقع لو علم المنظّمون لها في حينه أن القوات المسلّحة قد أعطيت الأوامر بتفريق المتظاهرين. وزعم آخرون أن العديد من المتظاهرين يوم الثامن من أيلول حضروا مسلّحين بقنابل يدوية مصنوعة من زجاجات مملوءة بالمتفجرات حيث كانوا يسعون للصدام مع الجنود. ومهما كانت الحقيقة، فقد وقع صدام دامي بين الحرس الأمبراطوري والمتظاهرين

في ساحة جالة في جنوب شرق طهران. ولم تعرف قائمة القتلى قط. ولكن ما من شك في أن المئات قد سقطوا تحت أسلحة الجند الآلية. وهكذا تمّ بلوغ مرحلة انعطاف أخرى. كنت على اتّصال مستمرّ بدائرة الشؤون الخارجية في لندن منذ أواخر آب التي استشارات بدورها سفارتي في طهران حول ما إذا كان علي أن أعود إلى عملي قبل الموعد المقرر. وكان الشاه والآخرون يعلمون بأني سوف أعود بين العاشرة والخامس من أيلول، وقد أرتأى القائم بأعمال السفارة جورج تشالمرز وكان على صواب بأن عودتي المبكرة سوف لن تفيد شيئاً، بل على العكس فإنها ستؤدي إلى تفاقم الشعور بالأزمة في ذهن الحكومة والمعارضة. قبلت هذه النصيحة ولكني مكثت على اتّصال يومي بدائرة الشؤون الخارجية منذ بداية أيلول. وتحدثت هاتفياً مع مستشار السفارة في طهران. كان بإمكاني سماع صوت إطلاق النار من خلال الهاتف حيث تقع ساحة جالة على مسافة ميل واحد من مجمع السفارة ـ وسألت ثانية فيما إذا كان عليَّ أن لا أعود مباشرة. وقدما تشالمرز وميرس نصيحتهما. وقد أكدا لي أن لا خطر على المواطنين البريطانيين وكانت حجتهما أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً مفيداً باستعجال العودة وعلى كل، فبعد كل حادث دموي سيكون هنالك هدوء محتمل. وتقبلت نصيحتهما.

طرنا أنا وزوجتي عائدين إلى طهران في ١٣ أيلول. ولما قطعنا الأميال القليلة بالسيارة، عبر المدينة إلى السفارة، أدركت جوّ التوتر السائد ذلك الجوّ الذي كان غائباً بصورة جلية حتى أواخر مارس. فقد انتشرت الدبابات حول المطار وكانت ثمة مجاميع من الجنود هنا وهناك في الشوارع الخاوية عموماً وكان منع التجول سارياً في الليل لم يكن لدي شك الآن في أن أزمة حادة تلفنا وفي إني عدت إلى وضع مختلف اختلافاً جوهرياً وقد ظهرت مصادقية السفارة لي، حول عدم تقديم عودتي، في اليوم التالي عندما أدركت أن شائعة تدور في طهران أن الطائرة التي

سافرت على متنها وهي رحلة مبرمجة للخطوط الجوية البريطانية ـ قد تمكنت بطريقة ما من الهبوط في مطار اضطراري في مدينة النجف في العراق كي أستطيع التشاور مع آية الله الخميني حول تطوّر جهدنا المشترك لإسقاط الشاه.

قمت يوم السادس عشر من أيلول بأول مقابلة سرية مع الشاه، بعد عودتي إلى طهران قبل يومين. وقد أرعبني التغيير في مظهره وأسلوبه. كان يبدو منقبضاً بوجه شاحب ويتحرك ببطء. وكان يبدو مرهقاً ومجهد المزاج. ولكنه كان على استعداد لمناقشة الأزمة الداخلية دون تحفظ أو مداراة. وأعطاني الانطباع الذي لم يسبق له وأن أعطاني إياه بأنه يرحب برأيي الشخصي. وسألني مباشرة فيما لو كان بإمكاننا التأثير على الملالي المعتدلين وفق إطار فكري يكون علمياً أكثر وأجبته على أنه بسبب من شكوكه فينا، تجنّب والذين سبقوني مباشرة أي أتصال بالطبقات الدينية. كان يجب أن يعلم ذلك، وليس من المجدي له أن يتوقع الآن قيامنا بشيء ما، فيما لو فعلنا سابقاً، لكان قد دمر جهودنا في بناء علاقة عمل حسن معه. وابتسم الشاه وتقبّل وجهة نظري. وقال أنه ما زال عازماً على الاستمرار بمنح المزيد من الحريّة كان يرى في الاضطرابات الحالية رغم خطورتها، جزء من فترة انتقالية. وكان على الحكومة الجديدة أن تقوم بالأعداد لإنتخابات حرّة بشكل حقيقي في تموز عام ١٩٧٩ . وعليها أن تأسّس قوّتها السياسية. كانت المعارضة منظّمة بصورة جيدة أما الحكومة فغير منظّمة بشكل جيد. لقد تداعى حزب الراستاخيز وليس لدى الحكومة دليل آخر لتطرحه. وكانت الحملة ضد الفساد لا بدّ أن تطبق ويجب أن تلغى القوانين اللاشعبية. . ولحسن الحظ أثبتت القوات المسلّحة موالاتها ومناصرتها. كان واثقاً من الجنود الدائمين ولكنه كان قلقاً بعض الشيء من المجندين الذين يؤدون الخدمة الإلزامية.

سألني الشاه بعد ذلك بحزم لماذا انقلبت الجماهير ضده بعد كل ما فعله لها؟ وأجبته أن ثمة أسباباً عديدة لذلك من وجهة نظري. أن التدفق البشري الكبير على المدن قد خلق بروليتاريا انقطعت عن جذورها وكانت غير سعيدة وأن الكثير من الناس يقومون بأعمال البناء. فهم يقضون نهارهم ببناء بيوت للأغنياء ليعودوا ليلاً إلى أكواخ أو حتى إلى ثقوب في الأرض مكسوة بالبلاستيك. لقد أدت المادية الصرفة على جميع الأصعدة إلى إيجاد من عدم الأمان عندما لم تحقّق الحياة الجيدة. وليس من المدهش في ظروف كهذه أن يلجأ الشعب إلى قادته الدينيين، الملالي الذين عارضوا الشاه دائماً. كانت ثمة فجوة كبيرة في الثقة بين الحكومة والشعب. لقد أصبحت إيران ميداناً للوعود التي لم تحقّق. كنت أواجه ذات المشاكل مع الشركات البريطانية. وكنت عندما أريد ترغيبهم في مشروع ما، يميلون إلى القول بأنهم قد سمعوا جميع ذلك من قبل - وإذا قاموا بالمحاولة كان هنالك كلام أكثر من العمل. وقد شعر الإيرانيون بنفس الشيء أما بخصوص المعارضة فقد اعتقدت بأن خميني عنيد ولا يرضيه شيء سوى إزالة الشاه. وكنت أميل إلى الاعتقاد بنفس الشيء فيما يخصّ الجبهة الوطنية التي لم يمكنها تناسي معاملة الشاه لها بعد سقوط مصدق.

لم يعترض الشاه على هذا التحليل. وسألني في نهاية المقابلة فيما إذا كانت الحكومة البريطانية ما تزال تؤيده. كان يأمل أننا قد أدركنا أن أي نظام آخر في إيران سوف يكون أسوأ من نظامه من وجهة نظرنا. وقدمت له التأكيد المطلوب وأشرت إلى رسالة استلمتها تواً من رئيس الوزراء. كان بإمكان أن يعرف مني بأننا لا نتجنب الرهان، ولا نروم تأييداً جديداً من أي من عناصر المعارضة. وبدا عليه الاقتناع.

زرت خلال اليومين والثلاثة التالية رئيس الوزراء الجديد شريف أمامي ووزير الخارجية الجديد أمير خسرو أفشار وهو صديق قديم لي

منذ كان سفيراً لإيران في لندن. ووجدت أن كليهما كانا منشغلين بمسألة تأثير البرامج التي تذاع باللغة الفارسية من هيئة الإذاعة البريطانية في لندن على مزاج الجماهير. كانت تلك قصة قديمة مكرّرة وكنت أتوقعها، وقضيت وقتاً عصيباً مع نفس الموضوع بداية عام ١٩٧٨. عدت إلى لندن في تلك المناسبة وناقشت المشكلة مع المسؤولين في بثيس هاوس واقتنعنا جميعاً أنها لا يمكن حلّها. لم تنس المؤسّسة السياسية الإيرانية مطلقاً، من الشاه منازلاً أن البرنامج الفارسي في الإذاعة البريطانية قد أنشأ في الأيام الأولى من الحرب العالمية الثانية بهدف من جملة أهداف أخرى الإخلال بالاستقرار في نظام والد الشاه وكان من المستحيل إقناع أي شخص في إيران بعد أربعين عاماً تقريباً، بأن راديو لندن كما يدعي، ليس صوت الحكومة البريطانية - حاولت إقناع الشاه بكل ما أوتيت من قوّة أن المسألة ليست كذلك وأن مؤسّسة الإذاعة البريطانية كانت مستقلّة، وأنها ليست منحازة، وأن ما يعتبرونه دعاية معادية لا يعدو في الواقع مجرّد تعليق اعتيادي من محطة إذاعة حرّة. ولم تكن محاولتي مجدية.

كان شريف أمامي وأفشار، وحتى الشاه نفسه يرون في هذه المناسبة، أنه مهما كانت الحقيقة فالشعب مقتنع في أن وجهات نظر راديو لندن تمثّل أراء حكومة صاحبة الجلالة ولا يمكن تفسير بعض التعليقات الأخيرة إلّا أنها تناصر مصدقاً أو تناصر الجبهة الوطنية وهكذا فالشعب قد استنتج بأن البريطانيين، جميع البريطانيين الأقوياء، قد تركوا الشاه وأخذو يؤيدون المعارضة. وأعتقد الملالي أنفسهم أنهم حصلوا على تأييد البريطانيين الذي نعبّر عنه من خلال راديو لندن. وحتى أن راديو موسكو كان أكثر حذراً من نشرات هيئة الإذاعة البريطانية في برامجه باللغة الفارسية. كان هنالك دليل على أن برامج هيئة الإذاعة البريطانية كانت ستحدث المظاهرات والشغب فعلاً وتعهدت أن أعرض هذه الأراء

على المسؤولين في لندن. ولكن حذرت من أننا، وكما حدث في الماضي لا نستطيع كحكومة أن نفعل شيئاً سوى أن ننقل عروضهم إلى هيئة الإذاعة البريطانية. واقترحت كما فعلت ذلك عدة مرّات في السابق مع إفشار نفسه عندما كنا سوية في لندن، بأن من الأفضل لو أصدروا أمراً إلى سفيرهم في لندن، بروز راجي لفتح حورا مع هيئة الإذاعة البريطانية مبني على دليل حقيقي وفعلي للبرامج السيئة، بدلاً من المجيء إليّ بروايات وهمية وغير مباشرة عن تعليقات هيئة الإذاعة البريطانية. إن محاولة التأثير على الإعلام البريطاني، بما في ذلك هيئة الإذاعة البريطانية، بخصوص الشؤون الإيرانية كانت من واجبه وليست من واجبي.

كانت هذه المسألة المغيضة قد عادت لتزعجني طوال الأشهر القادمة وسوف أعود إليها ثانية. وما من شك في أن مهمتي لإقناع الذين يحدثوني، باستقلالية برامج هيئة الإذاعة البريطانية باللغة الأجنبية، ستكون أسهل لولا حقيقة أن هذه الإذاعة ممولة من ميزانية الخارجية والكومنوليث. إن من الصعب أن نتوقع من أتوقراطيين من العالم الثالث، يعيشون في تراث من سيطرة الدولة على الإعلام العام، أن يصدقوا بوجه خاص مقولة أن من يدفع أجرة العازف لا يمكنه التحكم في اللحن.

وقابلت الشاه بعد ذلك ثانية خلال أقلّ من أسبوع. كان يبدو في حالة صحيّة أفضل وكان أكثر انتباهاً. ومتعطشاً لشرح الموقف بالتفصيل ولسماع آرائي ـ حيث تحدثنا أغلب الوقت طوال ساعتين. كان قلقاً من أن الأمريكان ربما يحيكون مكيدة ضده مع المعارضة كان بالطبع يعبّر عن مخاوف مماثلة لزميلي الأمريكي حول ما يحيكه البريطانيون وكان يريد تأكيداً. وأعطيته ذلك التأكيد. فقد أكدت له أننا الأقرب اتّصالاً بالأمريكان في طهران وفي لندن وفي واشنطن وإن بأمكانه أن ينام قرير العين الآن.

هنالك وحدة تامة لوجهات النظر فيما بيننا. واسترسلت لأقول له أني أشك حتى فيما إذا كان الاتحاد السوفيتي قد ساند الحركة لإسقاط النظام. فهم يعلمون أن خراباً سيعم وأن تقديري هو أنهم يفضلون إيران منظّمة تحت حكم الشاه على حدودهم الجنوبية الطويلة. على إيران ليس بالوسع التكهن بها تحت أيما نظام ربما يخلفه. كان حدسي أنهم لذلك، ليسوا أعداء إلى الحدّ الذي يعدون فيه ثورة في إيران. رغم أنهم ربما لا يستطيعون منع أنفسهم من التطفل على المستويات الدنيا (مثلاً تزويد المجموعات اليسارية المتطرفة بالمال). إن المشاكل يسببها، حسب تقديري الاستياء الحقيقي والواسع الإنتشار جداً في الداخل. ومعالجة الموقف هي في أيدي الشاه وحكومته، وليست في البحث عن الأيادي الخفية الأجنبية. وبعد أن أكدت له كما هي عادتي في مناقشات كهذه، أني أتكلم شخصياً مع شخص أعرفه جيداً وليس بناء على توجيهات من لندن، قلت له يجب أن تكون هنالك انتخابات حرّة. أما البدائل الأخرى فهي أما سقوطه أو القمع العسكري الوحشي. وكذلك على الحكومة أن تحاول تحقيق نتائج سريعة ومرئية في الميادين الاقتصادية والاجتماعية. كما يجب أن يهدئوا القيادة الدينية المعتدلة. ويجب أن يتقدموا في مسألة إطلاق الحرّيات. لم أكن قد أسأت تقدير المخاطر فخميني عازم على إسقاط الملكية ويتبعه الشعب بقوة. ولا يوجد أمام الحكومة إلّا وقت ضيق لإعادة كسب ثقة الشعب من جديد ووافقني الشاه على ذلك، وقال لي بأنه ليس واثقاً من أن نظامه سيستمرّ. ولكن إعطاء المزيد من الحرّية يجب أن يأتي ولا بدّ أن يكون هنالك قاعدة جماهيرية ليرثها ابنه حيث أن موالاة القوات المسلّحة غير كافية. **لذلك فقط أعطى حكومة شريف أمامي أربعة خطوط رئيسية لتسير عليها.**

أولاً: يجب أن تستأصل الفساد.

ثانياً: يجب أن تفتح حواراً مع الآيات المعتدلين.

ثالثاً: يجب أن تنقل أوليات الميزانية من المشاريع الرئيسية ذات الكلفة العالية إلى المشاريع المتوسطة ذات الفوائد الظاهرة للفقراء، وخصوصاً الإسكان والمدارس والمستشفيات.

رابعاً: يجب أن تنظّم نفسها سياسياً لكي تخرج من الانتخابات بكتلة كبيرة من النواب المناصرين للحكومة في البرلمان الجديد.

بعد أيام قلائل من عودتي قمت بزيارة هويدا. كان في ذلك الحين خارج الخدمة يعيش في منزل والدته الصغير شمال طهران. جلسنا في غرفة مكتبه وكانت غرفة صغيرة ومريحة تغطي الكتب جدرانها. سألته عن تقديره للأزمة وكان قلق البال وخائفاً من المستقبل ولكنه ليس يائساً على كل حال. كانت المشكلة الرئيسية كما يراها، هي عدم قدرة الشاه على اتّخاذ القرار ليظهر للناس أنه يتبع سياسية واضحة. فإن كان يريد إطلاق الحرّيات والتنفيذ الكامل لدستور عام ١٩٠٦، فليكن ذلك وإن كانت الأحكام العرفية والعودة إلى القمع العنيف فليكن أيضاً. ولكن الشاه كان يتذبذب. لقد تمّ فرض قانون الأحكام العرفية ولكنه لم ينفذ بصورة كاملة. وبترت إجراءات شريف أمامي المهدئة مثل حرّية الصحافة. بسبب الأحكام العرفية. وقال هويدا أن الشاه بحاجة ماسة إلى نصيحة رزينة من أناس لا مصلحة لهم سوى مصلحة البلد. وسألته فيما لو كان بأمكانه أن يسدّ هذه الحاجة. أجاب هويدا أن مسألة ظهوره في القصر خطرة سياسياً، فشوهد على أنه ينصح الشاه بعد إعفاءه من وزارة البلاط فإن سمعة الشاه سوف تتلوّث لقد كان يتحدث مع الأمبراطورة من وقت إلى آخر عن طريق هاتف الشخص المؤهل نصيحته لأنها تمتلك الجراءة والعزيمة. ولما غادرت طلب مني بإلحاح أن أبقى على اتّصال دائم بالشاه وأنصحه بحكمة. وقدمت احترامي له ولوالدته وسرنا عبر ممر الحديقة، أمام العديد من حراس الأمن الذين يرتدون ملابس اعتيادية والذين خصّصوا لحمايته. وقال لي هويدا لما اجتزناهم

مغادريين «أنا أتساءل في بعض الأحيان هل أن هؤلاء هنا سجّانون أم حماة».

وفي منتصف أيلول المأساوي، الذي ضرب مدينة طبث في الشرقية، فرصة للنظام وللمعارضة أيضاً للتعبير عن الولاء للشعب وكان الدمار الذي تسبب فيه الزلزال الذي ذهب ضحيته ما يصل إلى (٢٠٠٠) قتيل مرعباً ـ حيث مسحت طبث نفسها من الخارطة تماماً كانت القوات المسلّحة مسؤولة عن عمليات الإنقاذ ولكن جهودها كانت تتمّمها بقوّة مجموعات من الملالي وطلبة المدارس الدينية وطلبة جامعة مشهد حيث عمل جميعهم بجد لتوفير الغذاء والمأوى للناجين. وزار الشاه المنطقة متأخراً بعض الشيء. وبدلاً من أن يذهب إلى قلب المدينة المدمّرة ويشارك في مأساة ومعاناة الشعب، لم يذهب أبعد من مطار طبث الذي كانت عمليات الإنقاذ العسكرية تدار منه. وقد بدا الشاه معتل المزاج صارماً ومتألقاً بزي مشير ومحاطاً بالضباط الذين يحملون الأوسمة وبرجال الأمن حتى أن تلفزيون إيران لم يتمكّن من تمويه التناقض بين الزيارة الأمبراطورية القصيرة وعزلتها عن المعاناة العامة من جهة وبين الجهود البطولية الحقيقية التي يقوم بها الملالي والطلبة من الجهة الأخرى. وأكّد لي أحد أفراد عائلتي، الذي كان حاضراً هنالك بصفته صحفياً مستقبلاً أن إدارة عمليات الإنقاذ والزيارة الأمبراطورية كانت كارثة في العلاقات العامة من وجهة نظر النظام. وقدرت الموقف بحلول أواخر أيلول بالأمور التالية. إن هنالك عودة ظاهرية في اللحظة الراهنة إلى شيء ما يقرب من الحالة الطبيعية. حيث أن الأسواق والمدارس قد فتحت وهنالك دليل ضعيف على وجود الجيش في شوارع طهران ومن المدهش، أن المعرض التجاري العالمي كان مقاماً وحضره الحشد المعتاد من العوائل الإيرانية المسالمة. وعقدت الاحتفالات

السنوية لتأسيس المصرف الوطني (بنك علي) في موعدها المقرّر، بكل الأبهة البهلوية لتستقبل الحشود من الوجهاء والاقتصاديين والماليين الأجانب. ولكن الموقف الخفي كان خطراً وكانت إيران دون شك في قبضته أسوأ أزمة مرّت بها منذ أيام مصدق. وكان على الحكومة أن تتخطّى الشهور القادمة لحين إجراء الانتخابات وكان خميني والمعارضون المتطرفون الأخرون سيفعلون أي شيء لمنع هذا. فمن الناحية الإيجابية، كان رئيس الوزراء لامع الذكاء وحازماً. وقد بدا الحديث فعلاً مع آيات قم. وتمكّن من إيقاف النقاش في الشوارع في ذلك الحين وذلك عن طريق إباحة النقاش الحرّ في البرلمان وبث مجرياته من التلفزيون وقد لفت هذا المشهد الاستثنائي انتباه الجماهير. أما الناحية المظلمة فهي شعور الشاه بالكآبة. لقد قال لي هويدا أن الشاه يعاني من الشعور بالخذلان التام. فهو مثل رجل بدد كل شيء لسنوات على امرأة جميلة ليكتشف أنها كانت غير مخلصة له طوال تلك الفترة.

كنت واثقاً من القوات المسلّحة ستؤدي واجبها، وأعتقدت أن هنالك فرصة جيدة أمام البهلويين للاستمرار بشكل أكثر قبولاً من الناس وأكثر ديمقراطية ولكن بسلطة تقلّ كثيراً عن سلطتهم السابقة ولكني لا أستطيع أن أرى، ولو قطعت رأسي كيف تستطيع الحكومة حلّ المشكلة الجوهرية - بالإمساك ثانية بزمام المبادرة من المعارضة التي انتشرت بسرعة دون اللجوء إلى القمع العقيم وربما غير المجدي.

أما بخصوص سياستنا فقد التزمت بالرأي على أننا يجب أن لا نبدي علامة من التردد لضمان رهاننا. وإن تأثيرنا غير المتجانس سلاحاً ذا حدين. فمن المؤلم أن تسود الانطباعات المضلّلة كالذي تقدمه هيئة الإذاعة البريطانية وما إلى ذلك. كما أن من المجدي أن يكون الشاه والحكومة يميلان إلى نصيحتنا ويطالبانها. فلو شاهدونا متذبذبين في

تأييدنا للشاه فسوف نفقد هذه الميزة ولا يجني من ذلك إلّا احتقار المقاومة لنا وستكون النتيجة مزيداً من المتاعب للنظام.

تشرين الأول ١٩٧٨

تبخر وهم عودة الأحوال الطبيعية في الأيام الأخيرة من أيلول. لنذهب دون رجعة وانتعشت روح عدم الاستقرار. فقد أغلق سوق طهران في يوم ٢٩ أيلول وأغلق ثانية في الأول من تشرين الأول بسبب المقاومة. وأصبحت المظاهرات العنيفة مسألة اعتيادية في المدن الكبيرة والصغيرة الشمالية منها والغربية، والتي لم تكن قد أخضعت للأحكام العرفية وبدأت الأضطرابات في كل من القطاعات العامة والخاصة. وقام العمال والفنيون في الأول من تشرين الاول بالإضراب الكامل أو الجزئي. في كل من شركة النفط الوطنية الإيرانية وإدارة البريد والبرق، والمصرف الوطني. والهيئة الوطنية للماء، وبعض شركات التأمين ومؤسّسات صناعية معيّنة. كانت مطالبهم اقتصادية بصورة رئيسية - زيادة الأجور، تقليص ساعات العمل، وتحسين الفوائد الإضافية - كان واضحاً أن القوّة العاملة قد استغلت سياسية حكومة شريف أمامي الاسترضائية ولكن كانت هنالك أمور سياسية خفية فقد أخبر شريف أمامي زميلي الأمريكي وأخبرني في الثالث من تشرين الأول أن الاضطرابات قد دعا إليها ائتلاف بين خميني وحزب تودة تبعها مطالب سياسية. أتذكر أني كنت أتساءل في حينه فيما إذا كان الإيرانيون يفكرون بوسيلة ما لإسقاط النظام حتى لو ظلّت القوات المسلّحة موالية للشاه. لقد كنت في السفارة البريطانية في الخرطوم عام ١٩٦٤ عندما كانت تحكم السودان حكومة عسكرية بقيادة الفريق عبود وفي بداية الخريف كان ثمة اضطراب في جامعة الخرطوم حيث قتل فيه

طالب أو طالبان. تبع ذلك شغب في الشوارع وكان يبدو أن الحكومة لا تجد أية صعوبة في احتواء الموقف. وفجأة شكلت الأحزاب السياسية المدنية المحظورة جبهة وطنية ودعت إلى إضراب وطني. وأغلقت الوزارات وخطوط النقل الجوي وسكك الحديد ومحطة الإذاعة الرسمية ومؤسّسات أخرى كثيرة ولقد سمحت لجنة الإضراب بتزويد الخدمات الأساسية ـ كالماء والكهرباء وخدمات الهاتف وتجهيز الأغذية ولم تسمح بشيء سوى ذلك. وكان الجيش مغلوباً على أمره. فقد كان بإمكانه إخلاء الشوارع ولكن ليس بإمكانه الذهاب من بيت إلى آخر لإجبار الجميع على العودة إلى العمل. وبعد أيام قلائل من هذا الشلل الذي شمل عموم البلد اعترفت الحكومة العسكرية بهزيمتها وأعلنت استقالتها. وقد تألمت في ذهني في العديد من مناقشاتي مع شريف أمامي ومع الشاه خلال تشرين الأول فيما لو كان نفس الشيء وشيك الوقوع في إيران. فلو نال المضربون مطالبهم الاقتصادية وتولت حركة الإضراب إلى حركة سياسية ستكون هذه الطريقة أكثر تعقيداً وتأثيراً من الشغب بكثير في مضايقة الحكومة. وسيكون من الصعب جداً على الجيش مواجهتها.

وفي تلك الأثناء انتقل الإمام الخميني إلى باريس في ظروف غريبة. وأرسل شريف أمامي بطلب زميلي الأمريكي وطلبني مرتين في بداية تشرين الاول. أخبرنا أولاً أن الإمام الخميني كان في حالة تنقل وأن الحكومة العراقية ستكون سعيدة للتخلص منه. وكان يبدو أن الإمام الخميني قد كان في سيارة فعلاً، وربما كان متجهاً إلى الكويت. كان خوف شريف أمامي من أنه قد يتسلّل بزورق عبر رأس الخليج العربي ليظهر فجأة في إيران. وأعتقد شريف أمامي أن ذلك لو حدث وسمح للإمام الخميني أن يبقى حرًّا فإن النظام سيمحى وفيما لو ألقي القبض عليه وهو يعبر الحدود ستنشب حرب أهلية ولو سارت الأمور من سيء إلى أسوأ على أية حال. فإنه سيجازف بالقاء القبض على الإمام الخميني

وتحمل النتائج. هل كان بإمكاننا نحن البريطانيين والأمريكان أن نقنع الحكومة الكويتية بعدم السماح لخميني بعبور الحدود الكويتية ؟ وقلت أنني متردد من تقديم توصية لحكومتي بإتخاذ إجراء كهذا. رغم أنني بالطبع سأنقل لها هذه المحادثة أن خميني إيراني - وعرفت من شريف أمامي أن جوازه قد تم تجديده قبل وقت قريب في القنصلية الإيرانية في بغداد - ولإيران سفير جيد في الكويت كذلك فهنالك سفير كويتي في طهران وهو رجل مسن وحريص وكان على شريف أمامي الاتّصال بالكويتيين مباشرة وليس من خلالنا.

وفي لقائنا الثاني حول الموضوع نفسه في الرابع من تشرين الأول أخبرنا شريف أمامي أن العراقيين قد فشلوا في محاولة إقناع خميني بالابتعاد عن السياسة. أما الآن فهم لا ينوون منعه من مغادرة العراق. وما زال الإمام يطوف في جنوب العراق، وقد رفض دخوله إلى الكويت وأعتقد شريف أمامي أنه ربما سيذهب عن طريق الجوّ إلى سوريا أو ربما إلى الجزائر. وفي تلك الأثناء كان خطر عبوره إلى الحدود الإيرانية عن طريق البرّ ما زال قائماً. أو ربما ما هو أسوأ من ذلك، وصوله بطريق الجوّ إلى مطار طهران بصورة غير متوقعة. وسيلقي القبض عليه أياً كانت الحالة.

وشاعت الأخبار يوم السابع من تشرين الأول أن خميني قد سافر بطريق الجوّ إلى باريس حيث التقى بأتباعه المخلصين الثلاثة. أبو الحسن بني صدر وصادق قطب زاده وإبراهيم يزدي (عاد أولهم الآن إلى المنفى في باريس، وأعدم الثاني بدعوى حبكه مؤامرة ضد خميني فيما طرد الثالث) ذهبت في زيارة لوزير البلاط الجديد أردلان بعد مغادرة خميني بفترة وجيزة. كان زميلي الفرنسي مع الوزير آنئذ وكان لي حديث طو يل مع نائب الوزير همايون بهادري وهو صديق حميم لي. كما نميل إلى الاعتقاد، كما فعل الشاه وشريف أمامي. أن خميني أرتكب خطأً بمغادرة العالم الإسلامي إلى عاصمة مسيحية ربما سيخمد تأثيره الديني وبخموده

ستخمد قوّته السياسية. (كنا مخطئين خطأً جسيماً بالطبع فكما علم العالم كله لقد زودت باريس خميني بقاعدة جماهيرية فريدة ليدير منها حملته للقضاء على الشاه. ولكن في الوقت ذاته شارك الكثير من المفكّرين والمطلعين الإيرانيين في فكرة كون خميني قد أنزلق). أتذكر أن بهادري سألني عما أعتقد بشأن تصرف الحكومة الفرنسية كانت ستفعل، وماذا كنا سنفعل لو قرر خميني الانتقال إلى لندن، أجبته أن لفرنسا وبريطانيا تراثاً طويلاً في استقبال المنفيين السياسيين. إن لدينا اتفاقية إلغاء التأشيرة مع إيران وربما أن السلطات الإيرانية قد تفضلت كثيراً بتجديد جواز خميني، فلا نستطيع أن نفعل شيء لإيقافه عن دخول المملكة المتحدة. فإذا فعل ذلك فسيصبح حرًّا ليذهب حيثما يشاء ويقول ما يشاء شريطة أن لا ينتهك القانون البريطاني وليس القانون الإيراني) وتوقعت أن الموقف الفرنسي سيكون مماثلاً تماماً لموقفنا هذا أنني أعلم بأن كره آية الله المعروف لبريطانيا سيوفر علينا ما يسببه وجوده من مضايقة رغم أن على الحكومة الإيرانية أن تعلم أننا لا نخرق قوانيننا من أجلها عن طريق رفض حوله أو إسكاته أو ترحيله شريطة أن لا يسيء التصرف. وفي هذه الأثناء كانت أعمال الشغب والتظاهرات تطوف ثانية في شوارع طهران. وبدأ فصل دراسي جديد في الجامعة في السابع من تشرين الأول وكان ذلك خطأً حسب اعتقادي. وقد عبرت عن رأيي الشخصي الصرف أما إلى الشاه أو إلى شريف أمامي- وأظن إلى شريف أمامي معتقداً أنه لو اجتمع الطلبة في مجمّعاتهم فمن الواضح أنهم سيرفضون حضور الدروس. إن اجتماعهم سوف يمكنهم من التحشد والانتظام لتحدّي السلطات في الشوارع. بينما لا يمكنهم القيام بذلك إذا بقي معظم الطلبة متفرقين في مدنهم الأصلية في طول إيران وعرضها. وقد حدث ما توقعت. فقد ترك طلبة الجامعة في طهران، خلال أيام قلائل من انتظامهم في الدوام مظاهراتهم الاعتيادية في الحرم الجامعي من أجل مسيرات ومواكب في الشوارع الرئيسية

للعاصمة. وقد حذت حذوهم مجاميع كبيرة من تلاميذ المدارس، ذكوراً وأناثاً، من الذين كانوا يرفضون الانتظام في الدوام أيضاً. وكان هنالك مجموعات أكثر شراً متواجدة في كل الاتجاهات، تصطف بفضاضة، تتألف من رجال في ربيع العمر أو أصغر نوعاً ما مسلّحين بقضبان حديدية وهراوات خشبية. وقد ظنّ العديد من الناس أن هؤلاء السفاحين هم عملاء السافاك أو من رجال الحرس الامبراطوري يرتدون ملابس مدنية من يدري؟ كل ما أتذكره هو أني وزميلي الأمريكي بل سوليفان كانت لنا تجربة مثيرة نوعاً ما مع إحدى هذه المجاميع في طريق عودتنا من أحد الاجتماعات مع شريف أمامي. كان سوليفان جالساً معي في سيارتي الرولس - رويس وكانت سيارته تتبعنا ولما وصلنا إلى نقطة تبعد بضع مئات من الياردات عن سفارتي، لاحظت أن الزحام المروري الاعتيادي قد تضاعف بسبب اقتراب تظاهرة تضمّ ما يقرب من مائة رجل. اقترحت على سوليفان، الذي وافقني في أن نبقى على حالنا في السيارة وننتظر ماذا سيكون ردّ الفعل عندما سيصبح المتظاهرون قبالتنا. وعندما أصبحوا على بعد حوالي خمسين ياردة أخذوا يقبلون ويحطمون جميع السيارات في طريقهم. ألتقت عينا سوليفان بعيني وقلنا في وقت واحد دعنا نذهب لقد غلب التعقّل الشجاعة. وقد تمكن سائقي بمهارة فائقة أن يستدير في الشارع المزدحم وأنزلقنا في زقاق ضيق يتبعنا بعض حملة الهراوات. ودخل سائقنا وبحضور أعداد كبيرة للمرة الثانية، في موقف سيارات عائد إلى مصرف قريب ودخلنا المصرف أنا وسوليفان يتبعنا مرافقونا بملابسهم الرسمية. وأقفلت الشركة وموظّفوا المصرف الأبواب مما أدّى إلى استياء العديد من الناس الذين كانوا يتابعون أعمالهم الاعتيادية في المصرف بعض الشيء، وتمّ إيصالنا إلى مكتب المدير. استقبلنا الرجل بلطف فائق وهدوء وسقانا الشاي، وناقشنا الوضع الاقتصادي والمالي في إيران لمدة ساعة أو أكثر. وعندما فرغت الشوارع سرنا أنا وسوليفان إلى

سفارتينا، وكان صباحاً طويلاً أطول مما توقعنا. وبدا الموقف باعثاً على اليأس، بحلول منتصف تشرين الأول. ولكنه لم يكن بعد ميؤساً منه تماماً. ما زال شريف أمامي يجري حواراً مع آيات قم، رغم أنه أخبرني أنهم كحكومة لا يستطيعون منافسة المبالغ التي يحرّرها خميني إلى طلبة المدارس الدينية وبروليتاريا السوق ليديم الضغط من خلال تخويف المتذبذبين. وكان رئيس الوزراء يقوم بأعداد مسرحية حملة محاربة الفساد أيضاً. وقد ألقي القبض على وزير الصحة السابق شيخ الإسلام زاده واثنين من وكلاءه بسبب اشتراكهم في جريمة تخصّ مشروع تشييد مستشفى مزعم روحاني ومهدوي. وفصل رئيس قسم الطاقة الذرية، اعتماد من عمله وأودع السجن ثمانية عشر رجل من رجال الأعمال الإدارية. وتم تشكيل خمسة عشر فريق تحقيق وأصدر الشاه أمراً بأن لا تتدخل العائلة المالكة بأي نشاط تجاري وأطلق التحقيق في جيمع المنح البهلوية.

ووقع تحت طائلة الاتهام محافظ بنك ملي (المصرف الوطني) آنذاك، والجنرال ناصري مدير السافاك السابق (الذي استبدل بالجنرال ناصر مقدم في حزيران) وكان سفيراً لإيران في باكستان حينئذ واستدعي ناصري للتحقيق معه في محكمة عسكرية. كانت جميع هذه الإجراءات مفيدة، ولكنها جاءت في زمن زاد فيه تهديد بنية الدولة، خصوصاً بعد إصرار الموظّفين الصغار في فرق التحقيق على كشف تفاصيل مثيرة للصحافة كلها الداخلية منها والخارجية عندما كانوا يتابعون تحقيقاتهم.

واصلت الحكومة سياستها في إطلاق الحريات. فقد أطلق سراح المزيد من السجناء السياسيين وتم إصدار القوانين لإرساء الحرية الأكاديمية وحقوق النشر وحرية التجمع. كانت هذه الإجراءات هي الإجراءات الصحية أيضاً، ولكنها لم تجلب إلّا بعض الاهتمام مقارنة

برسالة خميني البسيطة بأن الشاه يجب أن يذهب. واتضح أكثر من ذي قبل أن المفتاح ليس في قبضة سياسي الجبهة الوطنية، الذين كانوا يحسنّون صورتهم بعض الشيء ولا الطلبة ولا الجماعات المتطرفين اليساريين أو اليمنيين، ولا حتى الحكومة وسوف يعتمد الموقف على اتجاه القادة الدينيين، هل ينتهي الأمر بأن يستطيع فكر خميني الأصولي والمعادي للنظام البهلوي بالقضاء على كل شيء أم ثمة فرصة لآيات قم ومشهد الأكثر اعتدالاً، في الفوز بمطالبهم الأقل راديكالية وذلك من خلال التطبيق الدقيق لدستور عام ١٩٠٦، بما فيها الحد من تدخل الشاه في السلطة وباختصار، لقد انتقل تركيز النشاط السياسي خارج مؤسسات الشاه المعترف بها، وهي الحكومة والبرلمان.

قمت عدة مرات بتحديد وضع الحكومة خلال النصف الأول من الشهر. لقد استنتجت بأن هنالك تحوّلاً رئيساً غير قابل للعلاج في السلطة. **كان نظام الحكم في إيران تتقاسمه مراكز قوى ثلاثة فالشاه** يقبع بعيداً عن الأنظار في قصر نياوران يدبر المكائد مع الشخصيات السياسية المختلفة دون تنسيق مسبق مع رئيس الوزراء في حين يحاول الأخير إدارة البلد باتخاذ إجراءات للسيطرة على الأزمة عن طريق إجراء مباحثات مع القادة الدينيين، ومتابعة حملة الفساد، وإبطال القوانين اللاشعبية إلى غير ذلك، وثالثاً: كان الجيش يمسك الطوق باضطراب، حيث أصبح القادة بريئين من سياسات شريف امامي التوفيقية باضطراد. وبقيت المكانة العسكرية سليمة تقريباً، ولكننا بدأنا نسأل أنفسنا باستمرار إلى متى سيمكنهم الصمود بوجه الاضطرابات المتصلة والأهم من ذلك، بوجه سلاح الاضطراب الذي يصيب البلد بالشلل؟ ورغم هدوء نسبي بمنتصف تشرين الأول حيث بدا الموقف أفضل نسبياً، مع قلق سياسة المعارضة المعتدلين حول القوى التي أطلق لها العنان والصحافة التي

تحرّرت قبل وقت قصير والداعية إلى سلوك مسؤول في زمن الأزمة الوطنية، لم يكن في أذهاننا سؤال سوى أن الوضع برمته كان في مهب الريح ولا يبعث على الرضا إلى أبعد الحدود فقد اتسعت الاضطرابات لفترة لتشمل المستشفيات الحكومية، والخطوط الجوية الوطنية (الخطوط الجوية الإيرانية) والمدرسين وصغار الموظّفين في الوزارات والدوائر الحكومية وكانت عجلة التمرّد المدني في تقدم مستمرّ، رغم أن شريف أمامي كان كما يبدو من وقت إلى آخر مسيطراً على موقف الإضراب إلاّ أنه اتضح أن هنالك نشاطاً جديداً يتخذ لوناً أكثر وضوحاً مما قبله، بالمطاليب السياسية. كان القادة العسكريون في هذه الأثناء يضغطون على الشاه للسماح لهم أن يكونوا أكثر صرامة للقائمين بالاضطرابات التي تتصاعد التي يعزونها إلى سياسات شريف أمامي بإعطاء مزيد من الحريات . كانت حرية الصحافة سبباً مهماً في الخلاف وكانت هنالك مناسبات تم فيها احتلال مكاتب الصحف واعتقال الصحفيين بناء على أوامر القيادة. وعقبت ذلك الاضطرابات ولم تتم تسويتها إلاّ بعد ما عاد رئيس الوزراء تأسيس سلطته على الجيش. وفي السابع عشر من تشرين الأول أعلنت الحكومة رسمياً نهاية الرقابة وضمنت حرية الصحافة. وعم إمتعاض الجيش بسبب هذا الإجراء. وفي منتصف تشرين الاول زرت أنا وسوليفان الجنرال أويسي قائد الأحكام العرفية، بموافقة رئيس الوزراء ومساندته أخبرناه أن الشائعات تدور في سلك الضباط على أن بريطانيا وأمريكا تفضلان حكومة عسكرية. كنا نريد أن نعلمه أن هذه الشائعات لا أساس لها من الصحة. لقد رغبت حكومتنا في مظاهر الحكم الديمقراطي بوصفه الطريقة الوحيدة لحلّ الأزمة. وبعكس ذلك فسنجد أنفسنا في مواجهة مشاكل عويصة أمام الرأي العام الداخلي في بلدنا. أن تاثير الإنقلاب العسكري على أصدقاء إيران الغربيين وحلفائها سيسبب كارثة أما الشائعات الأخرى حول إنحسار التأييد

البريطاني والأمريكي للشاه فإنها غير حقيقية. وتلقى الجنرال أويسي رأينا دون حماسة.

كان التأثير العام لحالة الشاه المعنوية المتدهورة عاملاً سلبياً آخر فقد وجه خطابين جيدين من تلفزيون إيران خلال تشرين الأول، أحداهما إطلاق الحرّيات والثاني حول الملكية الدستورية. وكان كل ما قاله مقنعاً ومعداً بشكل حسن، ولكن أسلوبه الفاتر وغير الملهم ترك انطباعاً سيئاً. لقد تبخر ما كان لدى الناس من احترام له ورهبة منه واستنتجت في منتصف الشهر أن أفضل ما يمكن توقعه أن يستعيد من المكانة ما يمكنه من العمل كملك دستوري صرف لا أكثر، فيما لو سارت جميع الأمور على ما يرام.

كان هنالك، في النصف الثاني من تشرين الأول تدهور شامل ومعلن، وكان واضحاً أن حكومة شريف أمامي قد حكم عليها بالإخفاق. فالحكومة لا تستطيع عمل شيء ما لحل مشاكل الشغب في المدارس والجامعات، وكانت الشوارع تغص يومياً بمظاهرات الطلبة التي تؤدي إلى صدامات مع الجنود. ونظراً للإضرابات التي تتم بعناد فليس في مقدور الحكومة انعاش الاقتصاد، ويصبح الشق بين شريف أمامي وقادة الجيش أكثر خطورة في كل يوم. وكان شريف أمامي ما يزال يؤمن بأن أعصاباً قوية وقدرة على الاحتمال كفيلة بجلب الفوز في المباراة، وأن المسألة هي مسألة من سيهرب من التوتر أولاً. ولكن المعارضة المتطرفة كانت تشق طريقها بسرعة مذهلة ولم تكن ثمة علامة على أنها ستخفف من الزخم. كانت موجات الأزمة تتابع بسرعة كبيرة حتى أصبح من المستحيل معرفة ما يخبئه المستقبل بصورة صحيحة. فلقد انتشرت الاضرابات في حقول النفط وأدت إلى تدمير الإنتاج بشكل خطر وغدت مطالب المتظاهرين سياسية صريحة وهي عودة خميني ورفع الأحكام العرفية. وذهب هو شنكك أنصاري، رئيس شركة النفط الوطنية

الإيرانية إلى الجنوب للتفاوض لكنه هوجم من قبل المتظاهرين، وغادر إلى باريس بعد أيام قلائل ولم يعد إلى إيران مطلقاً. وكان هنالك انفجار جديد وعنيف للاضطرابات في الأقاليم وكانت تلك أولى علائم النمو التلقائي السريع والتمهيدي المضاد للأجانب، خصوصاً في آبار النفط. قرّر الشاه مقابل هذا الوضع المعتم أنه يجب أن يتصرف. ظلّ معارضاً بعناد لإسناد الحكم إلى العسكريين، الحلّ العسكري ليس حلاً لكنه أدرك أن ليس من المجدي محاولة البقاء لحين إجراء الانتخابات في حزيران ١٩٧٩ لقد كان ذلك التاريخ، الذي بدأ قريباً جداً منذ حوالي شهر، وقد أصبح يبدو بعيداً جداً الآن. كانت الأزمة تحيط به وستأتي النتيجة قريباً. قال لي في الحادي والثلاثين من تشرين الأول بأن شيئاً ما يجب أن يتمّ عمله بسرعة نحن نذوب كالثلج في الماء يومياً. وقال يجب إخضاع الموقف للسيطرة قبل شهر محرم المقدس (الموافق لكانون الأول). ليس بإمكان شريف أمامي استعادة المبادرة. أنه رجل شجاع وقد قام بكل ما في وسعه القيام به. لكن حقول النفط كانت قد شلت، ولا يمكن السيطرة على التظاهرات وأعمال الشغب، والاضطرابات تقتل البلد وقد فلت زمام السيطرة على الطلبة. إذ لم تحلّ الأزمة قبل شهر محرم فسوف يواجه خيار الاستلام - أي مغادرة العرش أو يلجأ إلى الصرامة التامة التي ستكون دامية ولا تضع حلًّا لأي شيء في النهاية. لقد قرّر رفض الحكومة العسكرية، وكان يبحث عن حكومة بإمكانها تهدئة البلد ودفع الحركة الديمقراطية إلى أمام وكانت الإجابة الوحيدة هي أن يأتي شخص محايد وذي مكانة رفيعة لم يلوّثه الاختلاط بالنظام طيلة السنوات الخمس عشرة الماضية. سيقود هذا الشخص حكومة بالوكالة تضمّ الجبهة الوطنية وحزب كل الإيرانيين. ولا تضمّ أحد من أعضاء الحكومة الحالية، سيكون نطاق سلطتها مقتصراً على التحضير لإنتخابات مباشرة وعلى متابعة حملة محاربة الفساد. وكان مرشحه

لمنصب رئيس الوزراء هو عبدالله انتظام، وزير الخارجية السابق وهو رجل حسن السمعة. حقاً أنه كان على الثمانين سنة من عمره ولكنه تتوفر فيه الشروط المطلوبة. فإذا ما خذله هذا فسيدعو سروري رئيس المحكمة العليا. أنه أفضل من انتظام لكنه رجل لا تشوب سمعته شائبة. وإذا رفض هذا فسيدعو علي أمامي وهو زير مالية سابق في الخمسينات ورئيس وزراء في مطلع الستينات.

كان الشاه يدرس هذا القرار لعدة أيام ولما أصبح منشغلاً بالأزمة فعلياً تحسنّت معنوياته. كان على استعداد لتفحّص كل سمة من سمات جهنم التي كانت تتثآب أمامه برباطة جأش وموضوعية تدعوان للإعجاب. وكان عازماً على أن لا يلجأ إلى إرجاء المشكلة عن طريق عمل عسكري دام. حتى أن حسن الفكاهة لم يفارقه فعندما استفهمت عن انتظام وسروري بسبب كبر سنهما وعجزهما أجابني أن انتظام أصم لكنه يعتقد أنه سيقبل المنصب فيما لو سمع بأنه قد منح له. وأن سروري، ربما كان ما يزال قوياً بما يكفي لسير الياردات القليلة إلى مبنى البرلمان للإدلاء باليمين.

وافقت أنا وسوليفان الشاه حول تقويمه. وأيدنا شريف أمامي طيلة محادثاتنا مع الشاه ورفضنا البديل العسكري - لقد أخبرت الشاه في مناسبات عدة حول تجربتي في السودان وحذرته من المجازفة فيما لو عيّن رئيس وزراء عسكري فسيحدث إضراب وطني لا ينتهي إلاّ بمغادرته إيران ولم يعارض هذا الرأي مطلقاً. وطلبنا أنا وسوليفان من الشاه بالحاح أن يجعل في العملية الانتخابية جهد الإمكان لتركيز ذهن الشعب على شيء بنّاء أفضل من الشغب والتظاهر والاضراب. كذلك حذرناه من مغبة السماح بوقوع حملة مطاردة ضد الأعضاء السابقين في مجالس الوزراء وضد الشخصيات البارزة الأخرى في السنوات الاخيرة. كان الشاه غامضاً بخصوص هذه المسألة وكنت أخشى أنه كان يعتزم اتباع سياسية

من شأنها إلقاء الشعب إلى الذئاب من أجل أن يتخلص من الملاحقة. قال يجب أن يودع ناصري في السجن وربما هويدا أيضاً وهما اثنان من أكثر مناصريه تفانياً وطول خدمة وقد فصلا من منصبيهما بحكم قضائي بالعقوبة وفي هذه الأثناء كان خميني يغدق في ذم النظام ويصدر تعليمات إلى شعب إيران لمعارضة الحكومة واللجوء إلى تمرّد مدني لسحب جميع أشكال التعاون مع الملكية - وكان يفعل كل ذلك من مسكنه قرب باريس. وكانت صور شجبه تنشر في إيران عبر وسائل عدة - من خلال توزيع أشرطة التسجيل الصوتي. ومن خلال النشر في الصحافة التي نالت حرّيتها قبل وقت قصير، ومن خلال خدمات هيئة الإذاعة البريطانية باللغة الفارسية. لقد كان له منبر خطابة منقطع النظير، لإقامته في عاصمة غربية متحضرة تتوفر فيها جميع مصادر الاتصال وهي في متناول يده ويقوم ممثلون من مختلف الأوساط في العالم بطرق السبيل إلى بابه، حيث كان ذلك أكثر تأثيراً مما لو بقي في العراق أو انتقل إلى أي بلد إسلامي كسوريا أو الجزائر. إن الذين اعتقدوا بأنه قد أخطأ بمن فيهم أنا، بتركه العالم الإسلامي إلى عاصمة مسيحية، قد اثبتوا بأنهم كانوا على خطأ تماماً. وخلال تشرين الأول، لما ارتفع الطوفان الذي سببته رسالته البسيطة وبثبات أغرق أصوات الاعتدال. وحاول شريف أمامي التباحث معه ولكن دون جدوي وأرسل مبعوثين إلى باريس في النصف الأول من الشهر لطرح ثلاث نقاط على خميني:

أولاً: لقد أودى الهياج، الذي سببه هو بحياة المئات من الأرواح المسلمة. هل هذا سلوك قويم لآية الله؟

ثانياً: أنه لا يستطيع إسقاط الشاه وسيبقى الأخير على العرش حتى بعد وفاة خميني.

ثالثاً: إذا عاد إلى إيران فسوف يتمّ إلقاء القبض عليه.

لم يجب على ذلك وكان نجم خميني في تصاعد كبير في نهاية

تشرين الاول، وكان قادة الجبهة الوطنية برئاسة كريم سنجاني وكذلك مبعوثون من آية الله كاظم شريعة مداري ومهدي بازركان يحاولون التفاوض في باريس حول برنامج موحّد للمعارضة بموافقة خميني. لم يكن ذلك الوضع مثالياً لمحاولة الشاه إنشاء حكومة ائتلافية تضمّ الجبهة الوطنية، بل كان يعلق أمله على شريف أمامي حتى نهاية الشهر، وكان يعارض دعوة الجبهة للاشتراك خوفاً من مطالبها المتطرفة التي قد تطرحها شروطاً للمشاركة.

وقبل أن أستمرّ بوصف الأحداث الخطيرة التي وقعت في بداية تشرين الثاني والتي أطفأت كل أمل ضعيف إن كان موجوداً في السابق باستمرار الشاه، ربما كان من المجدي أن أذكر باختصار النصيحة التي أسديتها له طيلة تشرين الأول، بصحبة زميلي الأمريكي أحياناً وعلى إنفراد أحياناً أخرى. وأؤكد ثانية، كما فعلت ذلك في كل مناسبة مع الشاه، أنني لا أقدم له النصح بناء على أوامر من لندن، رغم أن دائرة الخارجية والكومنويلث كانت ستخبرني بسرعة لو أعتقدت أن نصيحتي خاطئة. كنت أؤكد للشاه، في بداية كل واحدة من دراساتنا المطوّلة والمكرّرة والدورية اللازمة، على أني أقدم أرائي إلّا إذا سئلت، وعلى أن تلك الأراء هي أرائي الشخصية وليس نتاج خطّة لمؤامرة قد حيكت في لندن. وتقبّل هذه التوكيدات في حينه، وكان في الحقيقة مصيباً فيما فعل.

كان ثقل تحليلي في مناقشاتي معه، منصباً على أن الإنفجار الشديد جداً في الشعور العام هو نتيجة طبيعية لخمس عشرة سنة من القمع العنيف الذي فرضه على إيران عندما كان يضغط ببرنامجه في التحديث. وبما أن التحديث قد ركب فعلاً المسامير فوق القوى التقليدية في إيران مما أسفر عن ظهور تباين كبير في الثورة التي يملكها الأغنياء والظروف المروعة التي يعاني منها الفقراء من المدنيين، فليس من المدهش أن تتحوّل موجة

الشعور هذه إلى موجة من المعارضة. أما حقيقة كونه هو الهدف المقصود فالمسألة طبيعية أيضاً. لقد قدّم نفسه لعدة سنوات على أنه القائد الملهم الوحيد. وحوّل وزراءه وبرلمانه إلى أصفار. لقد استحوذ على كل الفضل في الأوقات الحسنة، ولا مفرّ من أن يتلقّى كل اللوم في الأوقات السيئة، وهو يعاني الآن نتيجة الإلغاء التام لكل الحواجز بينه وبين الشعب. وأخذت ثورة الشاه والشعب ترتدّ فوق رأسه.

لقد توقعنا جميعاً عندما قام بإطلاق الحرّيات أنه ستكون هنالك إعادة توزيع للسلطة بينه وبين الحكومة والبرلمان. ولا بدّ أن تكون فترة الانتقال خطرة وكما حدث فعلاً، فقد كانت معارضة رجال الدين التي لا مجال لفكاك منها، بالإضافة إلى مكانة خميني وتأثيره الساحر، قد وجهت موجة المعارضة لتصبح سيلاً جارفاً متطرفاً لن يهدأ إلاّ بسقوط النظام. لم يتوقع أحد أن الأمور كانت ستسير بهذه السرعة الكبيرة ولم يعد من المجدي التفكير بمسألة الإنتخابات في صيف ١٩٧٩ ـ حيث لا يمكن أن تجري في مثل هذا الوقت القصير جداً.

وحتى الأيام الأخيرة من تشرين الأول كنت قد نصحت الشاه بتأييد شريف أمامي وإبقائه. لقد بدا لي أنه أظهر قوّة أعصاب ومطاولة وشجاعة وأنه كان قد واصل بثبات السبيل الوحيد الذي ربما يفوق قدرة المعارضة ويهدئ البلد، إلاّ وهو التقدّم على المتطرفين عن طريق تعجيل عملية الديمقراطية وإطلاق الحرّيات كان أي تغيير في الحكومة حسب رأيي يمكن أن يفسّر على أنه نقطة ضعف ويستحث المعارضة لمضاعفة جهودها ورغم الإضرابات، وهيجان الطلبة وعنفهم، كانت الحكومة ما تزال تمتلك أدوات السلطة بينما تمتلك المعارضة الهياج العاطفي فقط، وإلى أن اتضح في نهاية الشهر أن شريف أمامي قد أطلق سهمه، كنت قد نصحت الشاه بالتخلّي عن محاولة إشراك الجبهة الوطنية في الحكومة.

كان شعوري أن إعضاء الجبهة الوطنية، بسبب من معاملتهم على أيدي الشاه في الفترة التي أعقبت مصدق ربما باتوا يعارضونه بعناد مثلهم مثل خميني ولا يتعاونون إلاّ على أساس شروط قد تؤدي بنتيجتها إلى إنهاء النظام الملكي.

تعاظمت ضراوة العاصفة بعد الهدوء القصير في منتصف تشرين الأول غيّرت رأيي حول تحبيذ دعوة الجبهة الوطنية لتولّي الحكومة. كان الشاه في ذلك الحين قد توصّل إلى قراره على أن حكومة ائتلافية تضمّ الجبهة الوطنية هي خير بديل، حيث اتضح أن السلطة المدنية بزعامة شريف أمامي قد تفسّخت وأن عملية إعادة تشكيل حكومة جذرية للحكومة قد أصبحت ضرورية. لكني واصلت نصحه بعدم تشكيل حكومة من العسكريين لسببين، كما أرتأيت. الأول أن العسكريين ليس لديهم الخبرة الشاملة لحكم دولة معقّدة مثل إيران ولا أعتقد أنهم سيحصلون على الحدّ الأدنى من التعاون الضروري من البروقراطية المدنية للاضطلاع بمهمامهم. وثانياً وهذا هو الأهمّ أنني مقتنع من أن مجيء حكومة عسكرية إلى السلطة من شأنه أن يستحث مباشرة إضراباً شاملاً يشمل البلد كله وكذلك سيؤدي بالتالي إلى شلل تام في كل مرافق البلد ويجري إلى سقوط النظام بسرعة. لقد قدمت لهذين الرأيين، في مناسبات مختلفة إلى الشاه خلال تشرين الأول. مشيراً إلى أحداث مماثلة وقعت في السودان وإذا كان لي أن أحكم عن موقف بينهما، فهو لم يرفضهما، رغم أن آرائي قد جلبت لي بغض القادة العسكريين وعداءهم.

تشرين الثاني ١٩٧٨

كانت لنا أنا وسوليفان مقابلة أخرى مع الشاه في الأول من تشرين الثاني. وكانت أعمال الشغب في هذه الأثناء ظاهرة يومية في الأقاليم، وعلى الرغم من مظاهرات مقابلة مؤيدة للشاه كانت موجودة أيضاً إلاّ أن الإضطرابات كانت مستمرّة وكانت شوارع طهران تختنق بمسيرات الطلبة، كان من الصعب الانتقال من جنوب طهران، حيث تقع سفارتي إلى قصر نافارين الذي يقع في الضواحي الشمالية وصلت متأخراً عشرين دقيقة عن موعد مقابلتي مع الشاه لأنني مررت بسلسلة من الانعطافات عن الطريق الرئيسي إلى الشوارع الجانبية لتجنّب المظاهرات. وكان سوليفان هنالك حينما وصلت أخبرنا الشاه أنه قد أقنع انتظام ليترأس حكومة جديدة. وقد تسلّم رسالة من كريم سنجابي من باريس أيضاً، يخبره فيها أنه قد أقنع خميني بإيقاف هجماته على النظام شريطة أن يتمّ استفتاء الشعب في الحال حول النظام الملكي. وقد علم الشاه أن الجبهة الوطنية كانت قد تبنّت مواقف أكثر اعتدالاً في ضوء خطورة الوضع. كان لا ينوي الإجابة على رسالة سنجابي مباشرة بل ينوي دعوة قادة الجبهة الوطنية للإجتماع به لمناقشة الإنضمام إلى حكومة ائتلافية برئاسة انتظام.. كان الشاه معتلّ المزاج، وكان يعتقد أن المسألة الآن قد اصبحت مسألة أيام بدلاً من أسابيع وكان الضغط يتزايد من قادة الجيش، وكانوا يطلبون منه بإلحاح أن يسمح لهم بالإضطلاع بالأمر ((وإنقاذ البلاد)) وكان يرى أن ذلك لن يحلّ شيئاً. وهو ما يزال لا ينوي دعوة حكومة عسكرية حتى ولو فشل في تشكيل حكومة ائتلافية مع الجبهة الوطنية. كان سيتبنّى ما يعتقده الحلّ الأخير، وهو تشكيل حكومة محايدة من رجال الدولة الكبار لإجراء انتخابات حرّة بالسرعة الممكنة، وتبدت خطته بحماسة.

وتم استدعاؤنا ثانية أنا وسوليفان إلى القصر في الرابع من تشرين

الثاني وكان هذا اللقاء لما تمخض عنه، واحداً من أكثر لقاءاتنا معه درامية، أخبرني سوليفان في حجرة الانتظار أنه قد تسلّم توجيهات من واشنطن. وبدا الشاه الحديث بإخبارنا أنه تلقّى مكالمة هاتفية من زبينكو بريز زنسكي رئيس مجلس الأمن القومي في واشنطن. لقد أخبره بريز زنسكي أن حكومة الولايات المتحدة ستؤيده في تشكيل حكومة ائتلافية أو حكومة عسكرية على حدّ سواء. وسألنا الشاه عن ردود فعل حكومتنا على التوالي فيما لو عيّن رئيساً عسكرياً للوزراء وأوضح سوليفان على أن مكالمة بريز زنسكي لا تعني أن الولايات المتحدة تفضل خيار غيره مطلقاً. وأخبرته أني لم أتسلم تعليمات محددة من لندن. إن حكومتي، على كل حال وكما علم الشاه، تفضل الحلّ السياسي بصورة ثابتة. وذكرته، وأنا أتكلم بصفة شخصية أنني كنت قد اقترحت عليه خيار حكومة محايدة تتولّى المسؤولية بالوكالة، فيما لو فشلت فكرة الحكومة الائتلافية. كان يعرف آرائي حول ما يمكن أن يحدث إذا جاء بالعسكريين وكنت ما زلت عند رأيي ورغم كل هذا، فهو حاكم مستقلّ وكتت واثقاً أن حكومتي ((سوف تحترم)) أي قرار قد يشعر أخيراً أنه يجب أن يتخذه.

أصبح النقاش الذي استمرّ حوالي ساعتين متشعّباً أكثر. وقال الشاه أنه ما يزال يسعى من أجل الائتلاف وإن قادة الجبهة الوطنية من المفروض أن يجتمعوا به في اليوم التالي. ولا يملك أن يفعل شيئاً بخصوص مقترح سنجابي بإجراء استفتاء شعبي حول النظام الملكي. وكان قادة الجيش يضغطون عليه في هذه الأثناء أكثر من السابق. وكان رأيهم هو أن بإمكانهم تهدئة الأمور بسهولة عن طريق إجراء عدد من الاعتقالات (فيما يتعلق بهذه المسألة أحسّست أن قادة الجيش قد عرفوا بمكالمة بريز زنسكي وربما فسّر ذلك ضغطهم المتزايد على الشاه).

واسترسل الشاه قائلاً أن إتصال بريز زنسكي أمر جيد جداً، ولكنه

يعتقد أن إطلاق العنان للجيش لن يحلّ شيئاً. وعرضت رأيي للمرة الأخيرة على أن التدخّل العسكري سيتبعه إضراب وطني لا يستطيع الجيش مجاراته: فبإمكان الجيش إخلاء الشوارع لكنه لا يستطيع إجبارهم على ترك منازلهم والعودة إلى العمل. إن الوضع مختلف عما كان عليه في أزمة مصدق عام ١٩٥٣ ذلك الوضع الذي استمرّ قادة الجيش بالتذكير به ثم أن مصدق لم يحظ بتأييد الملالي وكان الشعب بمجمله محايداً. وكانت الحركة العنيفة الوحيدة قي طهران وفي حقول النفط. ولم تكن هنالك مشكلة طلبة. أما اليوم فاتجاهات الأزمة أعظم بكثير والقوى المحتشدة ضدّ النظام أشمل وأغنى. لقد شهدت خلال عملي حكومات عسكرية توالت على السلطة. كانت ناجحة على الأمد القصير لأن الشعب كان بمجمله قد رحّب بها أو على الأقل أذعن لها. وسوف لن يحصل مثل هذا الوضع في إيران.

عدت إلى سفارتي متأخراً في الليل مع هاجس ينذر بالشرّ لقد كان يوماً سيئاً في المدينة وفي الأماكن الأخرى من البلاد. لقد جرت العديد من التظاهرات العنيفة في عدة أماكن من طهران وأحرقت السيارات وكان هنالك المزيد من الإصابات بين المدنيين على أيدي الجيش. ووصل التوتر حدّ الإنفجار. ولم يفعل حديثي مع الشاه شيئاْ لتبديد مخاوفي وأحسّست أن فكرة الائتلاف قد أنهارت وأن الشاه سوف لن يستطيع مقاومة القادة العسكريين طويلاً، خصوصاً إذا صحّ افتراضي أنهم كانوا على معرفة بأن حكومة الولايات المتحدة سوف تؤيد اضطلاع الجيش بالسلطة. ولم أرى إلاّ أملاً ضعيفاً أو لا أمل على الإطلاق في المستقبل.

وارتفع المنطاد في اليوم التالي، أي الخامس من تشرين الثاني. كنت أعمل في مكتبي حوالي الساعة العاشرة صباحاً حيث أن مبعوثاً من القادة الدينيين أرادَ أن يتحدث إليّ حالاً. وقررت مقابلته أخبرني أنه قد عاد من باريس لتوه، حيث قابل خميني وسياسيّ الجبهة الوطنية وسياسيين

آخرين كانوا هناك في نفس الوقت. وأكّد لي أن سنجابي، وعليه فالجبهة الوطنية جميعها، سوف لن تشارك في الائتلاف نظراً لمعارضة خميني. وقال زائري، أنه سيذهب إلى قم خلال أيام قلائل ليعرض ذلك على القادة الدينيين هنالك. كان رأيهم أن الطريقة الوحيدة لإنقاذ إيران من الكارثة التامة هي أن على الشاه أن يغادر البلاد ويتخلى عن السلطة مؤقتاً إلى مجلس دولة يرأسه ضابط عسكري متقاعد ومعروف. وسيقوم المجلس التشريعي بتعيين حكومة إصلاح وطني ستجري الانتخابات بالسرعة الممكنة. وحينما يجتمع البرلمان الجديد المنتخب، تكون مهمته الأولى التصويت على إمكانية أن تصبح إيران جمهورية أم تبقى ملكية. وكان يعتقد هو والقيادة الدينية في قم أن تصويتاً كهذا يمكن أن يأتي في صالح النظام الملكي، شريطة أن يتمّ الالتزام التام بدستور عام ١٩٠٦. كان يعلم إني أقابل الشاه باستمرار وطلب مني أن أعرض هذه الفكرة عليه.

وطلبت منه بإلحاح، ردًّا على ما عرضه، أن يعود إلى قم للتشاور مع أسياده هناك لم يعد ثمة وقت لاضاعته لا بدّ أنه قد لاحظ في طريقه إلى سفارتي أن الناس يتجمعون بأعداد لم يسبق لها مثيل للتظاهر احتفالاً بإطلاق سراح أية الله طالقاني من الاحتجاز (وهو أحد قادة ملالي طهران، وكان في السجن لسنوات عدة) وقد بدا لي كما لو أن كل من كان في صفوف المعتدلين لابدّ قد نفذ صبره قبل الأوان..

أما بخصوص مقترحه، قلت له لو سألني الشاه عن رأيي في المعارضة فسوف أخبره بما قيل. ولكني سفير أجنبي لا أشارك في اللعبة السياسية الإيرانية. ولن ألعب دور الوسيط بين الشاه والمعارضة لأن ذلك غير صحيح وغير مجد. لماذا لا يذهب هو إلى القصر ويعرض آراءه؟ ضحك وقال (**أنا أعلم لو أني دخلت قصر نياوران لن أخرج منه**).

وبعد أن غادر قررت أن أشرك سوليفان بما عرفته. خرجت بسيارتي

الرولس ـ رويس (وكانت تلك آخر مرة استخدمتها فيها) لمسافة نصف ميل إلى السفارة الأمريكية. كان الوقت هو الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر. وكانت أرصفة الشوارع مزدحمة بالناس الذين يحثون السير للاشتراك بالمظاهرة الكبيرة. كانوا مسالمين، وصامتين، يملؤهم العزم ولم يلاحظوا حضوري البارز. لكن الشعور بالتوتر الشديد كان واضحاً.

وبعد أن أنهيت مناقشتي مع سوليفان وكنت أعد للعودة إلى سفارتي تم إخباري أن عودتي باتت مستحيلة لبضع ساعات على الأقل، ذلك لأن المظاهرات كانت تأخذ مجراها وقد أغلقت الشوارع تماماً بين سفارتينا بحشود المتظاهرين وعرض علي سوليفان مشكوراً، أن أبقى لتناول الغذاء وأعود بعدما تفرغ الشوارع. كنت على اتصال هاتفي مستمرّ، بالطبع مع موظّفي سفارتي وقد طمأنوني أن كل شيء كان على ما يرام من ناحيتهم. وفي حوالي الساعة الثانية بعد الظهر سمعنا أصوات إنفجارات وشاهدنا، أنا وسوليفان، أعمدة دخان تتصاعد من المباني شمال السفارة الأمريكية. وأجرينا بعض الاستفسارات وظهر أن مجموعات صغيرة من الناس تتألف بصورة رئيسية من الشباب تنتابها سورة من الاهتياج قامت بحرق وتدمير المباني ذات العلاقة بالنظام البغيض وبسياساته ـ كالمصارف (لقد جمعت النقود في الشوارع وأحرقت، ولم تسلب) كما أحرقت ودمرت مكاتب شركات التأمين، ومباني مكاتب المؤسّسات الخاصة والعامة الكبيرة، وحوانيت بيع المشروبات... إلخ ولما لم تظهر هذه الموجة من التخريب أية علاقة للخمول وبعد أن تفرقت المظاهرات السلمية في هذا الوقت، قررت العودة إلى سفارتي بعد أن علمت هاتفياً من سكرتيري أنه لا توجد أية فعالية من أي نوع قرب مبنى سفارتنا وغادرت حذراً بسيارة من طراز بيكان أعارني إياها سوليفان وتركت سيارتي الرولس ـ رويس في مجمع سفارته، تتبعني سيارة مرافقة محملة بحرس السفارة الخاص وبملابس

رسمية ولما ظهرنا في الشارع العام وجدت نفسي أمام مشهد من المشاهد التي لم ألفها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. كانت النيران مشتعلة في كل مكان، وقد تمّ تجميع أثاث ومعدات الدوائر في وسط الشارع وأحرقت، وكانت السيارات المحترقة والباصات تغطي الطريق. كان الشباب يرقصون بجنون ويغذون الحرائق ويلصقون على السيارات القليلة المارة أوراق مصمغة كتب عليها ((الموت للشاه)) وتحركنا تدريجياً إلى الأمام ببطء وزيّنت سيارتنا بالأوراق المصمغة أحيطت بالمتظاهرين الهائجين الذين ركبوا على السقف ولما أستدرنا في ساحة فردوسي مسافة بضع مئات من الياردات عن سفارتي، كان الطريق مغلقاً تماماً بالسيارات والباصات المشتعلة. وتخطّى سائقي هذه العوائق بصعوبة، ولكني لاحظت أن سيارة المرافقين من الحرس الخاص كانت تواجه مشكلة. لقد لاحظ المتظاهرون جهاز لاسلكي في داخل السيارة وقاموا بلوي الأبواب حتى فتحوها وحاولوا قذف الركاب إلى الخارج. كان آخر ما لاحظته من حرسي الخاص الذين استطاعوا الوصول إلى السفارة الأميريكية أخيراً، هو السيارة التي كانت تنطلق بسرعة في أحد الشوارع الفرعية وقد فتحت ثلاثة من أبوابها وكانت شلة من الشباب تلتصق بجانبها. وقدنا سيارتنا محملة بالطلبة الذين تسلقوا إلى السقف، وكنا نردّ بصورة ملائمة على صيحات التهديد ((**الموت للشاه**)) التي كانت تصرخ عبر نوافذ السيارة، وهكذا انضممتُ إلى الثورة في هذه اللحظة. ولما أصبحنا على مقربة من السفارة رأيت مجموعة صغيرة من الأشخاص ترمي الحصى على النوافذ عبر الطريق وكان هنالك حشد صغير يتجمع خارج البوابة. قاد السائق السيارة إلى البوابة حيث ترجلنا جميعاً. كانت البوابة مغلقة (وكان هذا إجراء صائب) ولم يكن بإمكاني أن ألفت انتباه أي شخص من داخل المجمع ـ حيث كان يبدو مهجوراً. رجعنا إلى الخلف وقدنا السيارة ثانية محاولين الدخول من البوابة الخلفية إلى القنصلية التي

كانت تقع على الجانب الآخر من المجمع المسوّر. ولما استدارت السيارة في الزاوية رأيت فصيلاً من المشاة ومعهم عجلة مدرعة. كانوا يقفون هناك دون أن يعيروا اهتاماً إلى أي شيء مما كان يجري. وكانت البوابة الخلفية مغلقة أيضاً. قررت الذهاب إلى السفارة الفرنسية التي تبعد حوالي نصف ميل عن سفارتي لأتمكن من الاتصال بسفارتي هاتفياً من هناك ليتسنّى لي الدخول من البوابة الخلفية. لم يكن زميلي الفرنسي في وضع أفضل، ولكن في الوقت الذي تمكنت فيه من الاتصال هاتفياً من السفارة الفرنسية، عصف حشد غفير بسفارتي وقطع الاتصال وقرّرت أن أفضل شيء أفعله هو أن أتصل هاتفياً من السفارة الفرنسية بقيادة الجيش، ورئيس الوزراء والآخرين لأحاول ضمان حماية متأخرة للسفارة ولكي يتمّ تفريق الحشد. وجدت صعوبة بالغة في الاتصال بأي شخص ذي سلطة. وأخيراً تكلمت مع الجنرال أزهري رئيس أركان القائد العام. وطلبت منه رسمياً بشيء من الخشونة تفريق جميع المشاغبين الذين كانوا ما يزالون في مجمع السفارة البريطانية وضمان الحماية الكافية لها. وأنهيت مكالمتي معه بالسؤال عما سوف يقوم به للسيطرة على الوضع العام في المدينة. أجابني (أنها جميعاً غلطتك كنت تقنع جلالته منذ فترة طويلة لمنعنا من التدخل وإعادة الوضع إلى ما كان عليه) لكنه وعدني باتخاذ الخطوات الضرورية لحماية السفارة وأفرغت الشوارع تقريباً بحلول الليل وقام الجيش الذي ظلّ متفرجاً محايداً على التخريب والحرائق طيلة النهار، بفرض منع التجول. عدت إلى سفارتي تحت حراسة الجيش مروراً بالمباني التي أتلفت من الداخل، والسيارات التي مازالت محترقة في الشوارع لأجد منظراً آخراً من الدمار. فقد تسلقت مجموعة صغيرة من المشاغبين السور أمام مبنى السفارة وأشعلت النار في جزء من المكاتب، وقد ساعدتها في ذلك أسطوانات الغاز المعبأة التي سلمت إلى السفارة ذلك اليوم. وقد دمر مكان الحرس قرب البوابة وجزء كبير من بناية

المكتب التي خربتها النيران. وكان الجزء البعيد من البناية التي تحوي مضاربنا (الأرشيف) التجارية غير السرية (وثائق سنوات الازدهار) قد دمر من الداخل. وقد دمر أحد المنازل الداخلية الذي كان يشغله ضابط أمن بريطاني وعائلته حيث اقتحم وخرب ولم يقم المشاغبين بمحاولة إيذاء أي من موظّفي السفارة أو من عائلاتهم، وكانت جميع المباني الداخلية الأخرى بما فيها محل إقامتي، لم تصب بأذى وكذلك نجت الحجرة المنيعة التي تحوي كل الوثائق السرية ولا حاجة إلى القول أن أسلاك الكهرباء والهاتف قد أحرقت وأمضينا الليل دون اتصال وفي ظلام دامس. وجدت الموظّفين وعائلاتهم بمن فيهم زوجتي في حالة متردية بعض الشيء ولكن عزمهم كان ممتازاً. وليس من الضروري أن أضيف أن الجميع قد تصرفوا بشكل مدهش وأن المسؤولين قرّروا مباشرة إعادة السفارة إلى وضعها الكامل دون تأخير لتؤدي وظيفتها كما كانت.

ولما كنا واقفين في الظلام نخمن الأضرار قدر استطاعتنا ونتأكد من أن جميع الموجودين في المجمع قد تمّ تفقدهم، تمّ استدعائي للحضور إلى قصير نياوران وأجبت أنني سأحضر في الوقت الذي يلائمني بعد أن اقتنع بخصوص سلامة الموظّفين وعائلاتهم. وغادرت بعد حوالي نصف ساعة في عجلة عسكرية إيرانية بآلية سوفيتية الصنع ترافقها عجلتان مدرعتان لحمايتها. وقد عطبت أحداهما على مسافة بضع مئات من الياردات من سفارتي في حين واصلت العجلتان الأخيرتان الزحف ببطء بسرعة حوالي خمسة عشر ميلاً/ ساعة لقطع المسافة التي تبلغ عشرة أمتار عبر المدينة. كانت الشوارع خالية عموماً باستثناء المجموعات المتفرقة من الجنود الذين كانوا يشرفون على تنفيذ منع التجول. كان منظراً مرعباً. وكان الجزء الأكبر من طهران أي المركز التجاري الحديث قد بدا مخرباً. رأيت مباني الدوائر الرسمية المؤلفة من عدة طوابق قد انهارت تماماً، ورأيت مخازن الشراب تحترق ويتصاعد الدخان من

الحطام في كل مكان، ورأيت هياكل السيارات والباصات في كل مكان، المقلوبة قد هجرت ـ وكان منظراً رهيباً من الدمار.

ولما وصلت القصر، دخلت عالماً مختلفاً كان هنالك الخدم المترفون بسترهم الخطافية والمعاونون الخدميون، الغرف الفخمة التي لم تتغيّر، **وكان من الصعب أن تتصوّر أن الشاه والأمبراطورة مواطنان ينتميان إلى نفس المدينة التي مزقتها الحرب** والتي أجتزتها لتوي متألماً. وتمّ إيصالي إلى غرفة الشاه وكان سوليفان حاضراً هناك حينئذ وكان مزاجي حادًّا بسبب أحداث ذلك اليوم، وتحدثت بخشونة حول مهاجمة السفارة وعن العجز الكامل والواضح الذي أظهره الجيش في حمايتنا وفي الواقع في منع الدمار الشامل عن وسط طهران. وطلبت رسمياً التعويض عن الخراب الكبير الذي لحق بالسفارة. كان الشاه يفيض بالاعتذار ووافق مباشرة على أننا يجب أن نعوض. ولم يحاول تبرئة السلوك المستغرب للقوات المسلحة. ولكنه لم يخف حقيقة أن جميع المبادرات السياسية قد تساقطت ودعاني للموافقة على أن لا خيار له الآن سوى تعيين رئيس وزراء عسكري، مهما يكون شعورنا فيما يخصّ النتائج. وكان في الواقع قد أعطى الأوامر في أن يعلن تعيين الجنرال أزهري لذلك المنصب في اليوم التالي. وفي تلك الأثناء كان بإمكانه أن يطمئنني بأن الجيش سوف لن يسمح بتكرار أحداث اليوم. كنت مجبراً على موافقته وأذكر أنني قلت له بأنه لم يعد هنالك بديل الآن. لا تستطيع طهران أن تحتمل يوماً آخر مثل الخامس من تشرين الثاني. وعدت إلى سفارتي المظلمة حوالي منتصف الليل. لقد اختفت السيارة العسكرية عندما غادرت القصر وعدت بسيارة سوليفان. وافترقنا دون أي إحساس بالتفاؤل.

قمنا أنا والموظّفون الكبار في اليوم التالي بجرد الموجودات في حين قام الفنّيون البارعون بإصلاح الكثير من الخراب ببراعة وذلك إعادة الاتصال بالعالم الذي حولنا ثانية وإعادة القوّة الكهربائية. وحضر جميع

الموظّفين الإيرانيين دون استثناء إلى العمل كالعادة وبدا العمل في تقدير الأضرار وتنظيف الغرف التي أسودت جدرانها بالدخان وتم استئناف الأعمال الاعتيادية. كان هناك العديد من الأسئلة في اذهاننا وكانت تحتاج إلى إجابة آنية.

● **أولاً**: كان هنالك سلوك القوات المسلحة. لقد اتفقنا على أن أوامر واضحة لا بدّ أن تكون قد أعطيت للجنود بعدم التدخل وترك المشاغبون يفعلون أسوأ ما يمكنهم. وكان الهدف هو السماح للموقف بأن يتطور مما يجبر الشاه على تعيين حكومة عسكرية. لا يمكن أن يكون ثمة تفسير آخر كانت مجاميع المشاغبين، التي قامت بالحرائق صغيرة وكان من السهل تفريقها، ولكن الجنود كانوا يراقبونها فقط في كل الأحوال دون أن يفعلوا شيء لإيقافها. وكانت ملاحظة أزهري التي قالها لي عبر الهاتف دليلاً آخر، واستنتجت من إشارة اخرى من الضابط المسؤول عن المفرزة التي تقوم بحراسة السفارة الآن أنه كانت هنالك بعض العلائم على أن هجوماً آخر ربما سيقع ضدنا خلال الصباح. وسرت إلى الخارج وسألت الضابط عما سيفعل هو ورجاله. أجابني مبتسماً ((**لا تقلق أن لدي اليوم أوامر أفضل بكثير**)).

● **ثانياً**: من الذي هاجمنا ولماذا؟ بغض النظر عن مكتب الخطوط الجوية الكويتية (حيث كان هدفاً واضحاً نظراً لرفض الحكومة الكويتية دخول خميني في تشرين الأول) كانت سفارتنا ومكتب الخطوط الجوية البريطانية المؤسّستين الأجنبيتين الوحيدتين اللتين تعرضتا للهجوم. وقد ناقشنا نظريتين حول ذلك ولم أقرّر إلى يومنا هذا أيهما كانت صحيحة، فيما لو صحّت أحداهما. لقد أعتقد العديد من الموظّفين الإيرانيين العاملين في السفارة أن المهاجمين كانوا عملاء السافاك والجنود الذين يرتدون ملابس مدنية. ما السبب؟ لإعطائنا درساً بسبب معارضتنا في قيام الحكومة العسكرية، في نفس الوقت لإقناع البريطانيين أن ليس من

المجدي مواصلة الضغط على الشاه للبحث عن حلول سياسية. أما البديل الآخر فإنه قد تمت مهاجمتنا من قبل نفس أولئك الذين كانوا يحرقون بقية المدينة ذلك لأننا أفضل بديل عن الأمريكان بأمكانهم العثور عليه. فقد كانت السفارة الأمريكية تحت حراسة مشددة وهي هدف صعب، ولم تكن سفارتنا كذلك، وقد كان من المعروف سياسياً، هو أننا والأمريكان كنا نؤيد الشاه ولم تخف الحكومة البريطانية تأييدها، لذلك كان من المنطقي أن يقع الهجوم على الهدف الأسهل. وأنا أميل شخصياً، الآن مستفيداً من الإدراك المتأخر للحادثة بعد وقوعها، للإيمان بالنظرية الأولى، أي الهجوم كان من فعل السافاك والقوات المسلحة. وآمل أنني لم أكن قد ظلمتهم بحكمي هذا.

وبعد من كان مسؤولاً عن الحملة الشاملة من الحرائق والتخريب؟ نستطيع أن نحكم الآن، على ثلاثة أحداث وقعت في طهران يوم الخامس من تشرين الأول.

● **أولاً**: لقد كانت هنالك سلسلة من المظاهرات العنيفة والهائجة المضادة للشاه. والتي غدت مسألة طبيعية الآن. لقد لوحقت زوجتي لدى عودتها ماشية من صالون التجميل حوالي الساعة الثانية عشر والنصف ظهراً من قبل أحدى هذه التظاهرات للمرة الأولى وهي المرة الوحيدة خلال الثورة، مما اضطرها للاتجاه إلى حانوت قريب كانت على معرفة بصاحبه.

● **ثانياً**: كان هنالك الحشد الهائل المسالم الذي رأيته صباح أمس يسير في تظاهرة احتفالاً بإطلاق سراح أية الله طالقاني من السجن.

● **ثالثاً**: كانت هنالك المجاميع الصغيرة من التلاميذ والطلبة والشباب الذين قاموا بالقدر الأكبر من التخريب. لقد بدا لنا واضحاً عندما جبنا المدينة يوم السادس من تشرين الأول أن نظامهم وانتقائيتهم كانا واضحين. وكان الحطام، الذي يتكون من أبدان السيارات المحروقة

والركام المبعثر، أقل كثيراً مما كان ظاهراً في الليلة الماضية. لم تكن هنالك خسائر في الأرواح، وكان ذلك لا يصدق لكل من رأى مشاهد اليوم السابق. لقد كانت الهجمات على الممتلكات مؤقتة بعناية مع فترة استراحة الغداء حيث تكون بنايات الدوائر . . . . إلخ فارغة فقد دمرت المصارف المنعزلة، أما المصارف التي تقع فوقها شقق سكنية فلم تمسّ بأذى. ولم يكن هنالك سلب غير مميّز. لم يكن العمل فعل (عصابات إجرامية). فلم تمسّ حوانيت السجاد اليهودية في شارع فردوسي بينما دمرت المصارف وحوانيت المشروبات المجاورة تدميراً كاملاً. لقد كان هدف لحقه الدمار ذا علاقة بالبهلوية والتحديث، وكل ما يحمل إيحاء ضد الإسلام لقد كان عملاً مدهشاً في تنظيمه وتوقيته وانضباطه. كان استنتاجاً هو أن مظاهرة الطالقاني قد تمّ اعدادها من قبل القادة الدينيين من خلال المساجد المحلية، وكانت تضمّ بصورة رئيسة الطبقات الحرفية من جنوب طهران التي هي جند الحكومة التقليدية. وقد نظّمت الحرائق كما شعرنا من قبل مجاهدي خلق (مقاتلي الشعب) وهم جماعات مناضلة تشنّ حرب عصابات ضدّ السافاك لسنوات، وربما بالاشتراك مع الجماعات المتطرفة الأخرى كفدائي الإسلام، وبالتعاون المحتمل مع الحزب الشيوعي (توده) لقد كان لهذه المجموعات التنظيم والانضباط الكافيان والاتحاد للقيام بعملية كهذه. وفي هذا السياق كنا قد عثرنا مصادفة على دليل مفيد، هو أنه قبل أيام قلائل من الخامس من تشرين كانت المدارس الثانوية التي تتظاهر دون هدف وتندد بالشاه، قد طعمت بجماعات من الكبار التي نظمت ووجهت مجموعات من الصغار للحرق والتخريب عندما آن الأوان. وقد ضرب أحد التلاميذ بعنف من قبل أحد هؤلاء المنظّمين عندما شوهد يضع نقوداً في جيبه من أحد المصارف المحترقة، وأجبر على إبقاء غنيمته الصغيرة إلى السنة اللهب. ومهما كانت الحقيقة فقد أجمعنا أنا والموظّفون في السفارة على نقطة حاسمة. لقد كان هنالك

تطابق تام في أهداف المتطرفين في أي جانب كانوا. لقد حققت القوات المسلّحة هدفها بفرض الحكومة العسكرية على الشاه المتردد. وكذلك حققت المعارضة الاستقطاب الضروري الذي كان سيسهل سقوط النظام، عن طريق الإغراء بالتدخل العسكري الذي تلاشى معه كل أمل لحلّ سياسي فعّال كان سيترك للشاه موقعاً من المواقع وكانت عبارة الشاه **(الحلّ السياسي ليس حلًّا)** عملة دارجة في السفارة في ذلك اليوم. استطاع الجيش خلال اليوم أو اليومين من إعادة مظهر النظام في طهران. فقد فرق مظاهرات عديدة كانت أعدت في جامعة طهران وأحرقت مباني قليلة أخرى وكان هنالك إطلاق نار ليس قليلاً من قبل القوات المسلحة. ودعا الشاه علناً في السادس من تشرين الثاني إلى الهدوء وأكّد للشعب (دون أن تشوب كلمته نبرة تهكمية) أن أيام الاستبداد قد ولت، وإن كل شيء سيتم وفق دستور عام ١٩٠٦ مستقبلاً وأن الانتخابات الحرّة ستجري بأسرع وقت ممكن.

وبقيت الأقاليم مضطربة على كل حال، واتّسعت رقعة الاضطرابات وتعمّقت. وقد انقطعت حقول النقط عن الإنتاج كلياً في السابع من تشرين الثاني، وأغلقت الأسواق والحوانيت، وكانت الوزارات أما في اضطراب تام أو تعمل بأقل عدد ممكن من الموظّفين وتعطلت الخطوط الجوية الوطنية، والمصرف المركزي، وامتدّ الشلل إلى المصارف التجارية. وحاول الجيش فرض رقابة على الصحافة وأغلقت جميع الصحف الرئيسة حالاً، تاركة الإذاعة والتلفزة التي يوجهها الجيش وبعض الصحف الحكومية. لقد كان واضحاً أن الحكومة العسكرية قد فشلت منذ البداية في إعادة الهدوء إلى البلد أو في إعادة الماكنة الإقتصادية إلى العمل.

قابلت الشاه يوم السابع من تشرين الثاني وجدته منشغلاً في حملة

محاربة الفساد أخبرني أن الجنرال ناصري، رئيس السافاك السابق، قد اعتقل هو والجنرال خادمي رئيس الخطوط الجوية الإيرانية (لقد انتحر الجنرال خادمي في ظروف غامضة، وكانت هنالك شائعات ذائعة على أنه قد اغتيل من قبل أولئك الذين أرسلوا لإلقاء القبض عليه) وكانت هنالك وقفة قال الشاه بعدها أن قادة الجيش أرادوا اعتقال هويدا. لم أستطيع أن أتمالك نفسي بعد ذلك. قلت أن الشاه قد علم أنني وهويدا كنا صديقين حميمين لمدة عشرين سنة، ولكن ليس هذا هو السبب الذي جعلني أشعر بأنني لا بدّ أن أعلن رأيي. فقد كان هويدا رئيس وزراء الشاه لمدة ثلاثة عشرة سنة. أن اعتقاله يعني اعتقال الشاه، ومحاكمة هويدا ستكون محاكمة الشاه، وإدانته ستكون إدانة الشاه وساد صمت طويل تمتم الشاه بعده بشيء ما حول عدم رغبته بالثارات السياسية، وغيّر الموضوع.

ولم أر من المجدي إخفاء مشاريعي إلى مدى أبعد. وقلت للشاه إنه إذا كان مهتماً جداً بمحاربة الفساد، عليه أن يعلم بأن هنالك شائعات تهم طهران تفيد بأن أفراد العائلة المالكة الذين هربوا من البلاد (أغلبهم تقريباً) كانوا يخطّطون للعودة ومواصلة نشاطاتهم التجارية الآن نظراً لسيطرة الجيش. وطلبت منه بإلحاح أن لا يسمح بذلك فيما لو صدق شيء مما يقال. لا أعلم أين تكمن الحقيقة ولكن لا بدّ للسياسي أن يدرك بأن الجميع قد آمنوا بأن العائلة البهلوية كانت في بؤرة الفساد. فلو كان لا يرغب بسماع هذا مني، كان بإمكانه أن يقذفني خارج الغرفة، ولكنني شعرت أن من واجبي أن أتكلّم بصراحة، وندمت في الحقيقة على أني لم أفعل ذلك في وقت سابق. ولم يغضب الشاه وسألني عن تفاصيل القصص الدائرة حول أفراد معينين من عائلته. وأعطيته التفاصيل وأكّد لي أن أحداً من عائلته سوف لن يرجع طالما استمرّت الأزمة (أعلن بعد يومين تحقيقاً سيجري عن التعامل التجاري وأملاك مختلف الأمراء والأميرات)

ولما ودعنا بعضنا قال الشاه أنه عازم على إبدال الحكومة العسكرية بحكومة وحدة وطنية بأسرع ما يمكن. وسيستمرّ بإطلاق الحرّيات مهما كان الثمن وسوف لن تتوقف مسيرة التاريخ أو تتراجع.

ولما عدت إلى السفارة تلك الليلة، كنت قلقاً حول مصير هويدا وكنت أعرف أن العسكريين يكرهونه - وهو لم يخف احتقارهم لهم قط - وكنت واثقاً من أنه لو أعتقل، سوف لن يخرج من السجن حيًّا سواء سقط النظام أم لم يسقط. وأتصلت به هاتفيا. في اليوم التالي في شقته الصغيرة شمال طهران. أخبرته بلغة محترسة أنني أخشى بأن سيده السابق على وشك أن يخذله لصالح أعدائه، واقترحت عليه أن يفرّ ناجياً بنفسه ما دام هنالك وقت. ضحك وقال لي (عزيزي توني: أنا إيراني ولم أفعل شيئا. أخجل منه. وليس لي أية نية للهرب مطلقاً) وطلبت منه بإلحاح أن لا يتصرف كبطل وأكدت له الخطر الذي شعرت بأنه يحيق به. قال لي (لا) دعهم يفعلون ما يحلو لهم. وإذا وصلت المسألة إلى محاكمة فلدي الكثير لأقوله وعلى كل حال فإن لدي الكثير من القصص البوليسية التي سوف أقرأها ويجب أن أبقى في مكاني لأكمل قرائتها وكففت عن الإلحاح عليه وأتفقنا على أن من الأفضل لكلينا أن أزوره شخصياً. ووعدته أن أتصل به هاتفياً ثانية خلال أيام قلائل ولكنه كان قد اعتقل تلك الليلة، ولم أره ثانية، رغم أني قد تمكنت من أن أرسل له رسالة وداعية إلى السجن قبل أن أغادر طهران بصورة نهائية أواخر كانون الثاني عام ١٩٧٩ بوقت قصير. وقد أعدم بالرصاص من قبل نظام خميني بعد أسبوع أو أسبوعين وعلمت من شهود عيان أنه قد سار إلى حتفه بشجاعة كبيرة ولا مبالاة كاللتين أظهرهما لي في آخر مكالمة هاتفية لنا.

قابلت الشاه مرة أخرى في الحادي عشر من تشرين الثاني وعلمت منه عن المزيد من الاعتقالات للوزراء السابقين والشخصيات الكبيرة وكان المحافظ غلام رضا نكبة هو صديق حميم آخر لي، ومن بينهم كانت

جريمته الوحيدة هي أنه قد حاول تنفيذ أوامر الشاه المستحيلة بأخلاص لتحديث العاصمة المزدحمة جداً وقد لاقى منيته بشجاعة أيضاً على أيدي منفذي الإعدام الخمينيين. لقد كان هو الآخر رجلاً جيداً وشجاعاً.

وأخبرت الشاه بعد ذلك بالاقتراح الذي طرحته على المعارضة المعتدلة في الخامس من تشرين الثاني والذي طرح ثانية على أحد موظّفي سفارتي حوالي التاسع من تشرين الثاني. قال الشاه، أنه لو أعتقد بأن ذلك سينفر البلد، فسوف يغادر في اليوم التالي. لكنه كان مقتنعاً بأن مغادرته ستقود البلاد إلى الفوضى. ستظلّ القوات المسلحة دون قائد وسيثير ذهابه وضعاً مثل أوضاع أمريكا اللاتينية حيث ستنشق القوات المسلحة في انقلاب أثر انقلاب إلى وضع من عدم الاستقرار الدائم. وقد طلب منه (علي أمامي وانتظام) اللذان يقدمان له المشورة الآن بإلحاح وشدة أن يبقى، ووافقته على ذلك واسترسل الشاه ليقول أن رفض الجبهة الوطنية للمشاركة في ائتلاف كان نكسة خطيرة، لقد كانت في علاقات الود مع خميني. واقترحت عليه أن يواصل البحث عن خيارات مدنية، ربما عن مجلس وزراء من أشخاص محايدين تماماً، وهي فكرة قد ناقشناها قبل الخامس من تشرين الثاني المشؤوم. كان ذلك هو الأمل الوحيد، كما اعتقدت لإرجاع البلاد إلى طبيعتها ثانية: وليس ثمة بديل آخر لذلك سوى سقوط النظام.

وكانت لنا جولة أخرى حول هيئة الإذاعة البريطانية. لقد رأى الشاه أن البرامج الفارسية تساعد في إقناع الناس بأن البريطانيين يتلاعبون هنا وهناك مع المعارضة (كان واضحاً أن كلمة (الناس) تشمله هو أيضاً) وخرجت عن طوري وقلت له أن الشخص التالي الذي سيوجه هذا الاتهام سيلقي مني إجابة قصيرة جداً. أن أي شخص يعتقد أن الحكومة البريطانية قد تجلب لنفسها فضيحة سياسية من خلال المواجهة العلنية مع نظام ما ـ هو شخص غبي جداً ـ وافترضت أنني كمن يحرق سفارته فعلاً إذا

شارك في اللعبة مع المعارضة ويجب أن يكون في مستشفى المجانين. وأعتقد بأن (الناس) الذين آمنوا بذلك قد فعلوا نتيجة الشعور بالخجل من عدم قدرتهم على حلّ مشاكلهم ـ كان من الأسهل لهم لوم البريطانيين بدلاً من مواجهة الحقيقية وأعقب ذلك صمت.

قمت بأول زيارة لرئيس الوزراء الجديد الجنرال غلام رضا أزهري يوم الثاني عشر من تشرين الثاني. كان داهية، رحيماً، يتمتع باحترام واسع خارج محيطه العسكري مباشرة وكان أزهري ضابطاً من نوع مختلف عن قادة الصفوف الثلاثة المنفصلة. فقد كان أويسي (قائد القوات البرية) جندياً مستقيماً من الطراز المتزمت لا شك أنه كان آمر سرية جيد وكان ربيعي (قائد القوّة الجوية) يعبد الشاه وكان مثل أويسي راسخ الإيمان بالإجراءات العسكرية الصارمة. وكان حبيب الله (قائد الأسطول) مثلهما رغم أنه كان أقلّ صرامة منهما وأكثر عقلانية. كان أزهري حادّ الذكاء وكان يتمتع بأدراك للأبعاد السياسية اللازمة لم يقم بمحاولة لتقليل خطورة الوضع وخصوصاً الاضطرابات. كانت واجباته إعادة النظام وأرجاع البلاد إلى حالتها الطبيعية وكان الشاه قد علق أملاً كبيراً على تأثير حملة محاربة الفساد. وكانت لنا أول مناقشة من مناقشات عدة حول هيئة الإذاعة البريطانية ـ بالطريقة المألوفة ـ رغم أن أزهري كان، ربما بسبب ثورتي بوجه الشاه محذراً ليؤكد لي أنه لا يربط حكومة صاحبة الجلالة بهيئة الإذاعة البريطانية. لم يكن لديه شك في تأييدنا للشاه وقد فهم الآن أنني كنت طيلة أيلول وتشرين الأول أنصحه بصدق. أما المشكلة فيما يخصّ نشرات هيئة الإذاعة البريطانية فهي أن ما يقبل على أنه تعليق اعتيادي من قبل المستمعين الغربيين يفسّر بصورة مختلفة من قبل الجمهور الإيراني. فمثلاً لو ذكرت هيئة الإذاعة البريطانية (تقارير غير مؤكدة) عن خسائر فادحة في مدينة كيت وكيت، فهذا يعني للمستمعين الإيرانيين أن الخسائر قد وقعت فعلاً وتسترت الحكومة عليها. ودافعت

عن هيئة الإذاعة البريطانية. لقد أخبرت أزهري أنني ناقشت هذا النوع من الاتهام مع مراسل الإذاعة في طهران. ودعاني المراسل لقراءة دفعة من التقارير التي أرسلها خلال الأسابيع القليلة الماضية. كانت صادقة تماماً. واقترحت على أزهري أن يستغل فرصة حضور فريق تلفزيوني من هيئة الإذاعة البريطانية لإجراء مقابلة معه وعرض قضيته للشعب البريطاني. رفض ذلك وقال (إذا أجريت مقابلة فسأقول أشياء قاسية ضد هيئة الإذاعة البريطانية ولا أريد أن أفعل شيئاً ربما يخرب العلاقات بين إيران وبريطانيا في هذه المرحلة العصبية من تاريخنا).

ولما أنقضى الشهر أصبحت مقابلاتي مع الشاه ومع رئيس الوزراء أكثر فأكثر عبوساً. لقد ساء الوضع الأمني في طهران والأقاليم وأصبحت أعمال الشغب شائعة. وكان هنالك في كل يوم إطلاق نار وخسائر. وقد قدرنا أن الجيش قد قتل ما لا يقلّ عن (٢٠٠) شخص في الأسبوعين التاليين لتولي الحكومة العسكرية. كانت إحدى المشاكل هي أن الجنود كانوا غير مدربين على السيطرة على الحشود وغير قادرين أو غير راغبين في استخدام المعدات غير المميتة التي تستخدمها قوات الأمن الداخلي مثل الهراوات ورصاصات المطاط التي أطلقت على البعض. وأتذكر حادثة في أواخر تشرين الثاني حيث سمعت إطلاق نار قرب السفارة بينما كنت أسير من مكتبي إلى محل إقامتي لتناول الغذاء.

سرنا أنا والموظّف الصحفي إلى الشارع لنرى ما الذي كان يحدث. كان هنالك فصيل من الجنود، في أقرب تقاطع طرق، منتشر في وضع البروك، يذكر بصور الحرب البويرية. وكان هنالك حشدان من الناس يتقدمان من شارعين مختلفين نحو التقاطع. وكانت الأرصفة تغصّ بالمارة الذين يتراكضون في جميع الاتجاهات تجنباً للعراك الصاخب. كان الجنود يطلقون إطلاقات منفردة بصورة متقطعة من بنادق سريعة الإطلاق باتجاه المتظاهرين القادمين مباشرة. لقد كان بالإمكان تفريق

كلا الحشدين بسهولة عن طريق هجمات بالهراوات من قبل الجنود وبالمعدات المضادة للشغب. لكن الجيش الإيراني كان يتصرف كما لو كان يقاتل في حرب ضد عدو وطني.

واستمرّ القتل والإضرابات في التصاعد وقد حققت الحكومة بعض التقدّم من حين لآخر مثلاً عندما عاد عمال النفط إلى أعمالهم بعد فترة وجيزة من القيام بمئات الاعتقالات وعاد الإنتاج لأيام قلائل، إلى مستوياته الاعتيادية. لكن فترة الراحة هذه كانت قصيرة ولم يتمّ اخضاع الخدمات العامة والوزارات والصحافة والجامعات والمدارس الثانوية إلى السيطرة مطلقاً. وأغلقت خدمات الجمارك وهكذا نفذت المواد الرئيسة لدى المصانع، بينما التحق العمال (الذين كانوا يعملون ولو فترات متقطعة) بالإضراب الوطني حيث لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه. ولفت الانقطاعات المبرمجة للقوة الكهربائية طهران في الظلام لبضع ساعات يومياً ولم تستطع الحكومة فعل شيء ما لمنع ذلك. وكان الإضراب في المصرف المركزي والخطوط الجوية الإيرانية قد جعل من المستحيل نقل النقود إلى الأقاليم. ولم يكن بالإمكان دفع الأجور. والتحق العمال الذين لم تدفع لهم أجورهم بالثورة.

بدأ الضغط يتنامى ضد الأجانب خصوصاً في حقول النفط واجتمع الدليل على أن المعارضة كانت مسلحة. وبدأت الشركات الأجنبية تسحب أفرادها ـ كانت أغلب مؤسّساتهم في إضراب على كل حال ـ وغادر المزيد من الأجانب لدى تزايد النداءات الهاتفية المهددة والمناشير والتحذيرات التي تلصق على عضادات الأبواب. وقد نسف مسكناً للمدير الأمريكي لشركة الخدمات النفطية ومدير عمليات الحقل الإيراني، مما خلق قلقاً أكثر بين الجماعات الأجنبية. كان الاقتصاد في طريق الدمار وبدا الأوروبيون والأمريكان الذين كانت خبرتهم ضرورة جداً في الأمور الأساسية بالرحيل أو أجبروا عليه.

وبدت نشاطات الشاه والحكومة كأنها تتسم بجوّ من اللاواقعية. فقد كان الشاه محاطاً بالمستشارين من مختلف الحقول. كان لكل منهم حلّه المفضل بدء بمؤيدي الحكومة وانتهاء بسياسيي المعارضة المعتدلين، وكانوا مختلفين عموماً حول مسألة وجوب انسحاب الشاه مؤقتاً (أما من طهران أو من إيران نفسها) ليتيح الفرصة لإجماع الرأي الوطني بإعادة الحياة للبلاد وإجراء الانتخابات. وقد أيدت العناصر العنيفية الإجراءات الصارمة فقط ـ كالإعتقالات الجماعية، والإعدامات (الإجراءات الصارمة لفرض النظام) ومما يمدح الشاه عليه هو أن إجراءاته لم تتذبذب. فقد التزم بثلاث نقاط:

- **أولاً**: إذا ترك البلاد سوف تنشق القوات المسلّحة وستكون هنالك فوضى.
- **ثانيا**: يجب أن ينظر إلى الحكومة العسكرية على أنها انتقالية تسعى إلى إعادة الحكم المدني، ربما في نهاية كانون الثاني.
- **ثالثاً**: إن سياسية العنف سوف تعجل في المرحلة الثالثة من الثورة، أي الإرهاب، وأعمال التخريب، والعصيان المسلح وعلى كل حال فإن إجراءات فرض النظام بالقوّة لا تحلّ مشكلة الإضرابات التي باتت تستنزف قوائم الحياة، النظام أكثر مما تستنزفه أعمال الشغب والتظاهرات..

كانت سياسات الجنرال أزهر منسجمة مع آراء الشاه. فقد أزاح القادة العسكريين الكبار من مناصبهم الوزارية ـ وكان ذلك مبعث ارتياح كبير لهم ـ وقدّم إلى الشعب وجهاً مدنياً ودستورياً بشكل رئيس. وأحال جميع إجراءات الحكومة، بإجماع الرأي إلى النقاش البرلماني وقوض سلطة قادة الجيش القساة والمتعطشين للنيل من حرّية الجماهير. وقد أكّد مراراً وعلناً الطبيعة المؤقتة لحكومته ووعد بعودة مبكرة بصورة

معقولة إلى الحكم المدني. حتى أنه بدأ يمارس دوره رئيساً للوزراء بلين، خصوصاً في خطاباته في البرلمان، رغم أنه لم يقع مطلقاً فريسة للتفاؤل الذي لا مبرر له.

كانت المناورة، كما قال لي أحد أصدقائي الإيرانيين (اللعب بالكلمات في الفراغ). كانت مكانة خميني رفيعة جداً، وكان رسالته البسيطة في أن على الشاه أن يذهب ليستبدل النظام الملكي بجمهورية إسلامية، قد صعدت النزعة المناوئة للنظام في البلد إلى حدّ بدا فيه أن ليس بإمكان السياسية التي تقوم بها الحكومة أو المعارضة المعتدلة الخلاص من الورطة. كنت أشعر أنه ربما أدى الإنهاك وزيادة القلق من الإنزلاق نحو الفوضى وإلى تمهيد الطريق أمام أولئك الذين يقبلون بحلول وسطى لإقناع سواد الناس بقبول حلّ دستوري، يحتفظ بالشاه مسلوباً من كل سلطاته، ما عدا سلطات كونه قائداً عاماً للقوات المسلحة لكني لم أرى علامة لهذا التحوّل بادية للعيان.

توصلنا في الأيام الأخيرة من تشرين الثاني إلى أن ولاء القوات المسلّحة بدأ بالإنهيار أخيراً. لم يكن ثمة اضطراب خطر في القيادة واستمرّ تصرف الجنود بصورة حسنة لمدة طويلة. لكن الدليل كان يجتمع على أن الجنود قد اختلطوا ودياً مع المشاغبين في الخامس من تشرين الثاني وساعدوا أحياناً في عمليات تخريب المباني. وتكاثرت القصص حول الهروب من الوحدات في الأقاليم. وكذلك عن حوادث أطلق فيها الجنود النار على الطائرات المروحية العسكرية وخربوا المعدات العسكرية. وأشك كثيرا. في رغبة الجيش في القيام بجولة كبيرة أخرى ضد الشعب إذا لم يتأكد تماماً من أن الشاه سينتصر في النهاية ـ وليس بأمكانه أن يتأكد من ذلك.

انتظرت السلطات في ظلّ هذه الخلفية الباعثة على اليأس ما قد علمت بأنه سيكون اختبارها التالي ـ بداية شهر محرم (المصادف الأول

من كانون الأول). يعتبر محرم الشهر الأكثر قداسة في تقويم المسلمين الشيعة. فهو يتضمن الذكر بين السنتين لاستشهاد اثنين من أولاد صهر النبي محمد ﷺ، وخليفته الشرعي في رأيهم علي بن أبي طالب ؓ. فقد توفي الإمام الحسن عليه السلام[1] الابن الأكبر لعلي، يوم التاسع من محرم وقتل الإمام الحسين عليه السلام الابن الأصغر لعلي، من قبل قوات الخليفة الأموي يوم العاشر من محرم (عاشوراء) ويكرّس الشهر بكامله، وخاصة هذين اليومين، للشعائر الدينية ومراسم التعزية، التي تأخذ شكل مواكب عامة، وخدمات في الجوامع، وفي سرادقات أعدت خصيصاً لذلك، وتمثيليات الآلام وطقوس تنسمل على جلد النفس بالسلاسل أنها فترة سمت فيها المشاعر بين المسلمين الشيعة وأعطت الدفعة الدينية القوية وراء الحركة ضدّ الشاه وكان وقتاً مناسباً لدفعه ضدّ البنية المتداعية للنظام.

وأصدر خميني في الثاني والعشرين من تشرين الثاني من باريس تعليمات حول ما يجب أن يتبع في محرم. فقد وجه الناس للقيام بمراسيمهم دون اعتبار لحظر السلطات إجراء مثل هذه المراسيم. يجب أن يسير الناس في الشوارع للتعبير عن المساوئ الحقيقية للنظام وعلى الطلبة الدينيين أن يذهبوا إلى الريف ليضمنوا أن رجال الدين وقفوا من أجل إحياء الزراعة وليس من أجل تسليم الأرض لمالكيها السابقين كان ذلك عملاً بارعاً للتغطية على جانب الضعف عند الملالي، إذ كانت

---

(١) ذكر السيد المؤلف أن الحسن بن علي بن أبي طالب، الابن الأكبر لعلي توفي يوم التاسع من محرم. إلاّ أن المصادر التاريخية تكاد تتفق على أن وفاته كانت في شهر ربيع الأول من سنة ٥٩ هجرية. ويذكر بأن وفاته كانت على أثر السمّ. ويبدوا أن المؤلف قد استقى معلوماته من الموروث من التراث الإيراني دون الاستناد إلى المصادر التاريخية، إذ أن ما يجري من شعائر دينية ومراسم يوم التاسع من محرم هو جزء من المراسم التي تقام في ذكرى عاشوراء **(المترجم)**.

الطائفة الشيعية مالكاً كبيراً للأراضي قبل الإصلاح الزراعي الذي قام به الشاه. ووصف خميني أخيراً شهر محرم وصفاً ينذر بالشؤم بأنه شهر الدم وأخذ الثأر.

كانت حالتي الذهنية في نهاية تشرين الثاني حالة تشاؤم لا ينحسر فكما توقعت، وكان ردّ فعل الشعب تجاه الحكومة العسكرية هو سحب التعاون التام عموماً - أي الإضرابات. ولم يتمكن الجيش من إعادة البلاد إلى حالتها الطبيعية ثانية. كانت القوات المسلحة متزعزعة وقد **أغرقت صيحة خميني (الموت للشاه)** ودعوته لقيام جمهورية إسلامية المطاليب السابقة بالعودة إلى العمل بالدستور. ولم يستطيع الجيش حتى المحافظة على النظام في الشوارع. وبدت لي المناورات السياسية للشاه ومستشاريه، والمعارضة المعتدلة، وفي الواقع الحكومة نفسها مسرحية دمى، منفصلة عن الحقائق القاسية للحركة الثورية.

وإذا كانت المسألة محاولة، لأي جانب يستطيع الاستمرار فترة أطول، كما قال لي شريف أمامي عما بدا لسنوات مضت، فإن كل الأدلة تشير إلى اتجاه واحد، وهو أن المعارضة ستكسب المعركة. وانتظرنا ما سيجلبه إلينا شهر محرم.

ما كان علينا أن ننتظر طويلاً. فقد أصدرت الحكومة تعليمات بمنع المواكب وأن تقتصر المراسم الدينية على الجوامع وأن يكون ثمة منع تجول بعد التاسعة مساءً من كل ليلة. بدأ شهر محرم رسمياً عند غروب اليوم الأول من كانون الأول. ذهبت أنا وزوجتي تلك الليلة إلى سباقات الخيل. وأن بدا ذلك غريباً. كان مضمار سباق الخيل، في طهران قد افتتح قريباً وكان من المؤسّسات القليلة التي لم يشملها الإضراب في المدينة. كان هنالك حشد جيد من الحضور يمثل شريحة من الجماهير وقد أمضينا يوماً سعيداً هناك. عدنا إلى السفارة عند الغسق عبر شوارع هادئة. انطلقت في الساعة التاسعة مساءً بالضبط تظاهرات هائلة في المدينة، خاصة في منطقة السوق وتحدّي الناس في الشوارع ومن فوق السطوح تعليمات الحكومة. وردّ الجيش بعنف، وكانت هنالك حتى حوالي منتصف الليل عاصفة من نيران الرشاشات والبنادق، حتى ان إطلاقات من مدافع الدبابات الثقيلة متداخلة مع صيحات (الله أكبر) المدوية التي كان الشعب طهران الثائر يطلقها. وقفنا في الظلام (حيث قطع عمال الكهرباء التيار الكهربائي ثانية) قرب باب السفارة، نستمع إلى تلك الموجات المذهلة من الأصوات. كان الجنود في المفرزة التي تحرسنا متوترين ووقع الضابط الشاب الذي هم بأمرته تحت نوبة غيبوية. وكانت دبابة تمرّ بين الحين والآخر على الطريق من أمامنا متجهة نحو السوق وأتذكر إني قلت لزوجتي بأن الجنرال كوردون كان سيقدر هذا المشهد في أيامه الأخيرة في الخرطوم.

أعترفت الإذاعة العسكرية الموجهة في التالي بمقتل سبعة أشخاص (كانت تزيد ذلك العدد باستمرار) مع إصابة أربعة وعشرين آخرين بجروح

وإلقاء القبض على مائة شخص. وبعد مقارنة الملاحظات مع زملائنا من الدبلوماسيين وآخرين غيرهم، قدرنا عدد القتلى بما يقرب من (٥٠٠) شخص ووزعت منشورات تذكر نفس العدد من (شهداء الأول من محرم) قبل انتهاء النهار. وكانت هنالك دعوة لإضراب عام لمدة يوم واحد: وأغلقت كل مرافق البلاد.

وأعاد ذلك النموذج نفسه ليلة بعد أخرى. فقد تجمّعت حشود كبيرة في الشوارع وفوق السطوح وهي تصيح (الله أكبر) وتتحدّى الجنود. وأطلق الجنود ملايين الإطلاقات من الذخيرة في الهواء غالباً. كان كل شيء هادئاً على العموم عند منتصف الليل رغم أني أتذكر بأنني أوقظت ذات ليلة منزعجاً جداً حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل على صوت مدوٍّ لمدفع دبابة قد أطلق يعلم الله على أي شيء ـ خارج مجمع السفارة مباشرة. وجابت الشوارع في النهار مجموعات من المتظاهرين المقاتلين لتخريب أية عودة إلى الحياة الطبيعية والاشتباك مع الجنود. وانفجرت في الثالث من كانون الأول عبوة كبيرة في إحدى محطات الشرطة الرئيسة ودمّرتها. وقد تداعت الثقة بالحكومة العسكرية خلال يومين أو ثلاثة كلياً تقريباً نتيجة التحدّي الشامل الناجح الذي قام به الشعب.

ولم يستطع الجنرال أزهري أن يفعل إلاّ القليل. لقد أغلق المدارس إلى ما بعد عاشوراء ودعا إلى الهدوء بصورة متكررة وألقى اللوم في وقوع التظاهرات على (أعداء البلد) وكان مدلول تلك العبارة بالشفرة السياسية حزب توده (الشيوعي) الذي أعلن قائده من موسكو في تشرين الثاني تأييده لحزب خميني وللجبهة الوطنية. لكن الاضطرابات استمرّت وأصبح وضع الإضراب أسوأ من السابق.

كان خميني قد تحدث لوسائل الاعلام في الثاني من كانون الأول. ودعا جميع الجنود في بيان صدر في باريس إلى مغادرة ثكناتهم وترك

خدمة القمعيين والاتحاد مع الشعب. وأشاد بالإضراب العام وأمر باستمرار الإضرابات من أجل شلّ الحكومة.

وقال أن أي سياسي قد خطط لتشكيل حكومة تحت سلطة الشاه الخائن يجب أن يرفض ويعبتر معادياً للإسلام.

اقترب موعد تاسوعاء (المصادف العاشر من كانون الأول) وموعد عاشوراء (المصادف الحادي عشر من كانون الأول). لقد خمدت في هذه الأثناء الصيحات والإطلاقات الليلية وكان من الممكن ربط بعض الثقة بخط الدعاية الحكومية بأنه خلال الأيام القلائل الأولى أقام أغلب الناس في بيوتهم وأن الضجيج الليلي للحشود، أي صيحات (ألله أكبر) ووابل الإطلاقات كانت في الواقع تسجيلات صوتية مضخمة تصدر من خلال مكبرات الصوت في الجوامع. قد يحدث أي شيء في إيران وبعد عدة تغييرات للرأي، كانت جميعها تشيع بسرعة عبر المدينة، قرّرت الحكومة رفع الحظر عن المواكب من أجل فسح المجال لمسيرات التاسوعاء وعاشوراء أن تأخذ مجراها، وقرّرت سحب الجنود من الشوارع إلى خط يقع إلى الشرق وإلى الغرب من شمال مسلك الموكب الرئيسي، من أجل التخفيف من حدة الهياج. كنت واثقاً، في هذه الظروف، من أن الجنرال أزهري كان مصيباً تماماً. لقد فسّر تنازله على أنه ضعف لكن البديل كان سيكون أما مجزرة رهيبة لم يسبق لها مثل، أو السقوط المباشر والنهائي للقوات المسلّحة.

كان الموكبان الكبيران يوم تاسوعاء وعاشوراء على التوالي يبعثان على الرعب من حيث الحجم والتنظيم ووحدة الهدف. تقع السفارة البريطانية في مكان مطلّ على شارع فردوسي وهو أحد مداخل الطرق المؤدية من جنوب طهران إلى الطريق الشرقي ـ الغربي الذي ينصف مركز المدينة وهو مسلك المواكب التي احتشدت في ساحة شاه ياد قرب المطار والتي تبعد حوالي خمسة أميال عن مركز طهران. كنت

أقف كل صباح من التاسعة حتى موعد الغذاء أمام نافذتي حيث تمرّ صفوف متراصة من الناس الذين يسيرون في شارع فردوسي في طريقهم للاشتراك في المواكب، كان الشارع عريضاً لكنه مليئاً بالناس من الرصيف إلى الرصيف ومن بدايته حتى نهايته على مد البصر لمدة ثلاث أو أربع ساعات وقد كان هذا الشارع مجرّد واحد من الطرق العديدة التي تغذي الموكب الرئيسي. إن التقدير الشائع لعدد المتظاهرين من مليون إلى مليون ونصف المليون شخص يومياً لا يمكن أن يكون مبالغاً فيه. كان لكل مجموعة لواؤها وشعاراتها وكانت شعارات (الموت للجزار الشاه) و(جمهورية إسلامية) و(خميني قائدنا) من أشهر الشعارات رغم أنه كانت هنالك بعض الرايات التي تحمل شعارات مناوئة للأمريكان وحتى أن هنالك راية أو رايتين تحمل شعارات ضد السوفييت. وقد سارت المنظّمات الراديكالية، المجاهدون والفدائيون، لأول مرة تحت ألويتها علناً. وكان أغلب المتظاهرين هم من الحرفيين والكسبة في السوق في طهران هم وعائلاتهم ولم يكن الحشد يتألف من أنصاف الجياع سكنة الأكواخ في المدن الفقيرة. لقد مرّ الحشد الذي يضمّ الألوف من الأشخاص الذين يمثلون العمود الفقري للمجتمع الحضري الإيراني التقليدي أمام أعيننا، بلباس جيد وحالة صحية جيدة، وكانت النسوة يسرن وهن يحملن الأطفال الصغار أو يمسكن أطفالهم من أيديهم. ولم يعر الناس أدنى اهتمام للدبلوماسيين البريطانيين الذين كانوا يتفرجون عليهم فيما عدا بعض التلويحات الودية الهادئة بين حين وآخر حيث لم يكن ثمة إمارة عداء باستثناء صيحة أثارت ضحكنا جميعاً أطلقها رجل واحد **(أيها السفير البريطاني، ارجع إلى بلدك)** كان ذلك مشهداً لن أنساه قط وقد ذكرني كيف أن السلطات كانت حكيمة بعدم منع المسيرات أو ما هو أسوأ من ذلك بتفريقها بالقوّة. كان أي من الإجرائين غير وارد. لم يكن هنالك جندي أو شرطي يمكن رؤيته في مكان ما. كانت الحشود منظّمة ومرتبة

بذكاء من قبل قادتها ـ وأدخلت حرس السفارة الذي يتألف من حوالي عشرة جنود إلى داخل المبنى. كانوا سعداء لسحبهم من المشهد العام وطلبوا شيئاً واحداً ـ جهاز مذياع ليتمكّنوا من الاستماع إلى البرنامج الفارسي من هيئة الإذاعة البريطانية ـ كان اتجاه المتظاهرين في اليوم التالي ـ عاشوراء ـ قتالياً أكثر من ذي قبل وكانت ثمة شائعات حول نشوب عنف خطير في الأقاليم.

ولما تفرقت الحشود في المساء، جابت مجاميع منها الشوارع وهي تصيح (**الموت للشاه**) وبدا أن الشغب الخطر وشيك الوقوع، لكنه لم يتحقق.

وقد علمنا بعد وقت قصير على كل حال أن قيادة السافاك في شيراز قد تمت مهاجمتها وأن الجنود الذين هم خارج الخدمة قد التحقوا بمظاهرات شيراز. وقد أسقط تمثال والد الشاه في العديد من المدن. وكان الأخطر من ذلك كله إطلاق النار على قيادة القوات الأمبراطورية الإيرانية البرية في طهران يوم الحادي عشر من كانون الأول. لقد اقتحم بعض الجنود مائدة مشتركة للضباط وأطلقوا النار من أسلحة آلية. وقتل سبعة ضباط من الحرس الأمبراطوري وجرح ما يقرب من خمسين ضابطاً. ووردت شائعات حول المزيد من الهروب من حامية مشهد وعن تخريب إحدى الطائرات من قبل فنيي القوّة الجوية في تبريز.

وقد أتحدت المعارضة بشكل لم يسبق له مثيل. وتلى أحد الملالي، في ذروة مواكب عاشوراء، بياناً يتضمن سبعة عشر بنداً نيابة عن جميع مجموعات وأحزاب المعارضة، التي ذكر كل منها بالاسم. وكانت البنود الرئيسة في البيان هي أن خميني هو القائد وأن أوامره يجب تطاع، ويجب إسقاط النظام، ويجب تأييد الإضربات ويجب أن يتحدّ الجيش مع الشعب. في حين تضمنت بقية البنود ما يشبه بياناً رسمياً مفصّلاً عن حكومة قادمة.

كانت النتائج المباشرة لمسيرات عاشوراء عنيفة. فقد عزّز ملالي طهران الذين قاموا بتنظيم تلك المسيرات بنجاح باهر، موقفهم مقارنة بالملالي المعتدلين في قم ومشهد. فقد ضمنت مجموعات المعارضة السياسية (كمقابل للمعارضة الدينية)، عن طريق تضامنها مع بيان السبعة عشر بنداً، بعض التأييد الجماهيري الذي كانت تفتقر إليه من قبل. والادهى من ذلك هو أن الحكومة العسكرية كانت لا تستطيع إبداء المزيد من التظاهر بأنها تسيطر على البلد. كان التحدّي لسلطتها ناجحاً جداً حيث يمكن أن يقال الآن أنه لو كانت هنالك حكومة البتة، فإنها تضم قوّة الجماهير التي يوجهها خميني من خلال شبكة البنية الدينية عبر إيران.

تدفق بشكل مفاجيء ما دعي بالتحشدات التلقائية المؤيدة للحكومة في الأقاليم يوم الثالث عشر من كانون الأول. فقد احتلت الشوارع في أصفهان ومشهد وأراك وفي أماكن أخرى أعداد وفيرة من القرويين الذين استقلّوا الباصات.، وكان الجنود يشاركونهم في ذلك. وقد كسرت نوافذ الحوانيت والدوائر التي تحمل ملصقات خميني وأجبر الناس على الهتاف (يحيا الشاه) تحت تهديد السلاح. ونظّمت المعارضة قواتها وتصادمت الموجتان من المتظاهرين تاركين خلفهما العديد من القتلى. كان الجنرال أزهري يتميّز غيظاً. وأخبرني بعد أيام قلائل بأن كل شيء جيد كان قد حقّقه وهو عدم تدخل القوات المسلحة خلال عاشوراء قد بددته هذه الصدامات. لقد تمّ تنظيم التظاهرات المؤيدة للشاه من قبل الحكّام المحليين وأصبح الموقف أسوأ من ذي قبل نتيجة لذلك. فقد استؤنف الإضراب العام وتولد عنف وهياج كبيران في مناطق كانت هادئة نسبياً قبل ذلك. لقد كسرت وحدة التسلسل العسكري في الأوامر وأصدر أزهري أوامر تقضي بأن أي آمر يقوم بمثل هذا التصرف الشخصي

بطريقة كهذه سوف يطرد ويمثل أمام محكمة عسكرية ـ وقد طرد الجنرال ناجي: آمر حامية أصفهان بعد أيام قلائل.

وواصل الشاه محاولاته اليائسة في قصر نياوران لتشكيل ائتلاف مدني أو حكومة محايدة لتعقب الحكومة العسكرية فيما لو سمح الوضع الأمني ووضع الإضراب بذلك. لقد كان لعدة أسابيع على اتصال دائم بصادقي، وهو وزير سابق في حكومة مصدق وهو الذي قام فيما بعد بالإتصالات بينه وبين الجبهة الوطنية. أخبرني الشاه يوم التاسع عشر من كانون الأول أن صادقي قد وافق على تشكيل الحكومة **وفق أربعة شروط**. يجب أن يكون هنالك التزام تام بدستور عام ١٩٠٦. وإذا نجح في تشكيل مجلس وزراء يجب أن يتمّ إقراره في المجلسين التشريعيين للبرلمان. ويجب أن تناط إدارة الشرطة والجندرمة بوزير الداخلية، ويجب أن يناط دور السافاك في الداخل بالشرطة ويترك السافاك مسؤولاً عن مواجهة الأخطار الخارجية التي تهدد إيران. وقد وافق الشاه على هذه الشروط. وأصرّ صادقي كذلك بإلغاء قانون الأحكام العرفية وإطلاق حرية الصحافة وأنه سوف يبحث عودة الطلبة إلى المدارس والجامعات بعد أن يصبح رئيساً للوزراء. وطلب من الشاه أخيراً أن يمهله مدة أسبوعين للقيام باستشارات حول البرنامج المذكور أعلاه.

وكان علي أميني، حسبما ذكر الشاه، يشير عليه بطريقة مختلفة. لقد خلص إلى أن الشاه يجب أن ينسحب إلى بندر عباس ذلك الميناء الإيراني الذي يقع في الطرف الجنوبي، من الخليج العربي، بعد أن يسلم السلطة إلى مجلس ملكي يقوم بوظائف الشاه باستثناء وظيفة القائد العام التي ستبقى في يد الشاه. بعد ذلك يتم تشكيل حكومة وطنية برئاسة أميني أن كان لا بدّ من ذلك. وقد قابل الشاه سنجابي مرة واحدة فقط على ما أعتقد. وقال سنجابي أنه لا يمكن أن يكون هنالك حلّ دون ضمان

الضوء الأخضر من خميني. أن من المستحيل ضمان ذلك دون تنازل الشاه عن العرش.

وقد اتفقت أنا والشاه على ان فرص صادقي في النجاح هزيلة على أقل تقدير وأن خطة أميني غير واردة. قلت له أن لا فرصة لصادقي ما لم يحصل على تأكيد بأن القادة الدينيين والكسبة في السوق على استعداد لقبول حكومته لدرجة أنهم سيطلبون من الشعب إعطاء فرصة للحكومة الجديدة وقد بدا هذا الاحتمال بعيداً عن الواقع. سوف يخوض خميني المعركة مباشرة لتدمير صادقي. وأعتقد أن الموقف سيفلت عن السيطرة تماماً خلال أيام قلائل بتحرير الصحافة وعودة الجنود إلى ثكناتهم. لقد أظهر الجيش شيئاً من التردد وأصبح مرهقاً. وظهرت الانقسامات بين الصقور والحمائم من ذوي الرتب العالية. وكنت أشك لو رفعت الأحكام العرفية وعاد الجنود إلى معسكراتهم، أن من الممكن إخراجهم ثانية لو تطلب الوضع الامني ذلك.

كان الشاه ميالاً للموافقة. كانت لديه شكوك كبيرة حول صادقي وكان ينزع إلى قبول رأي سنجابي الأكثر واقعية. سوف تقبل القوات المسلحة خطّة صادقي فيما لو أكد الشاه لهم أنها ستنجح. لكن آنى له أن يفعل ذلك؟ أما بخصوص فكرة أميني فسوف ينحلّ الجيش بإنسحاب الشاه إلى بندر عباس. ربما سيكون هنالك إنقلاب لمنعه من مغادرة طهران وسوف يصبح العوبة في المجلس السياسي، وسوف يكون هنالك انقلاب بعد مغادرته بالتأكيد. إن أفكاراً كهذه لا مجال للتفكير فيها.

ورغم أن الشاه قد بات دون أمال الآن عموماً في الوصول إلى حلّ مجدٍ للأزمة وناقش الخطط المطوّلة التي قدّمها مستشاروه ومحدّثوه بسخرية ظاهرة وبالكثير من الشكوك، إلّا أنه لم يبد علامة للإستسلام أو العجز البدني أو الفكري، بل على العكس من ذلك كان أسلوبه هادئاً وواقعياً، وواصل موقفه من أن الحلّ الوحيد، أن كان هنالك حلّ ما،

يكمن في الانتخابات الحرّة والتنفيذ الكامل لدستور عام ١٩٠٦ . لا يمكن إرجاع الزمن إلى الوراء وأن القبضة الحديدية غير عملية وليست مفضلة ـ (ربما يبقى الدكتاتور من خلال قتل شعبه، ولكن الملك لا يمكن أن يحكم بهذه الطريقة). لم أشك في إخلاصه وأعتقد أنه الآن ـ وقد جاء ذلك متأخراً للأسف ـ قريب من الأرضية المشتركة للقوى السياسية الديمقراطية المتفتحة في بلده. لكن الأزمة قد تحوّلت إلى معركة شاملة بين خميني والجماهير من جهة والشاه والقوات المسلحة من الجهة الأخرى. وأن صوت أولئك الذين يمكن أن يقبلوا بحلول وسطى قد ضاع في الجلبة. لقد كانت الجبهة الوطنية على أية حال تبدي مخاوفها من ازدواجية الشاه وكانت جميع حلوله بما فيها انسحابه الفعلي من المشهد على العكس تثير خشيتهم، إذ لو تعاونوا معه وعادت البلاد إلى حالتها الطبيعية، فإنه سوف يخونهم ويلجأ إلى طرائقه الاوتوقراطية ويلقيهم جيمعاً في السجن. وكانت المسألة ميؤساً منها.

وواصلت الاعتقاد من جانبي بأن الفرصة الوحيدة، وأن كانت غير محددة المعالم أو ربما غير موجودة هي أن يواصل الشاه البحث عن حلّ سياسي من خلال صادقي. ووافقت الشاه على انسحابه ربما يعجل في وقوع سلسلة من الإنقلابات العسكرية التي توهن القوات المسلّحة أو تفكيكها لكننا كنا نقترب من قعر البرميل فلو بقي الشاه وفشل صادقي، وهي الفرصة الأخيرة، فليس ثمة خيار سوى النتيجة الأسوأ ـ وهي استمرار حرب الانهاك الدامية التي تقود إلى الدمار الاقتصادي وإلى تركة من العنف والتطرّف تلازم إيران وتجعلها غير مستقرة وغير جديرة بالثقة لعدة سنوات.

كانت هنالك في منتصف الشهر نشاطات خارج مجموعة السياسيين الذين كانوا على اتصال مباشر بالشاه في حينه. لقد بعث بعض القادة الدينيين الحياة في فكرة مغادرة الشاه البلد وقتياً، حالاً يقوم مجلس

وصاية يضمّ ضباطاً عسكريين (من أجل استرضاء القوات المسلحة) وسياسيين من الجبهة الوطنية لتمهيد الطريق إلى الانتخابات. وقد ذهبت هذه المبادرة إلى ما وراء ذلك، حسب علمي، لتصبح مقترحاً يطرحه آية الله رفسنجاني وآية الله منتظري، وهما من رجال خميني المعروفين، على الإمام الخميني في باريس، وقد اقترح أيضاً أن نقوم أنا وزميلي الأمريكي بالتوسّط لدى الشاه لإنقاذ هذه الفكرة ولكن الفكرة أخفقت قبل تنفيذها من قبل الآيتين حيث تحرّر الرجلان من الوهم وصدما بسبب العنف المؤيد للشاه الذي قام به الحكّام العسكريون المحلّيون في الأقاليم ورفضا القيام بالرحلة. وهكذا انطفأت بارقة أمل أخرى.

وحصلت على أول تلميح يوم الثامن عشر من كانون الأول بأن شابور بختيار، وهو أحد قادة الجبهة الوطنية، والذي درس في فرنسا وعرف بمعارضته القديمة للشاه، كان يعتزم الحصول على رئاسة الوزراء. وقد تناولنا الغداء معاً ذلك اليوم في منزل صديق لنا وتحدثنا حديثاً بائساً حول الموقف. كان بختيار متشائماً وقال يجب أن يزال خميني وعلى الشاه أن يقدم ضمانات بخصوص الإدارة الجديدة في المستقبل قبل أن يقوم أي سياسي جاد بالتعاون من أجل تشكيل الحكومة. وقال يجب على الشاه أن ينسحب ليطلق يد الحكومة الجديدة والتي تحتاج ذلك من أجل إعادة النظام وإنعاش الاقتصاد. لكن كان بإمكانه أن يتوقع خطر انقسام الجيش أو سقوطه فيما لو غادر الشاه البلاد. ولم يعط بختيار إشارة واضحة إلى أنه سيقبل رئاسة الوزراء ولكنني أحسّست أن تلك الفكرة كانت تدور في ذهنه. وقلت له أن أي شخص يقبل المنصب لا بدّ وأن يكون رجلاً شجاعاً وأنني شخصياً أشك فيما لو كان من الممكن لرئيس الوزراء الجديد أن يحلّ الأزمة إذا لم يتمّ تعيينه من قبل الشاه رسمياً: أن مشاعر العداء للشاه قد ارتفعت كثيراً، وبدأت أشك في الأيام الأخيرة فيما لو كانت هنالك أية فرصة لنجاح صادقي. لقد كان حديثاً وديًّا ولكنه غير مقنع.

تعرض الجنرال أزهري في الحادي والعشرين من كانون الأول إلى نوبة قلبية. لقد أخفى هذه الحقيقة عن الشعب لأنه رجل شجاع ووطني، واستمرّ في إداء عمله وأقام في مكتبه في رئاسة الوزراء. ولكنه كان يائساً. لقد حطمت أخبار خطّة صادقي معنويات مجلس وزرائه الذين لم يكونوا على استعداد للاستمرار بمهماتهم المستحيلة بمجرد أن علموا بأن الشاه كان يخطط لاستبدالهم. وأعتقد أزهري أن معنويات القوات المسلّحة كانت على منزلق ذي انحدار شديد سيكون هنالك، فيما لو فشلت خطّة صادقي، المزيد من المحاولات السياسية والمزيد من التردي في معنويات العسكريين. لقد كان قرار الشاه مدمّراً لرغبة قادته. لم يكن لدى أزهري أدنى شك في أن لو فرض قانون الاحكام العرفية فسيصبح من المستحيل إعادة تطبيقه. ولم أملك إلاّ أن اتفق معه في هذا التحليل الذي لا تزويق فيه وقد بدأ مختلف الحكّام العسكريين بنقد الشاه علانية ومقارنة إدائه بصورة معادية بأداء أبيه. وبدا الضباط الكبار بإرسال عائلاتهم إلى أوروبا أو إلى الولايات المتحدة.

وكان لنا أنا وسوليفان، اجتماع آخر طويل بالشاه يوم الثاني والعشرين من كانون الأول. قال لنا بأن صادقي سوف يعرض حصيلة استشاراته يوم الخامس والعشرين من كانون الأول. فلو نجح في تشكيل حكومة وأفلت الموقف في الشوارع من السيطرة فسوف تتخذ إجراءات عسكرية صارمة. ولم يكن ثمة اختيار بين ذلك وبين الاستسلام المطلق. ولكن الشاه لا يمكن أن يورط نفسه بإجراء عسكري كهذا. وإن كان لا بدّ من ذلك، فسوف ينسحب إلى بندر عباس (لزيارة قوتي البحرية). هل أستطيع أن أجد أيما بديل عن هذا الإجراء؟. لا يمكن اختراقه أثناء عودتنا. كنا على بعض مئات من الياردات عن سفارتنا وحوالي مائتي ياردة غرب السفارة الأميركية وبعد أن جلسنا لفترة في السيارة حيث كانت زحمة غوغائية من المتظاهرين والمارة تجيش غلياناً في الشارع

تقف بيننا وبين وجهتنا، قررنا أنه من الأفضل أن نقطع المسافة المتبقية مشياً على الأقدام. أردت أن أخاطر وأنزل إلى الشارع بقبعتي الرسمية وسترتي الصباحية، لكني فكرت أن ذلك ربما يعتبر تصرفاً طائشاً في نظر الشباب المهتاجين الذين يقومون بإلقاء خطابات على الأرصفة من حولنا. ألقت زوجتي قبعتها الفاخرة على المقعد الخلفي للسيارة ولبست أنا السترة التي كان يرتديها الشرطي الذي يلبس ملابس مدنية. وهكذا قفلنا راجعين إلى بيتنا بملابس شبه رسمية. أتذكر أني شاهدت حشداً يحاول اقتحام السفارة الأمريكية أثناء مرورنا وشاهدت علب الغاز المسيل للدموع تطير نحو الحائط المقابل ولم يبد أحد أي سلوك عدواني تجاهنا وأتذكر أن شاباً كان يسير بمحاذاتنا، قال باللغة الإنكليزية (إن هذا مهمّ إلى حدّ رهيب) ووافقته على ذلك.

كان وداعنا مع الأمبراطورة حزيناً. كانت هادئة ولكنها متضايقة بشكل غريب. أتذكر وصفها لحرق طهران يوم الخامس من تشرين الثاني على انه (بعض تهريج قام به الشعب) والذي بدا وصفاً غير دقيق بالنسبة لنا نحن الذين قضينا ذلك اليوم في المركز التجاري من المدينة. كانت تشعر أن الغرب لا يستطيع فعل شيء لحلّ الأزمة من الناحية السياسية، واقترحت في الواقع أن التأييد العلني للشاه من قبل الحكومتين البريطانية والأمريكية ربما قد غدا الآن مدمّراً للنظام. وسألتها ونحن على وشك المغادرة وعلى أساس شخصي صرف، كيف أستطيع الاتّصال بهويدا في السجن. وقلت لها أني لا أستطيع مغادرة إيران دون أن أفعل ذلك. إني لا أستطيع مساعدته ولكن صداقتنا الطويلة تفرض عليَّ أن أودعه على الأقلّ وكنت أعلم أنه كان مقرباً إلى الأمبراطورة على الدوام وظهر عليها عدم الاهتمام واللامبالاة بمصير هويدا.

واستمرّت الأوقات العصيبة فقد قامت مجموعات من المشاغبين

باختيار القوات المسلّحة يومياً عن طريق حرق إطارات السيارات والفضلات في الشوارع في مناطق متباعدة جداً وكان هنالك المزيد من إطلاق النار. كانت الأقاليم تغلي بعدم الاستقرار وشرع الثوار بالقتال للسيطرة على بعض المدن الإقليمية الرئيسية. كان هنالك صدام مخيف بين الجيش والشعب في مشهد أجبر فيه الجنود على الإنسحاب إلى ثكناتهم بعد يوم من أعمال الشغب الذي قابله إطلاق نار كثيف قامت به الحامية هناك. واستمرّت الإضرابات وانخفض إنتاج النفط دون مستوى الحاجة المحلية بكثير. وتشكلت طوابير طويلة من الناس من أجل الحصول على البنزين والكيروسين في طهران. وكان الجنود يشرفون على تلك وكان أسلوبهم في المحافظة على النظام هو إطلاق عمليات من نيران الأسلحة الآلية في الهواء.

وأعدت ما كنت قد قلته سابقاً، أي أنه ليس لدى صادقي من فرصة إذا لم يكن القادة الدينيون قادة السوق على استعداد لدعوة الشعب إلى الهدوء ومنح الحكومة الجديدة فرصة، سوف يفلت الموقف عن السيطرة حالاً بدون ضمان كهذا. وسألت الشاه عما إذا كان الجيش قادراً وموافقاً في ظروف كهذه على اتخاذ إجراءات صارمة. أجاب الشاه أنه لا يعلم ذلك وسألني عن رأيي. أجبته أن شعوري الداخلي يفيد بأن الجيش ربما يتعرض للإنقسام، فربما سيقوم الجنود بواجبهم في مناطق معينة ويرفضون في مناطق أخرى. وستكون كارثة تجرّ إلى حرب أهلية.

واصل الشاه حديثه قائلاً لو فشل صادقي في تشكيل حكومة، فليس ثمة خيار سوى الاستمرار مع أزهري أو رئيس وزراء عسكري آخر إذا كانت صحة أزهري لا تسمح له بتولّي المسؤولية. لحين حلول نوروز (عيد رأس السنة الفارسية الذي يبدأ يوم الحادي والعشرين من آذار ويستمر لمدة ثلاثة عشر يوماً، وهي فترة من الاسترخاء لعموم البلد عادة) على أمل أن الإنهاك سيضعف المقاومة أكثر مما يضعف القوات المسلحة.

كان الشاه أكثر عزماً وتصميماً في أسلوبه مما كان في وقت مضى. كان يبدو أنه ليس في وضع من القدرة الفكرية ليعرض أياً من الأفكار بما فيها مغادرته البلاد التي نوقشت من قبل زمر المعارضة الحرّة. لكن الخيارات أصبحت ضعيفة جداً وغير مقنعة كما اتفقنا نحن الثلاثة على ذلك.

كانت هنالك عودة بارزة إلى الأسوأ يوم الثالث والعشرين من كانون الأول، فقد قتل بالرصاص مدير الحقل الأمريكي في شركة الخدمات النفطية وهو في طريقه إلى مكتبه، وقد عجل ذلك في رحيل الموظّفين الأجانب من حقول النفط. وأعيد فتح المدارس الثانوية في طهران ووقعت موجة من المظاهرات العنيفة وتعالت اصداء هتاف (الموت للشاه) في الشوارع وقد اختلطت بها اصوات إطلاق النار. وانتشر المشاغبون يوم الرابع والعشرين من كانون الأول ووقع هجوم على السفارة الأمريكية. ولم تتخذ جماعة الحماية العسكرية أيما أجراء وقد تمّ صد المهاجمين من قبل أفراد أمن السفارة من جنود البحرية الأمريكية، حيث أطلقوا عليهم الغاز المسيل للدموع، ولكن بعدما اقتحموا الباب الرئيسة وأحرقوا سيارة. وقد كنت أنا وزوجتي شهوداً على ذلك الهجوم مصادفة. كنت على وشك أن أغادر طهران وذلك لنقلي إلى منصب جديد هو نائب المدير العام الدائم لدائرة الخارجية والكومنويلث وقد أعددنا لزيارة الأمبراطورة زيارة الوداع يوم الرابع والعشرين من كانون الأول. كان علينا أن نرتدي اللباس الرسمي في ذلك الجوّ السريالي من الطبيعة الخادعة التي ما زالت تكتنف الحياة في طهران - ويتكوّن ذلك الزي من سترة صباحية لي ومن قبعة وقفازات طويلة لزوجتي. وقد تفادينا المتظاهرين بنجاح ونحن في طريقنا إلى القصر ولكننا أوقفنا بسبب زحام مروري.

وقررنا أنا وزوجتي أن نلغي سمة أخرى من سمات حياتنا الاعتيادية - وهي التزلج. لقد بات من الصعب الحصول على الوقود الكافي للسفرة

التي تستغرق ساعة للوصول إلى منتجع ديزين الرائع في جبال البرز شمالي طهران. لقد كانت آخر مرة تزلجنا فيها قبل عيد الميلاد أو بعده مباشرة، وكانت المنحدرات ملأى بشكل جيد بالمتزلجين الإيرانيين والأجانب. وكانت هنالك مجموعة فظّة من الملالي المحليين والقرويين في قعر مصعد التزلج يراقبهم فصيل من الجندرمة، وكانت ثمة شائعات عن عبوات ناسفة كانت قد وضعت في المصاعد وكانت تلك الفكرة منغصّة. وصعدت في الجندول للمرة الأخيرة مع مشرف تزلج إيراني كان درس في بريطانيا. ولم يتوسم أي منا أي أمل في المستقبل، وقال لي أن المنتجع كان مغلقاً، وقد أصبح خطراً جداً.

لكننا قضينا عيد ميلاد مقبول في السفارة، قد أغناه الجوّ الرومانسي الذي أضافته الشموع بسبب الانقطاعات اليومية للكهرباء نظراً لإضراب عمال الطاقة. وقد كان من الممكن شراء هدايا من الحوانيت التي كانت تفتح بين حين وآخر حيث أولى المتظاهرون عناية بحيث لا تكون هنالك شحة في المواد الغذائية في المدينة.

وقد أقامت الكنائس المسيحية في طهران أعياد ميلاد لم تنغصّ ولم تكن الحياة مزعجة جداً لم أتردد في جلب ابنتي البالغة من العمر اثني عشر عاماً من إنكلترا لقضاء عطلة عيد الميلاد في إيران.

أخبرني وزير الخارجية أن صادقي قد طلب ستة أسابيع أخرى للاستشارات في نهاية نهار سيء آخر من أعمال الشغب وإطلاق نار كثيف يوم الثامن والعشرين من كانون الأول. واتفقنا على أن هذا يقصيه عن المباراة. وحصلت على أنباء تفيد بأن مكائد قوية تتطوّر حول قصر نياوران. فقد عاد إلى طهران أردشير زاهدي، سفير إيران في واشنطن وكان ناشطاً على نحو مفرط ويفضل حكومة قوية وإجراءات عسكرية صارمة وأظهر للناس أنه يتصرف بناء على علم بريز زنسكي وتفويض منه، لقد كان زاهدي فعّالاً ومواليا لا يخجل وهو نجل الجنرال زاهدي الذي

أسقط مصدق عام ١٩٥٣ وهو نفسه شخص متمرّس في هذه الأحداث، ورجل متسلّطٌ وكان قد تزوّج من ابنة الشاه الكبرى وعمل سفيراً في لندن ووزيراً للخارجية قبل تعيينه سفيراً في واشنطن وكان لي إيمان في حماسته أكثر مما في حكمته.

وقدرت الموقف بأنه كان بالغ السوء أواخر العام. لقد كانت البلاد تتجه بسرعة نحو الفوضى. فقد أصبحت المدن الكبيرة والصغيرة والقرى في حالة اضطرات وتعذر وجود حكومة مؤثرة. وقد استمرّت الإضرابات بقوّة. وكان مهدي بازاركان الذي كان له شأن كبير بعدئذ، يحاول بتفويض من آيات قم ومن خميني أيضاً يزعم، التفاوض من أجل إعادة إنتاج النفط لتغطية الحاجة المحلية، وقد أفلت المتظاهرون عن سيطرة قيادة المعارضة الآن. وهوجمت المراكز الثقافية البريطانية في الأحواز وشيراز ومشهد وكذلك القنصليتان الأمريكية والتركية في تبريز، ودمرت جميعاً بشدة يوم الثلاثين من كانون الأول وفقد الجيش سيطرته على مدينة الأحواز مؤقتاً، كما فقد سيطرته في مشهد بصورة دائمة.

وكان شابور بختيار قد ظهر فجأة في هذه الظروف المشوّشة على أنه المرشح التالي لرئاسة الوزراء. لقد أدى هذا العمل إلى انشقاق الجبهة الوطنية إلاّ أن بختيار كان يملك العزم والثقة كما لاحظت ذلك من حديث له معي. قال لي أن الشاه قد وافق على مغادرة البلاد للاستجمام أو العلاج الطبّي، وأنه سيتم تعيين مجلس دولة وستناط أمرة الجيش بمجلس الوزراء. ولم أستطيع مشاركته التفاؤل ولا تفاؤل أولئك الذين يروّجون لقضيته. لقد رفضه قادة الجبهة الوطنية، وكنت أعتقد أن من السهل على خميني أن ينحيه جانباً لم أكن أتصوّر أن بختيار، رغم شجاعته وعزمه كان قادراً دون وجود تركيبة سياسية إعادة النظام وكسر الإضرابات حتى ولو انسحب الشاه بعد المصادقة على الحكومة الجديدة.

كان رأيي هو أن إنسحاب الشاه سيجلب التأثير المرغوب فيه فقط،

إذا أصبح ذلك الإنسحاب وسيلة لإشراك شريحة كبيرة من الشخصيات السياسية والدينية - وليس عضواً وحيداً مرفوضاً من الجبهة الوطنية - في الحصول على فرصة في تهدئة الشعب وإعادة تشكيل الماكنة الاقتصادية، على الرغم من أنه حتى هذا كان غير محتمل بصورة لا تصدق لكن ذلك على الأقل سيقلل من فرصة التحوّل إلى نظام جمهوري، في مثل هذه الظروف حتى في حالة الانسحاب الدائم للشاه لم أكن قادراً على تخيّل الطريقة التي سوف يحدث بها هذا الأمر. كنت أرى أن هنالك ثلاث خيارات للمستقبل، فيما عدا بختيار، وجميعها خطط يائسة فيما لو اعتبرنا ان خيار حكومة بالوكالة قد مات مع صادقي. إن بأمكان أزهري أن يستمرّ بحرب الاستنزاف فيما لو كان مؤهلاً صحياً. لكن أزمة النفط جعلت هذا مستحيلاً - إن شلل البلاد لا يمكن أن يستمرّ لثلاثة شهور أخرى من شتاء إيران القارص. ومن الممكن استبدال أزهري بقائد أقوى - كان هنالك حديث حول الجنرال جم، رئيس أركان الجيش السابق الذي يعيش في انكلترا حالياً ولكن تردده كان واضحاً وصادراً عن حكمة تجنّبه دخول الصراع لكني لم أكن أعتقد أن سياسة أكثر صرامة قد يتبنّاها رئيس وزراء عسكري ستجلب حتى إصلاحاً مؤقتاً، أو كبديل آخر من الممكن أن يتولّى السلطة بشكل تام مجلس عسكري يحكم باسم الشاه، بعد إنسحابه إلى بندر عباس مثلاً. وكان هذا في نظري أسوأ الخيارات الذي من المحتمل أن يجر إلى تفكك القوات المسلحة أو إلى حرب أهلية.

أعلن رسمياً في الحادي والعشرين من كانون الأول أن بختيار سيشكل حكومة وأن الشاه سيذهب إلى الخارج للراحة وتلقّي العلاج الطبّي وقد واصل زاهدي نفي أي حديث عن مغاردة الشاه، البلاد وكما علمت في وصيته، فإن زاهدي كان وما يزال يفضل سياسة عسكر ية.

أصبح الأمريكان نشطين وأن كان نشاطهم، حسب تقديري، يتمّ

بإبداء مشورات مختلفة. لقد كان الاعتقاد السائد الذي يغذيه زاهدي هو أن موظّفي البيت الأبيض بزعامة بريز زنسكي يؤيدون اضطلاع العسكريين بالحكم بكل ما يعني ذلك، في حين كانت السفارة وسوليفان يعتقدان بضرورة التركيز على حلّ سياسي وكانا على استعداد لتاييد بختيار. ووصل النزرال هايزر نائب قائد قوات حلف الناتو، إلى طهران في مهمة، كانت حسب تصوّري إقناع القيادة بعدم القيام بإنقلاب عسكري، بل تأييد بختيار بعد إنسحاب الشاه، ولم تكن لدي معلومات خاصة حول هذه المخططات، ومخططات أخرى مضادة لها التي تبعث على الدهشة وبإمكاني أن أتحدث من خلال ما كان يدور من لغط لكني أشرت على لندن على أننا يجب أن نبقي بمعزل عن هذه التيارات المتعارضة الخطرة والقاتلة. ولم تكن لدي أية مشورة بناءة لتقديمها إلى الشاه لأني كنت أعتقد أن أياً من هاتين المحاولتين اللتين تحت الدراسة - حكومة بختيار أو حكومة عسكرية صارمة - لا تمتلكان سوى فرصة ضئيلة في النجاح، واستنتجت بأن الإضرابات التي تقتل البلد وتحول دون أية عودة إلى الحالة الطبيعية بقوّة لها دلالاتها الواضحة على أنها سوف لن تنتهي طالما بقي الشاه في إيران. وكان مجمل اعتيادي هو أن ما يواجهنا هو أزمة إيرانية خاصة وأن الأمل الوحيد هو أن يقوم الإيرانيون بحلّها بأنفسهم، مهما كانت النتيجة. وأعتقدت أن التطفّل الأمريكي أو البريطاني سوف لا يجلب إلا الضرر. أننا والأمريكان لسنا في موقع يؤهلنا لمعرفة نتائج أي إجراء قد يتخذ، قد نقطع بتفضيل حلّ على غيره إلّا أننا لن نجني إلاّ اللوم إذا سارت الأمور عكس ما نشتهي. لذلك أوصيت بأن لا أواصل محادثاتي مع الشاه إذا لم يرسل في طلبي إلى القصر فعلاً، لأنني إذا ما قابلته، فإن عليّ أن أحدثه وفق تحليلي المتشائم جداً، وهذا سوف يزيد من شكوك الشاه وارتيابه في المؤامرة البريطانية فقط ولا يقدّم شيئاً حسناً. ووافقت لندن على ذلك واحتفظت في الأسبوع التالي باتصال دائم ببقية مصادر

معلوماتي الخاصة المؤثرة، بما فيها بختيار، لكنني ابتعدت عن قصر نياوران.

أخذ الموكب المتجهم يتجه نحو الكارثة. فقد انفجرت المدن الجنوبية الغربية، ديزفول وأندمشك في الأول من كانون الثاني وأجبر الجيش على الإنسحاب. ولم يحقّق بازراكان أي نجاح في إقناع عمّال النفط بزيادة الإنتاج واستطاعت الطوابير من الناس الحصول على الكيروسين، وهو الوقود الرئيسي للطبخ والتدفئة. (ومن الغريب أن عدم الانتظام الإيراني المعتاد قد اختفى من هذه الطوابير لتحلّ محلّه انضباطية عالية، وروح تمدنية، وبعد فترة ولما أنهك الوضع لدرجة أصبح فيها الحصول إلى رأس الطابور يستغرق يوماً كاملاً تمّ تبنّي طريقة عمل جديدة وهي ربط مئات الحاويات البلاستيكية مع بعضها بحبل، ويقوم عامل المضخّة بملئ واحدة وسحب الحبل لتقديم التالية. وهكذا كان باستطاعة أصحاب الحاويات الذهاب ثم العودة عندما يقدرون أن حاوياتهم ستكون قرب المضخّة. ولم يكن هناك تجاوز للدور وكان هنالك القليل من مظاهر فقدان النظام أو عدم وجوده وكان ذلك مظهراً فريداً). واستقال الجنرال أزهري حوالي تلك الأثناء بصورة رسمية تاركاً البلاد دون حكومة حتى بالاسم. وواصل زاهدي نفي مسألة الشاه سيغادر، رغم الشائعات المتجمّعة عن ذلك.

وبدأت حملة ضد السافاك ودمّر مقر السافاك في شيراز وقتلت الزمرة المهاجمة بعض الضباط، وأحرقت بيوت الأجانب في الجنوب وتفجّرت مدن قزوين وتبريز ووقعت خسائر فادحة. وغادر الجنرال أوليسي إلى الولايات المتحدة في الرابع من كانون الثاني ليحلّ محله الجنرال ناجي، وعيّن الجنرال قره باغي، الذي كان يعمل زميل الشاه في الكلية العسكرية وعمل وزيراً للداخلية في حكومة أزهري، رئيساً للأركان. وغادر الجنرال أزهري البلد يوم الثامن من كانون الثاني

لحاجته الماسة للعلاج الطبّي. لقد وضع هو وزملاءه على غير علم منهم يداً بغيضة عندما اضطروا الشاه في يوم الحادي عشر من كانون الثاني. من إلغاء قانون الأحكام العرفية. واختفت الشرطة حتى عن طهران وتمت إدارة المرور بكفاءة عالية من قبل شباب من المدنيين. وتمّ توزيع الوقود والغذاء للفقراء من قبل الجوامع وليس من قبل السلطات. وكان المتظاهرون يتوددون بحماسة إلى الجنود، وبات احتمال اتخاذ إجراء صارم ومنسق ضدهم يبدو ضعيفاً وباختصار لقد كنت أشهد وضعاً ثورياً من الطراز التقليدي كان الملك في طريقه إلى فقدان العرش، وكان الجيش غير مركّز. ولم تستطيع الحكومة المعينة كسب احترام الشعب لأنها شكلت بإرادة ملكية. كان سواد الشعب متحمّساً لكن المتطرفون أندسوا في الأجنحة لتوجيه الجماهير نحو أهدافهم الخاصة.

زرت الشاه لأودعه يوم الثامن من كانون الثاني. ووجدته هادئاً ويتكلّم عن الأحداث بتجرّد كما لو كانت لا تمت له بصلة. كانت تلك الزيارة تجربة نفسية عميقة لي. كنت قد عرفت الشاه جيداً خلال السنوات الخمس الماضية وأصبحنا قريبين من بعضنا من خلال المناقشات الطويلة العديدة التي جرت بيننا طيلة الشهور الأربعة من عذاب الأخير. وبدأت الحديث قائلاً أنني لم يدر في خلدي يوماً ما أن آتي يوماً لوداعه في مثل هذه الظروف المأساوية مطلقاً، وأنني أجد من الصعوبة أن أتكلّم. واقترحت عليه أن نفترق دون المزيد من عبارات الحزن أو الحديث: إنني أرى أن جلسة طويلة أخرى لا تحمل. وابتسم الشاه ووضع ذراعه على يدي عندما كنت أجفف الدموع من عيني قائلاً (لا تهتم أنا أعلم كيف تشعر. ولكن يجب أن يكون لنا حديث آخر). قال لي أنه ما زال يتلقّى ثلاث مجموعات متضاربة من المشورات. كانت بعض الناس يقولون له أنه يجب أن يبقى (ويحسمها بالقوّة). وكان آخرون يقولون له أنه يجب أن ينسحب إلى بندر عباس ويترك الجيش يقوم بالمهمة في غيابه.

في حين كان آخرون يشيرون عليه بأن يغادر البلد. فمهما قلت فأنه سوف يفسّره على أنه مؤامرة بريطانية الإتيان بحكومة عسكرية يوم الخامس من تشرين الثاني، لقد بذل أزهري قصارى جهده وذهب الآن مقتفياً أثر شريف أمامي إلى الظلام.

وقدم بختيار أسماء حكومته إلى الشاه يوم السادس من كانون الثاني. وألقى الأخير كلمة موجزة ليروح إلى أنه قد تعب من تحمّل المسؤولية ويحتاج إلى الراحة. وربما يكون ذلك خارج إيران.

كنت أعد في تلك الأثناء لمغادرة طهران. واتفقت مع لندن على أن أعود حالما تنتفي الحاجة لوجودي. سأقيم لحين مغادرة الشاه فيما لو كان قد قرّر فعلاً أن يغادر بسرعة وبعد أن أقتنع بأن معظم الجالية البريطانية قد غادرت وأن ليس هنالك أحد تعوقه الإجراءات العملية مثل إجراءات إدارة المطار لترحيل الرعايا البريطانيين، والتي كان لي تأثير شخصي فيها. وقررنا يوم الحادي والعشرين من كانون الثاني موعداً لمغادرتي، عقب مسيرة كبيرة كانت ستقام يوم التاسع عشر من كانون الثاني وهو اليوم الأربعين بعد عاشوراء.

ولم يتغير تقديري للموقف منذ السادس من كانون الثاني وحتى السادس عشر منه. لقد كانت البيانات السياسية لبختيار رغم أن محتواها يدعوا إلى الإعجاب، قد أهملت ولم تظهر أية علامة على أنه قد حصل على دعم سياسي. لقد خرب تأجيل موعد مغاردة الشاه أية فرصة ذات أثر ربما يستطيع بختيار الحصول عليها لكسب ثقة الشعب. كان سبب هذا التأخير عاملين كما أعتقدت ـ أولاً إصرار زاهدي والقادة أصحاب الحظ العاثر على أن لا يغادر الشاه، وثانياً بسبب رأي الشاه وبختيار المتقيد حرفياً بالقانون على نحو سخيف مع الأوضاع وهو أن الشاه يجب أن يبقى لحين إقرار حكومة بختيار من قبل مجلس البرلمان. كما لو كان الشارع الإيراني

يبدي اهتمام بأعمال البرلمان. لقد فقد العسكريون السيطرة على الأقاليم، وأن كان ذلك قد كلف الكثير من أرواح المدنيين، وكانت (سلطة الشعب) تنشط لتحلّ محلهم. وليس عندي ما يريحه لأمنحه له. ولكن الشاه أصرّ فقلت له أني سأجيب إذا أعطيتني عهد شرف وأن تقبل ما أقوله بأنه رأيي الشخصي، وعلى أنه شخص يتمنّى له ولبلده خيراً، **وأنني لا أتحدث وفق أي توجيه من لندن. وقبل الشاه هذه الشروط.**

قلت له أنني رأيته في موقف يطلق عليه الأمريكان (موقف خاسر)، فإن بختيار كان يذوب كالثلج في الماء في كل يوم بقي الشاه فيه في البلاد. ولكنه إذا غادر فإنني لا أرى إلاّ أملاً ضعيفاً أو لا أمل على الاطلاق في عودته. وأنا لا أومن بقدرة بختيار على استعادة الوضع. أما بخصوص الخيارات الأخرى فهو يعلم ما كنت أشعر به تجاه الإجراءات العسكرية الصارمة. لم أكن أعتقد أن إجراء كهذا ممكن وعلى كل حال، فإن الإضرابات هي التي جعلت النظام يجثو على ركبته. هل بإمكان الجيش أن (يتخذ الإجراءات الصارمة) على كل بيت ويلزم ساكنيه بالعودة إلى العمل؟ أما فكرة بندر عباس فقد أسقطتها كلياً. فإذا كان الثوار قادرين على إجباره على الإنسحاب إلى ذلك البعد، ألا يضاعفون جهدهم لإجباره إلى الإنسحاب كلياً؟

نظر الشاه إلى ساعته بحركة غريبة وقال (إذا كان الأمر يخصني أنا فسأغادر البلاد خلال عشر دقائق) وأضاف قائلاً أنه ليس بإمكانه أن يغادر قبل المصادقة على حكومة بختيار من قبل البرلمان. فلو غادر قبل اكتمال تلك العملية، ربما سينهار البرلمان ولن يكون هنالك نصاب. قلت له أن إيران وسط ثورة عنيفة. لا أحد يبالي بالبرلمان ووسائله. لقد نحيت جميعها جانباً. وهوى الشاه رأسه وبعد ذلك ناقشنا أين سيذهب عندما يغادر البلاد. لم يبد أنه قد استقرّ على رأي في ذلك، وقال لي ما مفاده أنه ربما سيذهب إلى (إحدى الدول العربية) لم يذكر مصر لكنه قال أنه لا

ـستطيع المجيء إلى بريطانيا. ستكون المشكلة الأمنية حادة جداً بسبب وجود عشرات الألوف من الطلبة الإيرانيين في البلاد.

ثم عرجنا على الماضي. سألني الشاه لماذا انقلب الناس ضدي بعد كل ما فعلته لهم؟ قلت له لقد ناقشنا هذه المسألة سابقاً. لقد اعتقدت أن السبب الرئيس لذلك هو أنه حاول أن يغيّر شعب إيران إلى شيء ما ليس هو به، وقد ثار الشعب أخيراً تحت قيادة سلطته التقليدية: الطبقات الدينية، إن من المدهش أن نفس القوى التي قهرت ناصر الدين شاه عام ١٩٨٢ عندما منح امتياز التبغ إلى شركة أجنبية وانتصرت على مظفر الدين شاه عام ١٩٠٦ حول الدستور قد اتحدت للإطاحة بمحمد رضا شاه ـ وهي الملالي والكسبة في السوق وأهل الغجر. أنني لم أعجب بالشعب الإيراني مثلما فعلت في الشهور القليلة الماضية فقط. لقد كانت شجاعته وانتظامه ورصد جهوده كلها لإسقاط النظام الملكي، أمراً يبعث على الدهشة كنت أتمنى لو أن هذا الشعب قد وضع هذه الإمكانات في سعيه وراء الحضارة العظيمة. ووافقني الشاه حول إنجازات شعبه لكنه رفض مقارنتي إياه بأسلافه القاجاريين، (لقد فعلت لإيران أكثر من أي شاه طوال ألفي عام: لا يمكنك أن تقارنني بأولئك الناس) وأوصلني إلى الباب بتودده المعتادُ وتمنيت له حظاً سعيداً مهما حدث. وابتسم لي ولم يقل شيئاً. **ولم أراه ثانية على الإطلاق.**

تم التصديق على حكومة بختيار وبرنامجه من قبل البرلمان يوم السادس عشر من كانون الثاني وغادر الشاه برفقه الأمبراطورة من مطار مهر أباد إلى مصر في نفس اليوم. وأعلنت الإذاعة في الساعة الثانية بعد الظهر بالتوقيت المحلي نبأ مغادرة الشاه. كنت أنا وزوجتي والموظّفين وعائلاتهم في مجمع السفارة. وانفجرت المدينة كلها فجأة بنوبة من الفرح والارتياح. لقد كانت هنالك سيل من أصوات أبواق السيارات، ووميض الأضواء العالية والصياح والرقص في الشوارع، والتآخي مع

الجنود. وتوزيع الصحف بعناوينها البارزة معلنة (لقد ذهب الشاه)، وتمّ إسقاط تماثيل الشاه وأبيه. كانت هذه بعض الأمور التي أتذكرها من عصر ومساء يوم الابتهاج الذي تميّز بالإنطلاق التام الذي لم يبد مبرراً. كان يوماً لا ينسى ولم تشبه علامات المشاكسة وقفنا على أبواب السفارة وقامت مجموعات المارة المتحمّسين بالتلويح لنا واعطائنا الصحف.. «وقد سلم حرس السفارة العسكريون الابتسامات» بعد أن أصبحت عجلتهم المدرعة منبراً للمتحدثين وزيّنت بنادقهم بالورود. ولم أر أي شيء مثل ذلك مطلقاً من قبل.

لكن هذا الانطلاق السعيد للعواطف لم يكسر حدة التوتر فقد استيقظنا يوم السابع عشر من كانون الثاني لنجد أن الإضرابات ما زالت مستمرّة، والحوانيت مغلقة والتظاهرات تملئ الشوارع. واستقال وزير أو اثنان من حكومة بختيار وأخذ مجلس الوصاية يتنحى جانباً. وبدا نواب البرلمان والشيوخ بالتقاطر على بيوتهم وسمعنا أخباراً عصر ذلك اليوم تقول أن نصف كتيبة من الجنود قد تمرّدت في الأحواز. كانت بمعيتهم دبابات تشيفتن وقد طافوا في شوارع المدينة مهتاجين وهم يطلقون النار على غير هدى ويهتفون (يحيا الشاه) و(يجب أن يعود الشاه) وكانت خسائر المدنيين فادحة.

جرت مسيرة الأربعين في طهران يوم التاسع عشر من كانون الثاني. وكما كانت الحال يوم عاشوراء وتاسوعاء شارك ما يربو على مليون شخص في المواكب المنظّمة والمنضبطة إلى نصب شاه ياد قرب المطار، الذي أصبح الآن منبر خطابة الثورة. لم تقم القوات المسلّحة بأية محاولة للتدخل. وأصرّ قادة المعارضة، بما فيهم آية الله طالقاني وسنجابي، بياناً من عشرة بنود عند النصب. لقد أعلن هذا البيان أن النظام البهلوي كان وسيظلّ غير شرعي، وأن الشاه قد أسقط عن العرش ويجب انتشار جمهورية إسلامية، وكانت الدعوة وقد وجهت إلى خميني لتقديم مجلس

ثوري إسلامي وحكومة انتقالية بأسرع ما يمكن. ويجب عدم الاعتراف بحكومة بختيار لأنها تمّ تعيينها من قبل ملك غير شرعي، وتمت المصادقة عليها بتصويت من قبل البرلمان غير شرعي ودعي الجيش إلى عدم الانفصال عن الأمّة وعلى أن لا يسمح لنفسه أن يصبح أداة تهديد وقمع، ويجب أن تستمرّ الإضرابات والتظاهرات حتى تحقيق الأهداف النهائية للثورة.

أرسلت تقويمي الأخير للموقف إلى لندن يوم العشرين من كانون الثاني. لقد حكمت على أن حكومة بختيار ما تزال بحاجة إلى الحصول على تأييد شعبي وعلى أنها ما زالت غير قادرة على الحكم: كان تأثير خميني كبيراً. ليست ثمة علامة على أن الخط الثوري قد يهدأ وأن يتوقف، النشاط الاقتصادي ما زال قائماً. ومن المحتمل أن خميني سيعلن عن مجلس ثوري إسلامي وعن حكومة انتقالية وأن عودته سوف تزيح بختيار عن الحكم. وأن الموقف المضحك سيصل في يوم ما إلى أن تكون هنالك حكومتان في طهران وسيسمح لوزراء خميني الدخول إلى مكاتبهم من قبل (اللجان الثورة) في كل وزارة في حين يمنع وزراء بختيار.

وعلى الرغم من أن الحشود الكبيرة في طهران أصبحت ودودة بشكل معقول منذ أن غادر الشاه، وذلك أمر مشجع بعض الشيء، إلاّ أن ذلك لم يساعد بختيار الذي أهمل حيث تعالت الصيحات (الموت للشاه) و(خميني قائدنا) لم يعد هنالك فيما أراده سواد الشعب. وهو خميني والجمهورية الإسلامية. ولم أستطع أن أرى كيف يتمكن بخيتار والقوات المسلّحة من الوقوف بوجه هذا المد ومن الصعب تخيّل كيف يمكن أن يتمّ الانتقال إلى الوضع الجديد دون إراقة دماء أو تخريب. إن مفتاح المسألة يكمن في حوزة القوات المسلّحة لقد قبل القادة إنسحاب الشاه بشرط تنفيذ دستور عام ١٩٠٦ بما في ذلك النظام الملكي وهكذا احتفظ بالشاه رئيساً للدولة

وقائداً عاماً للقوات المسلحة فإذا كان هنالك انتقال إلى الجمهورية الإسلامية فلربما اعترض الجيش - لقد قامت وحدتان مدرعتان (في الأحواز وبعدها في ديزفول) بمخالفة الأوامر ومهاجمة الشعب بضراوة. ربما سيكون هنالك انزلاق نحو حرب أهلية.

واستنتجت أن لا مفرّ من الجمهورية وأن الطريقة الوحيدة لإخماد الأزمة دون عنف هي اتحاد خميني والقادة العسكريين وقيام القادة العسكريين بنقل ولائهم:

لقد فازت الثورة وهذا يتيح فرصة لإنقاذ البلاد. ولم تعد هنالك في تلك الأثناء حكومة تتولّى المسؤولية في المدن التي أخضعت إلى سلطة الشعب تحت القيادة الدينية. وكانت هنالك أولى علائم القوى المطاردة التي عادت إلى العمل. وسمعت صيحة (عربستان) في الأقاليم النفطي الجنوبي من خوزستان الذي يشكّل فيه العرب أغلبية عرقية وقيل أن رؤوساء القبائل التركمان قد استعادوا ملكية أراضيهم في الشمال الشرقي وهي التي فقدوها نتيجة إصلاح الأراضي الذي قام به الشاه. وعاد ناصر خان قاشقاي الذي أبعد عام ١٩٦٣ بعد أن قمع الجيش انتفاضة قبيلة قاشقاي الكبيرة، إلى منطقته القبلية. وجدت قبالة هذه الخلفية ثقة بختيار العازمة وإيمانه الظاهر بأن الشعب كان يستجيب إلى برنامج حكومته يبعث على الإعجاب لكنه مناف لما هو واقعي. كانت المعارضة ذات السمة الغربية بعيدة عن واقعيات الثورة بعد الشاه عنها. كنت أرى أن ذلك شيء قد انتهى وفازت الثورة، وأن رجلاً وحيداً ربما يكون قادراً على جلب انتقال سلمي إلى جمهورية إسلامية... وهذا الرجل هو مهدي بازاركان الذي تفاوض دون جدوى مع عمّال النفط المضربين. لقد كان مسنًّا، يبلغ حوالي الخامسة والسبعين من العمر، ولكنه واحد من القادة الأذكياء القلائل، وقد تثقف في أوروبا وهو الذي حاز على ثقة أهل السوق والقادة الدينيين بمن فيهم خميني. لقد كان

مناصراً مخلصاً لمصدق وقد سجنه الشاه لقيادته الحازمة للجبهة الوطنية أوائل الستينات.

انتقلت أنا وزوجتي يوم الحادي والعشرين من كانون الثاني عبر الشوارع الخاوية المهجورة، أمام الجدران المغطاة بالملصقات والإعلانات المكتوبة وأمام الحوانيت والمكاتب الحكومية المهجورة والمغلقة وأمام القواعد التي كان يقوم عليها تمثال الشاه وأبيه إلى المطار لأغادر طهران بصورة نهائية. لقد كان رئيس دائرة التشريفات الجديد في وزارة الخارجية حاضراً في قاعة الشرف لتوديعي، وتلك كانت آخر بادرة ود. قلنا وداعاً للموظفين المصطفين من موظّفي السفارة وعائلاتهم والذين عانينا معهم سوية الكثير وغادرنا.

وبعد أيام قلائل كنت في مكتبي في دائرة الخارجية، ما زلت منشغلاً بالشؤون الإيرانية إضافة إلى مسؤولياتي العديدة الأخرى. لكن قصتي الانطباعية تنتهي هنا. لقد استمرّ اهتمامي بإيران خلال الشهور التي قضيناها في لندن وخلال الأعوام الثلاثة التالية عندما كنت سفير بريطانيا إلى الأمم المتحدة في نيويورك، وواجهت أزمة الرهائن الأمريكان والحرب بين إيران والعراق. لكن إنشغالي الشخصي العميق انتهى لدى مغادرة الشاه ومغادرتي أنا طهران، وقد كنت مجرد متفرج، مهتم عن قرب، على الأيام الأخيرة من الثورة. **وكما علم العالم كله، عاد خميني منتصراً إلى طهران يوم السادس والعشرين من كانون الثاني**. وكانت هنالك حكومتان في البلد لما يقرب من أسبوعين: حكومة بختيار وحكومة خميني المؤقتة بزعامة مهدي بازركان. وقد استمرّت المعارضة في هجومها للأيام من ١١ ـ ١٣ شباط وانهارت القوات المسلّحة في فوضى صحبتها إراقة الدماء التي أودت بحياة أحد أصدقائي القدامى وأقربهم لي، وهو جواليكس موريس من لوس أنجلوس تايمز. الذي ذهب ضحية لرصاصة طائشة في الصدام العنيف الذي وقع في القاعدة الجوية الإيرانية في

دوشان تبه في الضواحي الجنوبية الشرقية من طهران. لقد انتهى كل شيء بالفعل في هذا الوقت.

لقد حان الوقت الآن لأحاول الإجابة على الأسئلة التي طرحتها في مقدمة هذا الكتاب بإختصار: هل كان بإمكاننا أن نكون أكثر إدراكاً في السنوات التي سبقت الثورة؟ ولو كنا كذلك، هل كنا سنتبنّى سياسيات مغايرة وملائمة حتى النهاية؟ وأخيراً لو فعلنا ذلك، هل كان ذلك سيجلب أي تغيير للمصالح البريطانية أو في الواقع يؤثر في تطوّر الأحداث في طهران؟



الفصل السابع

مراجعة

لقد عشنا التجربة، لكننا لم نستنبط العبرة والطريق إلى استنباط
العبرة يعيد التجربة على نحو مختلف. . .

ت. س اليوت: المنقذات الجافة

كانت الثورة الإيرانية حدثاً لا يقلّ أهمية عن الثورتين الفرنسية والروسية. إذ لم تكن تغيراً نمطياً لنظام حكم في بلد من بلدان العالم الثالث، مثل استبدال الجنرال زيد بالملك عمرو نتيجة انقلاب عسكري - وهي الطريقة التي تحلّ في العادة صندوق الانتخابات في العديد من الدول - أو بسقوط مستبدّ تاركاً طبيعة الدولة من بعده كما هي. لقد نتج عن الثورة الإيرانية إنهيار كامل لاوتوقراطية كانت تبدو قوية ومركزية وانشأت تستند إلى جيش موحّد وموال، وانبثقت عن ذلك دولة تكاد تختلف اختلافاً في كافة النواحي عن سابقتها من الناحية الفعلية.

وليس من الممكن إطلاقاً الزعم بأن تحوّلاً تاريخياً مضاد قد بدأ في تاريخ معيّن أو بحدث معيّن ، ولكن من المناسب أن اختيار حادثة قم، يوم التاسع من كانون الثاني ١٩٧٨ على أنها بداية إنطلاق الثورة التي بلغت أوجها يوم الحادي عشر من شباط عام ١٩٧٩ بسقوط حكومة بختيار وزوال آخر بقايا الحكم البهلوي. وبهذا تكون الثورة الإيرانية قد استمرّت فترة تزيد على ثلاثة عشر شهراً منذ انطلاقها حتى اكتمالها.

لكن ليس من المجدي الإدعاء بأن بذور التغيير لم تكن قد نبتت منذ شهور، أن لم تكن قبل أعوام من قيام حامية قم بإطلاق الرصاص الذي نتج عنه مقتل المدنيين الذي أدّى بدوره إلى المزيد من الشغب. تبعه المزيد من القتل. وقاد في نهاية المطاف إلى حلقة التدمير والتمرّد المدني أطاحت أخيراً بالشاه الجبّار وبالأسس المتينة التي شيدها هو وأبوه طيلة أكثير من (٦٠) عاماً. لمذا فشّل النظام نفسه؟ والمراقبون الأجانب كالدبلوماسيين والأكاديميين الغربيين، والصحافة، وحتى معارضي نظام الشاه أنفسهم في الإحساس بالبنية الهائلة التي سوف تطلعها تربة إيران خلال أعوام سبقت تاريخ حادثة قم، حتى أواخر صيف عام ١٩٧٨ وأوائل الخريف بالتحديد ولماذا فشلت أنا رغم كل تجربتي في المنطقة، في رؤية ما كان يبدو أمام عيني وشيك الوقوع؟

أعتقد أن الإجابة على هذا السؤال، فيما يخصّ النظام بسيطة. لقد أصبح الشاه في السبعينات من هذا القرن مفرط الثقة بنفسه وكان أسلوبه في الحكم ينعكس في التسلسل الهرمي للسلطة في مؤسسة الحكم الإيرانية. لقد خلت إيران بصورة ملفتة للنظر، منذ بداية الستينات مما عانت منه أغلب البلدان النامية والمتطوّرة من متاعب تلك الفترة. كانت هنالك بعض الإضطرابات في المجمعات الجامعية وكان هناك بعض أعمال الإرهاب المتقطعة لكن الشعب بدا بمجمله طيعاً أو مذعناً في الأقل لسياسات الشاه. لقد احتكر الشاه سياسة إيران الداخلية يتصرف بها بإرادته وحده، مجرباً في ذلك أنظمة مختلفة دون أن يواجه ردود فعل عدائية صريحة من شعبه. لقد أجهز على سلطة القادة القبليين وملاك الأراضي وتخلّص منها دون أن تترتب على ذلك أية عواقب وبدد شمل الحزب الشيوعي والجبهة الوطنية دون عواقب تذكر أيضاً. ووضع القوات المسلّحة في قالب من صنعه: يكون نموذجاً قوياً وموالياً له، وخلق طبقة

جديدة من المقاولين، وطبقة وسطى جديدة من العمّال الصناعيين وحرر الزراعة في الريف، وكان على وشك أن يجلب الرخاء والتقدّم للبلد بشكل عام. أي شيء كان يخشاه من الطلبة الساخطين والملالي المتزمتين أو من تجّار السوق الحاسدين؟ إذا كان قد اختار أن يقوم بإطلاق الحرّيات أواخر عام ١٩٧٦، فماذا تهمه مسائل مثل تلكؤ الاقتصاد أو خيبة آمال الناس؟ وإذا ظهرت مشكلات قادر على معالجتها وإذا تفاقمت إلى حد يقلق راحته فإنه يستطيع أن يعود إلى صرامته مرة أخرى دون أدنى صعوبة. لقد كان السافاك متوجداً في كل مكان وفي كل وقت، وكان حسن الإطلاع وكان له مصادره الاستخبارية الخاصة، وكانت الشرطة والجندرمة تمثل خط الدفاع الثاني، إذا ازداد تفاقم الأمور سوء فالقوات المسلّحة الأمبراطورية سوف تعالج أي اضطراب ينطوي على خطورة.

يبدو هذا التحليل جد مبسط بيد أنه يمثل، حسب ما أعتقد، جوهر تفكير الشاه وكذلك جوهر تفكير القادة السياسيين وكبار ضباط الأمن والقوات المسلّحة، وربما جوهر تفكير قادة تجمّعات المعارضة المختلفة أيضاً حتى وقت جد قريب وربما كانت أوضح علامات الرضا، الذي كان النظام يشعر به عن أسلوبه في مواجهة الشعب الإيراني، قد ظهرت عام ١٩٧٨ عندما أدركنا أن القوات المسلّحة والشرطة لم تتدرب على السيطرة على التظاهرات ولا على واجبات الأمن الداخلي، وليست هنالك معدات لمعالجة الهيجان المدني دون اللجوء إلى استخدام الأسلحة الفتاكة، وليست هنالك زمر لمعالجة الشغب، ولا خطط طوارئ لا شيء من هذا كله. إن ما كان يحدث في أغلب أجزاء العالم لم يكن مقدراً له أن يحدث في إيران.

ليس هدفي الأساس في هذا الفصل على أية حال، أن أحلّل بالتفصيل الخلفية التي أدت إلى عمى النظام، بل أن هدفي هو أن أوضح

أسباب عدم قدرتي على إدراك الموقف. لقد شاعت حكمة بدت مقنعة للجميع منذ عام ١٩٧٩ مفادها أن السفارة الغربية أخذت على حين غرة بسبب عدم كفاية المعلومات المتوفرة لديها وقد ركزنا جل اهتمامنا على العمل التجاري حصراً، خلال سنوات الازدهار، وأهملنا إلى حدّ كبير مراقبة الوضع السياسي في إيران. كنا وللسبب نفسه حريصين على أن لا نغضب الشاه، لذلك تحاشينا الاتصال بالمعارضة، وهكذا وقعنا ضحية لنفس الحماقة التي أصابت النظام بالعمى. لقد بدأت الفصول الأولى من هذا الكتاب بتروٍ وكنت أحمل في تفكير هذا الحكم، وذلك لأسجل رأي عن الموقف السياسي الداخلي في إيران كما رأيته في حينه خللا كل سنة من السنوات التي سبقت الثورة دون الركون إلى محاولة التماس المبررات لنفسي وقد التزمت هذا المبدأ بأمانة أنفقت ساعات عديدة خلال السنوات الأربع الماضية في ممارسة استجواب للذات.

توصلت إلى استنتاج أن عجزنا عن توقيع ما حدث بين كانون الثاني عام ١٩٧٨ وشباط عام ١٩٧٩، لم يكن في الواقع نتيجة نقص في المعلومات. حقاً لقد كانت زيادة الصادرات هدفاً أولياً لسفارتي طيلة مدة عملي كما أوضحت ذلك من قبل، ولكننا أولينا نقص وقد قمنا بتقصّي الوضع الداخلي بدقة بالغة بنفس القدر من الأهمية من أجل تجنّب الإسراع في خلق أزمة في علاقتنا بالشاه. وعلى الرغم من ذلك فقد أدهشني عندما أعدت النظر في تقاريري التي كتبتها في الأعوام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٧ أدهشني مقدار المادة التي تجمعت عن الوضع الداخلي في إيران. كما أدهشني عدد المرّات التي ناقشنا فيها الاحتمالات المختلفة، ومعرفتنا التفصيلية الواسعة بالأوضاع هناك. ولو كان عدد الموظّفين المتفرعين للعمل السياسي أكبر مما هو عليه لكانت كمية المادة المتوفرة لنا بالتأكيد أكبر، أني أشك على أية حال أن ذلك كان سيؤدي إلى تعزيز معرفتنا السابقة بشكل ملحوظ كما ذكرت آنفاً كما

آمل بأننا قد خمدنا العناصر الرئيسية المعارضة للشاه، أي الجماعات الدينية والتجّار، والجيل الأحدث من المفكّرين. وكنا ندرك بأن الأحزاب السياسية القديمة ـ الشيوعيين والجبهة الوطنية. . . إلخ. سوف لن تغفر له ما فعل بها في الخمسينات. ولم يكن لدينا أي وهم حول مدى شعبية النظام وقد لاحظنا أنه بحلول عام ١٩٧٦ كانت الآلام الحتمية التي رافقت التحوّل في المجتمع الإيراني وقد اتحدت مع ما رافقها من إحباط صاحب انهيار الازدهار النفطي، وولدت امتعاضاً خطراً على مكان واسع لقد كان خطأنا فيه أننا لم نتوقع بأن الروافد المختلفة من المعارضة، التي كان لكل منها سبب مختلف لمعارضة حكم الشاه، سوف تجتمع في مجرى عارم من المقاومة تؤدي في نهاية المطاف إلى إزالة الشاه، وحتى لو كنا قد تنبأنا باتحاد قوي للمعارضة هذا فمن المحتمل أن نكون قد استنتجنا بأن المقاومة المدنية المجردة، مهما كانت موحّدة سافرة، ستكون عاجزة في وجه ترسانة القوات المسلّحة، شريطة أن تبقى تلك القوات المسلّحة موحّدة وموالية للنظام البهلوي.

وهكذا فأني أميل إلى الاعتقاد بأن عجزنا عن إدراك الأمور كما ينبغي لم يكن ناتجاً عن نقص في المعلومات بل سوء في تفسير ما لدينا من معلومات. كنا ننظر إلى الأمور من خلال المنظار الصحيح لكننا كنا نركز على الهدف الخاطئ. وهنا أوجه اللوم إلى نفسي دون تحفّظ. ورغم أني أمتلك الخلفية الأكاديمية التي تعينني على تفسير الحقائق التي كنا قد شخصناها بشكل صحيح إلاّ أني لم استنبط الدرس الملائم من ماضي إيران التاريخي، بل عمدت إلى إطلاق التعميمات التي كونتها غالباً من خلال تجربتي في تركيا والعالم العربي. دعني أوضح ذلك، لقد كانت القوات المسلّحة النظامية، منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين، في مركز سلطة الحكومة الأمبراطورية العثمانية. وهذا يعني **أولاً**: أن الإنكشارية المخيفة لم تكن سياطاً يجلد بها أعداء الأمبراطورية

فقط. بل سياطاً مسلّطة على السلاطين أنفسهم. **ثانياً**: أن الاطاحة بالانكشارية في أوائل القرن التاسع عشر أدّى إلى قيام الجيش النظامي ذي الطابع الحديث في تكوينه بالتحكم في مصير العثمانيين كما حدث في ثورة الشبان الأتراك خلال العقد الأول من القرن العشرين وتولّي كمال أتاتورك السلطة في العشرينات من هذا القرن. لقد شكلت القوات المسلحة التركية إلى يومنا هذا وكما رأينا أن أكثر من مرة العامل الحاسم في سياسات الجمهورية التركية. وقد انتقل هذا الإرث إلى الدول العربية، التي ظهرت في فترة العشرينات من هذا القرن والتي خلفت الامبراطورية العثمانية في الشرق الأوسط. لقد أصبح من المألوف لدينا حدوث إنقلابات عسكرية في سوريا والعراق ومصر وليبيا... إلخ وحتى سلطة الملك حسين في الأردن كان بقاؤها مرهون إلى حدّ كبير بولاء الجيش العربي الأردني. وهكا أصبح بقاء أغلب الحكومات العربية أو سقوطها معتمداً على ولاء القوات المسلّحة وأن اهتمام المراقبين الأجانب كان منصباً بصورة رئيسية على تقويم احتمال إمكانية تلاشي هذا الولاء وما قد ينتج عنه أما حرب أهلية أو إحلال قائد عسكري أو له صفة شبه عسكرية بدلاً من غيره، وهذا هو الاحتمال الأرجح.

كان ماضي إيران مختلفاً، على أية حال، فمنذ أن ظهرت إيران دولة مستقلة **اعتمد الملوك** الذين تعاقبوا على حكمها حتى القرن التاسع عشر في قوتهم العسكرية على المجندين من الاقطاعيين وأفراد القبائل، وكان بقاؤهم أو زوالهم، مثل بقاء الملوك الإنكليز أو زوالهم في الفترة التي سبقت الحرب الأهلية، رهناً بقدرتهم على الحصول على الولاء (البارونات) وليس ولاء القوات المسلّحة النظامية المسؤولة مباشرة أمام التاج. لقد طور الملوك القاجاريون في القرن التاسع عشر بدايات جيش حديث، ولكن احتفاظهم بالسلطة كان حينئذ ما يزال مبنياً على مهارتهم

السياسية في إقامة نوع من الموازنة بين الجماعات المدنية وإدارتها، تلك الجماعات التي كانت مستعدة للتنافس مع الحاكم على السلطة. كانت القيادة الدينية، وشيوخ القبائل وملاك الأرض القرويون أكثر هذه العناصر تأثيراً **منذ أن أصبح المذهب الشيعي دين الدولة في إيران في القرن السادس عشر بحلول العهد الصفوي**. ولما بدأت بوادر التحديث في القرن التاسع عشر، ظهرت النواة الصغيرة من المفكّرين المتأثرين بالغرب بوصفها تحدياً آخر لحكم الشاه المطلق. إضافة إلى ذلك فقد أصبح التجّار في السوق الذين يمثلون مفاصل الاقتصاد التقليدي في البلاد قوّة ثالثة. كان التجّار، تاريخياً، حلفاء الملالي ذلك الحلف الذي تمّ تعاونهم معاً في فترة استمرّت حتى عام ١٩٧٨. لقد اعتمد الملالي وما زالوا على السوق بصورة كبيرة في الإمدادات المالية التي مكنتهم من إدارة شبه دولة إيران الرسمية لقرون عديدة. وأعتمد التجّار على الملالي وما زالوا يعتمدون عليهم، لأنهم عرفوا بأنهم إذا لم ينالوا رضاهم فإن الملالي بإمكانهم أن يثوروا الحرفيين المتدينين من أهل القرى ضدهم وكذلك جميع المتعصّبين وفئات العمّال.

لقد اتحدت هذه العناصر الثلاثة (المتدينون والتجّار في السوق وأهل الفكر) في مناسبات عدة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، لمقاومة إجراء ما يتخذه الشاه أو الترويج لقضية معيّنة وأن كانوا غير متفقين عليها في حينه. وتحضر في ذهني ثلاثة أمثلة عن ذلك. فقد منح نصر الدين شاه عام ١٨٧٢ امتياز طويل الأمد إلى رجل أعمال بريطاني بالتجنس وهو البارون دي رويتر يعطيه حق احتكار يغطي كل جوانب الاقتصاد الإيراني تقريباً. وقد اضطر الشاه تحت ضغط رجال الدين والسياسيين إلى إلغاء الامتياز المذكور. وفي عام ١٨٩١ ـ ١٨٩٢ منح نصر الدين شاه امتياز إلى شركة بريطانية لاحتكار التبغ وقد ائتلف رجال الدين والتجّار في السوق من أجل معارضة هذا الإجراء ووزع الأكراد كراسات في كل

أنحاء البلاد تهاجم ذلك الامتياز. وأعقبت ذلك أعمال مقاومة متفرقة تطوّرت بعدئذ إلى شغب عمّ البلاد بكاملها. وأخيراً، قرّر رجال الدين القيام بعصيان مدني ودعوا المؤمنين إلى ترك التدخين لحين إلغاء ذلك الامتياز. وقد تمّ الالتزام بتحريم التدخين إلى حد أن العائلة المالكة نفسها تركت التدخين. وأجبر الشاه في النهاية على التراجع وإلغاء الامتياز. واتحد المفكرون والتجّار ورجال الدين مرة أخرى في الحركة الدستورية عام ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ للتغلب على مقاومة الشاه منح دستور للبلاد. كانت طرائقهم تشمل في العصيان المدني ومنع التعاون مع الحكومة المركزية. واتخذ ذلك العصيان شكل ارتحال جماعي إلى ملاجئ مختلفة بما فيها الأراضي التابعة للإنتداب البريطاني حيث أقام ما يربوا على (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف شخص من وجهاء طهران لبضع أسابيع وأجبر الشاه على التنازل نتيجة الشلل الذي اصاب البلاد وقام بمنح دستور عام ١٩٠٦ الذي ما زال، نظرياً على الأقل، أساس الحكم حتى طرد الشاه عام ١٩٧٩.

إن من الممتع مقارنة هذه الأحداث التي وقعت في الماضي البعيد بما حدث في الفترة الواقعة بين كانون الثاني عام ١٩٧٨ وشباط عام ١٩٧٩. إن مدى التشابه مدهش عن الحكم في أواخر السبعينات وكما حدث في مناسبات سابقة فقد عزل رجال الدين والمفكرون والتجّار أنفسهم عن النظام، كل فئة لأسباب خاصة بها مختلفة عن غيرها واتخذت هذه العناصر المتباعدة بهدف إركاع الشاه بعد فتره وجيزة من سماحة هذه المعارضة، التي كانت مقموعة، من أسماع صوتها ضمن سياسته في إطلاق الحرّيات. وقد اتبعت المعارضة الوسائل المألوفة التي كانت المعارضة تتبعها سابقاً، أن تحولت أعمال المقاومة المتفرقة إلى أعمال شغب سادت البلاد برمتها وأعقبها عصيان مدني ـ وأخذت الاضطرابات تشل البلد بالتدريج اعتباراً من أيلول وتشرين الأول عام

١٩٧٨ إلى الفترة التي أعقبت الشاه في كانون الثاني عام ١٩٧٩. لقد كانت الإضرابات هي التي أدت إلى انهيار النظام أكثر من أي شيء آخر كما كنت أعتقد دائماً. ورغم أن القوات المسلّحة ظلّت موالية لقائدها العام ولاء تاماً حتى حلول النهاية المأساوية، لكنها كانت عاجزة عن منازلة العصيان المدني الذي ساد الدولة بكاملها. وقام رجال الدين بتنظيم العصيان مثلما فعلوا ذلك الأعوام ١٨٧٢ و١٨٩٢ و١٩٠٦ وبما أن وسائل الاتصال الحديثة قد ساعدتهم، فقد تمكنوا من إدارة حملتهم هذه المرة بفاعلية أكبر ضد الشاه مما كان عليه ضد أسلافه من ملوك القاجاريين.

لماذا لم أطبق هذه الدروس من التاريخ على الوضع الحالي، رغم أنها كانت جزء من معرفتي الاكاديمية عن إيران؟ ألم أحسب قبل عام ١٩٧٤ بأن المعارضة ضد الشاه إذا بلغت من النمو حدًّا معيّناً سيجعلها تظهر بالأسلوب الأوفق الذي كانت تظهر فيه في تاريخ إيران فإن جماعات المعارضة المتفرقة والتي تملك إمكانية الاجتماع والتعاون سوف لن تبقى متشرذمة وغير مؤثرة بل ستتحد وسوف تتبع الوسائل التي تؤدي إلى تحييد مصدر قوّة الشاه ـ أي القوات المسلّحة وقوات الامن ـ ولم أعجب من أن الشاه ومؤيديه لم يحسبوا لذلك حسابه. ولما كان الشاه على معرفة بتاريخ بلده، فقد رفض بتعال مقارنة ما حدث في إيران عندئذ بما حدث في القرن التاسع عشر. لقد كانت إيران القاجاريين حسب رأيه، جديرة بالإزدراء وضعيفة بحيث أنها تذكر المرء بأسوأ صفات دولة إسلامية خاضعة للنفوذ الأجنبي، وفي حالة من الانحلال الفعلي. لقد غيّر هو وأبوه جميع ذلك، ووثبت ذاكرته التاريخية إلى ما قبل ألفي عام إلى الوراء أي إلى أيام سايروس العظيم (قورش) عندنا هب (الخالدون) بحماية الدولة من الداخل والخارج. والخالدون هم الجيش النظامي في حينه، ذلك الجيش الذي تمثل قواته المسلحة الامبراطورية الحالية، خاصة الحرس

الأمبراطوري، نموذجاً حديثاً له. أن من الأهمية بمكان أن نذكر في هذا السياق بأن الشاه في لقائنا التوديعي معه يوم الثامن من كانون الثاني عام ١٩٧٩، رفض بشدة مقارنتي بما آلت إليه الثورة الإيرانية بالنهاية التي لاقاها الملوك القاجاريون على أيدي القوى التي اجتمعت لإسقاطه.

الذي لم استوعبه أبداً النسخة التي يقرأ فيها الشاه تاريخ إيران، كان عليّ أن تكون معرفتي بذلك التاريخ أفضل. لقد أطلت التفكير في هذا الخطأ في التفسير وخلصت إلى الاستنتاجات الآتية:

أولاً: لقد اعتمدت على ملاحظة مبدأ أولوية القوة العسكرية في سياسات الأقطار التي عملت فيها، كما ذكرت آنفاً، مما جعل الوثبة الفكرية ضرورية ليتسنّى لي أن آخذ بالحسبان تفرد إيران في هذا المضمار. وباختصار لقد أخطأت في معالجة حالة إيران تفصيلياً تحت تأثير الاتجاه العام لتجربتي السابقة. ولم أكن قد عجزت عن تلمس احتمالات انهيار النظام إذ تناولت بالتحليل، بصورة مستمرة طبيعية ما سيحدث لو اختفى الشاه عن المشهد لأسباب طبيعية مثل المرض أو التعرض إلى حادث أو إلى الاغتيال. وقد راقبت عن كثب ولاء القوات المسلحة لكنني استنتجت على الدوام، وكان استنتاجي صائباً أكدته الأحداث، بإن الإصلاحات التي غالباً ما قادت إلى تدخل عسكري في أقطار أخرى غير موجودة في إيران وإن الشاه كان مصيباً في الاعتماد على استمرار ولاء القوات المسلحة له ومن سيخلفه في السلطة من بعده، فيما لو قدر له أن يترك السلطة فجأة لأي سبب كان.

ثانياً: لقد بالغت في تقويم الحدّ الذي غيرت فيه ستون سنة من الحكم البهلوي من طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية الإيرانية. لقد كسر رضا شاه أبو الشاه الحالي القالب المألوف عندما أتى إلى السلطة عن طريق انقلاب عسكري. لقد كانت الظروف في إيران استثنائية آنئذ خلال العقدين الأولين من القرن العشرين حيث فقدت إيران مكانتها

فعلياً في كونها كياناً جغرافياً ـ سياسياً مستقلاً لم تكن هنالك حكومة مركزية عموماً ولم يجد رضا شاه أية صعوبة في تولّي السلطة بما أنه قد سيطر على القوّة النظامية الوحيدة الموجودة في إيران الشمالية في حينه ـ القوقازيين من الفرس الذين عزلوا من قبل ضباطهم الروس القيصريين بعد الثورة البلشفية. لقد بنى رضا شاه جيشاً حديثاً أراده قاعدة لسلطته لتوحيد البلاد أولاً ومن ثم لحكمها، وقد واصل ابنه نفس الأسلوب بقوة. وباشر محمد رضا شاه أيضاً ببرنامج للتحديث والذي بدا في الظاهر أن له بعض التأثير في تخليص المجتمع الإيراني من ورطته لذلك كنت أميل إلى الاعتقاد بعد أن أسقطت صخب الاعلام من حساباتي، بأن إيران تمثّل نهضة الامبراطورية الفارسة قبل الإسلام، وبأنه كان هنالك انقطاع واضح مع الماضي لما قبل البهلوية وأن إيران الحديثة قد تطوّرت وفق نموذج مماثل ظاهرياً إلى أوتوقراطيات العالم الثالث، التي تستند إلى القوة العسكرية في ظرف من التطوّر الاجتماعي والاقتصادي السريع. لقد قادني هذا الحكم الخاطئ إلى الاستنتاج بأن الشاه كان آمناً من هجمات العناصر الدينية المشتتة وغير المسلّحة مهما اتصف عداؤها بالعناد، شريطة أن يكون قادراً على الاستمرار بالاعتماد على قواته المسلّحة القوية والموالية. وقد بقيت متمسكاً بهذا الرأي حتى أواخر ايلول عام ١٩٧٨ ولم أدرك بأن التاريخ كان قد بدأ يعيد نفسه في الواقع إلاّ عندما وقعت الإضرابات السياسية وعندئذ أصبح الوقت جداً متأخر لذلك الاكتشاف إذ لم يعد ذا فائدة عملية كبيرة.

لو كنت أكثر إدراكاً في السنوات التي سبقت الثورة أي لو كنت قد قدرت بأن قوى المعارضة من الممكن أن تكون مخيفة أكثر مما أعتقدت وإن قاعدة قوّة الشاه أقلّ صلابة في مواجهتها مما تصورت، هل كنت سأوصي الحكومة البريطانية بتبنّي سياسات مختلفة عن التي تبنتها تجاه إيران؟ لا أعتقد ذلك. لم نكن نشك، كما هي حالنا مع أغلب أنظمة

الحكم في العالم الثالث، أن الشاه سوف يضيع بين عشية وضحاها ليستبدل بحكومة أقل تجاوباً مع المصالح البريطانية والغربية. لقد اعتقدنا أن ذلك احتمالاً بعيد الوقوع ولكننا لم نسقطه من حسابنا. وأدركنا كذلك من خلال طبيعة النظام ذاتها، أننا لا يمكن أن نتوقع بأن نجني الحدّ الأقصى من الفوائد من علاقتنا بإيران ما لم تكن علاقتنا بالشاه علاقة حميمة لا يشوبها الشك في وفائنا له. لقد كانت في ذلك مجازفة لكني ما زلت أعتقد بأننا على صواب من ركوب هذه المجازفة. إن الحقيقة المجردة هي أن إيران كانت، على الامد القصير حليفاً مهمًّا لبريطانيا مثلما هي سوق مربح جداً. لقد كان الهدوء النسبي وتوجيه إيران نحو الغرب منذ منتصف الخمسينات وحتى أواخر السبعينات ذا أهمية بالغة في وقت كانت فيه بقية المنطقة ـ الشرق الأوسط العربي وشبه القارة الهندية ـ في حالة من الاهتياج المتقطع وعرضة للتدخل السوفيتي وبدأت تشكّل خطراً على المصالح المادية والحيوية البريطانية مستقبلاً. فمثلاً كان التعاون مع إيران جوهرياً لإدامة الوضع الراهن في الدول المستقلّة في الخليج العربي في السنوات التي تلت أنسحابنا نهائياً عام ١٩٧١ مباشرة. ولو طرحنا مسألة أسعار النفط جانباً كان من الأهمّية بمكان لبريطانيا أن تعتمد على تدفق النفط الخام الإيراني في وقت كان في النفط العربي عرضة للمقاطعات السياسية. وبالإضافة إلى ذلك كانت طهران للفترة من عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨ أكبر سوق تصدير لبريطانيا في الشرق الأوسط، يدر آلاف الملايين من الباونات الاسترلينية في زمن من الحاجة الماسة. وأستطيع الاستمرار في اقتباس العديد من الأمثلة في كلا الميدانين السياسي والتجاري وليس لدي شك في أننا لو كنا قد تجنبنا اتجاهاً أكثر ريبة نحو الشاه، في ضوء تقدير أكثر تشاؤماً للوضع حول فرص بقائه، فإن الكثير من هذه الفوائد لم تكن قد تحققت لنا، وبإختصار، لقد قامرنا على الشاه وقد كسبنا الرهان لعدة سنوات ولست نادماً على هذا الإنجاز.

إن هذا يقودني إلى سؤال آخر هل كان علينا أن ننفذ مشورتنا إلى الشاه، على الرغم من عدم كفاءة تحليلنا للوضع الداخلي، قبل أن يحرّر نفسه أواخر صيف عام ١٩٧٨ من التردد في مناقشة السياسات الداخلية الإيرانية مع الأجانب وخصوصاً معنا؟ أنا أجد أن هذا السؤال تصعب الإجابة عليه. يمكن أن نحتج من جهة بالقول بأن الرهان البريطاني في إيران قد أصبح مهمًّا جداً في منتصف السبعينات حيث أن أنهيار النظام سيكون من الأهمّية بحيث يمسّ المصالح الوطنية البريطانية بصورة مباشرة لذلك، فلو اعتقدنا أن الوضع كان يتدهور وأن النظام كان يرتكب أخطاء، فإن من واجبنا تجاه وطننا، بالتأكيد، أن نتكلم علانية بغض النظر عن عدم سماح الشاه وشكوكه المفرطة تجاه (البريطانيين). واعتبرت، من الجهة الأخرى، أنها مسألة مبدئية لنا إذا أملنا فقط أن تكون علاقة اعتيادية مع إيران كالعلاقة التي بيننا وبين زملائنا الأوروبيين الغربيين، فيما لو دفنا الماضي وأظهرنا للشاه أننا لا نعتبر أن لنا أي حقّ في التدخل في الشؤون السياسية الداخلية أو في تقدم المشورة له أكثر مما لدى السفير الفرنسي في لندن من حقه على سبيل المثال في تقديم رأيه بالسياسات الداخلية البريطانية. وكانت بالإضافة إلى ذلك، مشكلة شخصية الشاه، وهذا ميدان آخر أثبت فيه تحليلنا أنه يفتقر إلى الدقّة. فلقد توصلنا نحن وحكومات أجنبية أخرى في السبعينات إلى قبول الشخصية التي بناها الشاه لنفسه على أنها شخصية العبقري. وعلى الرغم من معرفتنا بتذبذبه ونقاط ضعفه عندما كان شاباً، والنقص الظاهر في موهبته القيادية كقائد جماهيري، فقد نظرنا إليه كما أراد هو أن ينظر إليه على أنه أوتوقراطي مهيمن، ومخيف، وحسن الاطلاع، وماهر في إدارة الأحداث، مرهف الحساسية فيما يتعلق باستقلاليته واستقلالية بلده من الوصاية الأجنبية. لقد قبلنا على هذه الصورة، وأعتقدنا بحق أنه سيرفض ويردّ بقوة على أية محاولة

لنصحه حول كيفية إدارة شؤون إيران. واعتقدنا أن أية محاولة لا مبرر لها لنصحه وخاصة إذا جاءت من قبلنا سوف تكدر علاقتنا وتدمر مصالحنا الوطنية. إني مقتنع بأن هذا التقويم صائباً وأننا لو حاولنا أن نقترح على الشاه، في أي وقت قبل عام ١٩٧٨، أن يتبنّى أو يتجنّب تصرفات معيّنة، كنا سنتلقى صفعة قاسية وأن منافسينا كانوا سيجنون فوائد خيبتنا. لقد كان هنالك تنافس شديد جداً في تلك الفترة بين عدد من أقطار أوروبا الغربية، وشمال أمريكا واليابان حول السوق الإيراني، وكنا لا نستطيع أن نجازف بأي سلوك ربما يجلب لنا الضرر في وقت كان الشاه فيه يشرف بنفسه على توزيع عقود التنمية الكبرى. كانت المجازفة جديرة بالقيام بها فيما لو كنا على ثقة من أن نصيحتنا سينتبه لها. ولكن لم تكن لنا ثقة في ذلك. بل على العكس من ذلك كان هنالك بعض الشك بأننا قد نجحنا حتى في إزالة الامتعاض والشك قط. كنت أفكر أحياناً أنه في عالم بالغ الحساسية، يجب أن يتحد ممثلوا الدول الغربية الصناعية واليابان في طهران ويتوصّلوا إلى تقويم مشترك للأخطار الداخلية على النظام، ويحصلوا على تعليمات موحّدة من حكوماتهم والقيام بمسعى إلى الشاه. وأن مثل ذلك المسعى ستكون له فائدتان حيث مثل هذا المسعى بطبيعته ربما سيؤثر على الشاه وهو سوف لا يستطيع أن يعاقب دولة معينة. لكنني اعتبرت مثل هذه الممارسة الدبلوماسية مثالية وغير مجدية وأن كان مبعثها الحماس وسيكون من الصعب جداً في جوّ طهران التنافسي والذي يكثر فيه القيل والقال خلال فترة الازدهار أن يتم ترتيب الاجتماع التمهيدي لخمسة عشر سفيراً (من الذي سيقوم بالمبادرة؟) وأكثر من ذلك صعوبة التوصّل إلى اجتماع مفيد حول ما سنقوله والأصعب من ذلك كله الحصول على موافقة خمس عشر حكومة وإلى غير ذلك. أنني أتذكر ذلك، ففي الاجتماعات الشهرية لسفراء المجموعة الأوروبية،

كانت الشؤون الداخلية نادراً ما تناقش. كان كل منا يخشى أن تعليقاً انتقادياً يبدر منه قد يهيئ فرصة يمكن استغلالها تجارياً ضدّ كل من لم يكن حذراً جداً ويعلن عن رأيه؟

كان هنالك عامل آخر مرتبط بفهمنا الخاطئ لشخصية الشاه، وهو افتراضنا أنه كان أفضل اطلاعاً منا حول الوضع الداخلي لبلده. كنا قد جربنا ذكاءه وتضلعه في القضايا الأجنبية والاستراتيجية، وليس من الغريب أن نخلص إلى أنه كان ضليعاً في الشؤون الداخلية أيضاً بتوفر جميع التسهيلات لجمع المعلومات التي تحت تصرفه. وفي المناسبات القليلة، التي وصفت واحدة أو اثنتين منها في الفصول السابقة، عندما غامرت بأن ألمحّ إلى موضوع معيّن من مواضع الامتعاض الواضح، تلقيت رفضه المتغطرس لإشارتي بطريقة رقيقة مهذبة ليقول لي أن لا أتدخل فيما لا يعنيني. ولم يخطر ببالي مطلقاً، إلى أن أظهرت صلتي الحميمة به عام ١٩٧٨ بعده المذهل عن التفكير في الوقائع التي كانت تحيط به. . أنه كان يؤمن فعلاً بالنظريات اللامقنعة التي يقدمها لي. وكمثال واضح عن ذلك قوله أن امتعاض الطلبة واسع الانتشار وكان مجرّد تظاهر أقلية تحرضها حفنة من الدعاة الذين تلهب مشاعرهم جهات أجنبية.

وأنا استنتج بعد أربع سنوات بالاستفادة من تأمل الأحداث بعد وقوعها، كما استنتجت حينئذ، أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا، أو في الواقع بالنسبة لأية قوّة صديقة، أن تتدخل بنجاح مع الشاه قبل عام ١٩٧٨. لقد أصبح عبداً للشخصية التي صنعها لنفسه وبنى جداراً بينه وبين أصدقائه الأجانب، كما فعل ذلك مع أكثر مستشاريه الإيرانيين ولاء، ليحصّن نفسه ضد النقد الذي أصبح لا يطيقه بصورة متزايدة، كلما نما في المكانة والأهمية. لكن هذا يقودني إلى السؤال الأخير مباشرة. فعندما كان مد الثورة يتدفق وبدا الجدار الزائف الذي شيده لنفسه بالانهيار وكذلك ترفعّه الامبراطوري، هل كان هنالك شيء ما

بأمكاننا أن نفعله على انفراد أو كجزء من الجهد الغربي الجماعي عن طريق نصحه لاتخاذ إجراء ربما يوقف الطوفان ويمكنه من البقاء حتى وإن كان ذلك ضمن السلطات المتداعية الممنوحة للملك الإيراني وفق دستور عام ١٩٠٦؟ وبحلول أواخر صيف عام ١٩٧٨ سقطت مواقعه وكان يطلب نصيحتنا بلهفة وكذلك نصيحة زميلي الأمريكي. وأدركنا سوية أن شخصيته الأصلية لم تتغيّر، وأنه ما يزال غير حازم ويفتقر إلى قبول الحلّ الدموي الذي يتصف به الأتوقراطي التقليدي، وعلى أنه شكل مثير للشفقة وخاطئ كلياً وهو أن الأمريكان والبريطانيين، إذا لم يقرّروا لأسبابهم السرية والخاصة والتي لا يمكن إدراكها لإسقاطه، فإنهم يمتلكون القدرة على بقائه على عرشه بشكل من الأشكال.

ومنذ الثورة تعالى عدد كبير من الأصوات خاصة في الولايات المتحدة، حول الكيفية التي (فقدت) فيها أمريكا إيران، وكيف أن الغرب والأمريكان خاصة، **(ترك الشاه يسقط)** أو حتى أنه شجع على سقوطه. لم تكن مثل هذه المشاعر قد انتشرت بين الإيرانيين في المنفى بل وكما أشرت في التمهيد لهذا الكتاب، كان هذا الرأي يحظى بإجماع واسع وهو أن الشعب الإيراني وحده غير قادر على الإطاحة بالنظام البهلوي القوي وأن الثورة يجب أن تكون قد حدثت من خلال مؤامرة أمريكية أو بريطانية مدبرة بمكر وعناية. لقد كان هنالك تحليل فضلناه على غيره وهو تحليل يشبع غرورنا يذهب إلى أن الأمريكان الذين لديهم القوّة المادية الأعظم، كانوا الأدوات الفعّالة التي تعمل وفق توجيهات البريطانيين الماكرين. لقد كانت دوافعنا، كما استقيتها من أصدقائي الإيرانيين مرتبطة أما بالنفط أو بالحاجة إلى إيقاف انتشار الشيوعية أو بكليهما. لم نغفر للشاه مطلقاً كسره الاحتكار البريطاني للنفط الإيراني في الخمسينات، ولم نغفر له كذلك قيامه بدور العقل الموجه لزيادة الأسعار في كانون الأول عام ١٩٧٣ لقد أدركتا خفض الأمداد الكلي من

النفط الخام لمنظمة الأوبك لكي نخلق شحة في النفط الخام وهكذا نزيد فوائد شركتنا، وقد اعتقدنا أن حكومة دينية ستكون حصناً أقوى بوجه الشيوعية الملحّة، بعد الاحتلال الشيوعي لإفغانستان، من إيران بهلوية تقدمية ومتطوّرة. وبصرف النظر عن هذا الهراء الغريب، فإن النتيجة الطبيعية لقرنين من التدخل الأوروبي في شؤون إيران الذي اتحد مع احتقار النظام البهلوي للشعب الإيراني، بالإضافة الى الرفض النفسي للاعتراف بأن سقوط النظام كان نتيجة لإخطائه، فإن عدداً مدهشاً من الأوروبيين والأمريكان المفكرين وحسني الاطلاع ما زالوا يؤيدون الرأي القائل بأن الولايات المتحدة وإلى درجة أقل بريطانيا قد (فقدت إيران) أو أننا كان بإمكاننا (إنقاذ الشاه). إن من اليسير إسقاط هذه النظرية من الحسبان.

إني أعتقد بأن الحقيقة هي أنه لو لم يقم الشاه بما يسمى بإطلاق الحرّيات أواخر عام ١٩٧٦، لكان ما يزال على العرش، أو بالأحرى لكان ابنه عليه فيما لو كان الشاه قد توفى بالسرطان في تلك الأثناء. لقد كان الإنطلاق التدريجي والمتعذر ضبطه بأضطراد للمعارضة والذي أعقب عملية إطلاق الحرّيات هو الذي مكّن القوى المبعثرة من إيجاد ذلك الزخم عندما اتحدت اتحاداً أثبت في آخر الأمر أنه لا يقاوم. فلو تمّ إبقاء غطاء القمع في مكانه كما احتفظ به الشاه لعدة سنوات مضت، لما كان بإمكان المعارضة أن تتخذ الخطوات الضرورية الأولى. لذلك لو كان الشاه قد قام بعملية إطلاق الحرّيات تحت ضغط الولايات المتحدة وذلك رأي لم أتقبله كلياً على الإطلاق فمن الممكن أن نحتجّ بأن ذلك خطأً في تقدير الأمور ولو كان هنالك تشاور مسبق بين واشنطن وطهران حول إطلاق الحرّيات، وذلك شيء لا أعلمه، عندما تصاعد ضغط الرأي العام الأوروبي ضد طغيان النظام البهلوي وانتهاكه حقوق الإنسان، فربما كان من الأفضل نصح الشاه بتأجيل ذلك إلى أن يتمكن من تحقيق تقدم اقتصادي. لقد

كان هنالك، في نهاية عام ١٩٧٦، وكما ذكرت ذلك سابقاً، جوّ من الكآبة عبر إيران كلها بسبب فشل برنامج الازدهار وبسبب المشاكل الاجتماعية والاقتصادية الحادة التي جلبها معه. لقد كانت أسوأ لحظة يمكن اختيارها لتحريك غطاء الهيمنة السياسية لو أراد الشاه لنظامه الاستمرار وعلى كل حال، كنت سأجد أن من المستحيل الموافقة على نصيحتي، بأن نعارض قرار الشاه بمنح المزيد من حرّية التعبير وتخفيف القمع عن شعبه. ويصبح نفس الشيء على الرئيس مارتر دون شك، الذي تمّ انتخابه في الرابع من تشرين الثاني عام ١٩٧٦ وباشر بمنصبه رئيساً للولايات المتحدة في كانون الثاني عام ١٩٧٧. ولا أعتقد بأن الشاه أيضاً كان، في تلك المرحلة، سيقبل النصيحة المباشرة من الأمريكان أو منا. وأنا أميل إلى الاعتقاد أن ليس ثمة شيء كان بإمكان أي منا أن يفعله، حتى فيما لو كنا قد رغبنا في فعل شيء ما، وأن من المرجح بأن الشاه قد قرّر القيام بإطلاق الحرّيات لأسبابه الخاصة حيث استقرّ في ذهنه إن إطلاق الحرّيات سوف يتيح له الفوز بالخطوة لدى الإدارة الأمريكية الجديدة التي كانت تطبل وتزمر منذ البداية لإيمانها بحقوق الإنسان، والديموقراطية ومساوئ الإفراط في تسليح دكتاتوريات العالم الثالث، مهما كانت علاقتها ودية بتلك الدول. إن هذا يقودني إلى المرحلة الأخيرة من الثورة وهي الفترة بين أيلول عام١٩٧٨ وكانون الثاني عام ١٩٧٩، عندما كنا أنا وزميلي الأمريكي نقابل الشاه عدة مرات أسبوعياً، معاً أحياناً، وكل على انفراد في أحيان أخرى، لمناقشة مفتوحة للأزمة المتصاعدة. وهل كان علينا ونحن نعرف ما قد عرفناه الآن أن نعطي الشاه نصائح مختلفة عن تلك التي أسديناها له وإذا كان الأمر كذلك فماذا كنت سأقوله له؟

إني ألغي إمكانية تصوّر أن نكون نحن أو الأمريكان قادرين على إنقاذ الموقف من خلال أي نوع من التدخل. لقد أصبحت دول العالم الثالث كإيران بحلول عام ١٩٧٨ أقوى من السابق وأقلّ اعتماداً على

القوى الخارجية، وأخذ تأثير القوى العظمى يتضائل مقارنة بما كانت تمتلكه في الأجيال السابقة. لقد كانت عمليات شراء ولاء الجماعات التي تعمل في السوق والعمليات السرية الرومانتيكية والتهديد بالأساطيل والجيوش كان من الممكن أن تكون مؤثرة، وقد كانت بالفعل كذلك من حين لآخر، في أوائل الخمسينات. أني مقتنع اقتناعاً لا يرقى إليه الشك أن ممارسات كهذه لم تكن غير مجدية فحسب بل ستؤدي إلى نتائج عكسية في ظروف عام ١٩٧٨ المختلفة جذرياً عما قبلها. إني أتذكر مثالاً في هذا السياق، وأعتقد أن ذلك كان في تشرين الثاني عام ١٩٧٨ فقد كان انتشار خبر تحرك حاملة طائرات أمريكية من الفلبين إلى سنغافورة عاملاً مباشراً عمل من تحرك مسيرة المعارضة ضد الشاه طالما لم يرهب ذلك عامة الشعب. أما الذين يؤمنون بخلاف ذلك وهنالك الكثير منهم من كل من الإيرانيين، والبريطانيين والأمريكان، فأنهم يعيشون كما أعتقد في عالم من الأوهام الرومانتيكية المندثرة. إن الحقيقة هي أن ما وقع عام ١٩٧٨ كان صراعاً بين إيرانيين وإيرانيين وأن تدخل الأجانب كان سيحوّل الأمور نحو الأسوأ. لقد ذهب عصر توزيع الدولارات في الأسواق الشرقية.

لكن هذا الاعتبار لا ينطبق على النصيحة الخاصة التي كنا أنا وزميلي الأمريكي نسديها للشاه، ليس من دوري أن أكشف الموقف الأمريكي على الرغم من أنني قد أشرت إلى الإنقسامات التي ظهرت ضمن الإدارة الأمريكية. ولقد قام السفير سوليفان، صديقي وزميلي الودود فعلاً بإغناء هذا الموضوع كتابه (**مهمة إلى إيران**) سوف أحدد نفسي بدوري الأصغر في المسرحية، وقد قمت قبل ذلك بوصف بعض المناقشات العديدة بالتفصيل تلك المناقشات التي كانت لي مع الشاه عبر تلك الشهور الأربعة الخطيرة لقد ذكر الشاه في كتابه (إجابة للتاريخ) ضمناً أنه لم يكن يؤمن بصدق نصيحتي ولم يستطيع أن يتخلّص تماماً من شعوره بالشك المفرط بأني وسيلة المواجهة الأولى في مؤامرة بريطانية غادرة

لإنتزاع لعرش منه. لكنني استطيع أن أكرّر فقط أن النصيحة التي أسديتها له كانت شخصية تماماً ومبينة على حسن تقدير للأحداث في بلد خدمت فيه لمدة خمس سنوات مستمرة. ما زلت في الواقع أستطيع أن أتذكر صوتي قائلاً للشاه في المناسبات التي لا تحصى بأنني لن أقول له ما اعتقدت به ما لم يؤكد لي بأنه سوف يقبل ما كنت سأقوله على أنه نصيحة غير مغرضة من شخص يتمنّى له الخير تماماً، لم يلوثه أي دافع خفي. وقد أعطاني التوكيدات بصورة ثابتة. رغم أنني قد علمت الآن ومثلما ظننت في حينه، بأنه غير قادر عاطفياً وعقلياً. ولا يستطيع أحد أن يلومه في ضوء تاريخه الشخصي - على قبول آرائي كما هي دون تأويل وفيما خصّ حكومتي، فقد كانت لديها القناعة الكافية بأني وحدي المؤهل للحكم على أية نصيحة اسديها في وضع متغير، لكوني الشاهد على ما كان يدور هناك. لا أستطيع أن أتذكر مرة قيل لي فيها من قبل لندن بأنه كان علي أن أقول شيئاً مختلفاً عما قلت أو مرة تسلمت فيها أوامر معيّنة بأن أسلك خطاً معيّناً. أستطيع أن أفترض فقط بما أني كنت أعرض ما دار بيني وبين الشاه بأمانة، فإن رؤسائي في لندن قد وافقوا على الأسلوب العام لمناقشاتي ولو لم يوافقوا على ذلك لكانوا قد أخبروني.

ومن الغريب جداً في ضوء الكثير مما كتب بعد وقوع ما وقع، أننا - **الشاه وأنا** - لم نكن على خلاف أبداً حول خط السياسة الذي يجب اتباعه فيما لو كان ثمة أمل في تهدئة العاصفة. فمنذ اللحظة التي بدأت فيها الإضرابات في عموم البلد لأسباب اقتصادية في أواخر أيلول، أصبحت على قناعة أن ليس هنالك حلّ عسكري للأزمة. وكان الشاه يؤمن بنفس الرأي وبإمكاني أن استعيد إلى ذاكرتي ما كان يقول لي مرة بعد أخرى (الحلّ العسكري ليس حلًّا) وقوله (يستطيع الدكتاتور أن يستمرّ عن طريق قتل شعبه، أما الملك فلا يستطيع ذلك). كنت متأكداً أن فكرة الصرامة العسكرية لم يعد موضوعاً للمناقشة. وبغض النظر عن الاعتبارات

الأخلاقية فقد كان بإمكان الجيش، وقد فعل ذلك إلى حدّ ما، أن يخلي الشوارع ويسيطر على الإضراب الجماهيري ضمن حدود ممكنة ومعيّنة، ما عدا فشله الواضح في منع حرق طهران يوم الخامس من تشرين الثاني وخلال الأسابيع الأخيرة عندما انهارت معنوياته مع إنهيار جهاز الدولة. لكن الذي جلب هذا الإنهيار النهائي للسلطة وأضعف المعنويات العسكرية لم يكن الإضرابات المدنية بل التمرّد المدني والمقاومة السلبية. ليس هنالك مقدار من القوّة العسكرية، غير الإعدام المستمر للرهائن مثلما حدث في ألمانيا النازية أو روسيا السوفيتية يمكن أن يجبر الشعب على العمل. وشكراً لله لم يكن هنالك سؤال على الإطلاق عن مثل هذه المجزرة الوحشية في إيران في ظلّ الشاه. ولما أصبحت الإضرابات سياسية ماتت البلاد ولم يكن بوسع أية إجراءات، ما لم تكن سياسية أن تعيدها إلى الحياة ثانية. لقد عرفت ذلك منذ أواخر أيلول وما بعده وكذلك الأمر بالنسبة للشاه وحتى أن الجنرال أزهري وزملائه العسكريين الذين عارضوا البحث عن حلّ سياسي حينما كان شريف أمامي رئيساً للوزراء والذين كانوا على استعداد للاعتقاد بأن انفجار عدد القنابل العنقودية سيكون كفيلاً بحلّ كل المشكلات قد تحرّروا من الوهم بسرعة، عندما وجدوا أنفسهم يمتلكون زمام الحكم. وبعد الأسبوع الأول أو الثاني من ممارسة السلطة في منصبه، بحث أزهري عن حلّ سياسي كان سيمكن الجنود من العودة إلى ثكناتهم بنفس القوّة التي بحث بها سلفه شريف أمامي عنه. وبذلك فإن اتجاه نصيحتي للشاه التي تطابقت مع حكمه على الأمور، كانت ثابتة منذ نقطة الانعطاف الرئيسية بإطلاق النار في ساحة جاله في الثامن من أيلول، حتى النهاية. فقد أعتقد في البدء أن شريف أمامي كان مصيباً في محاولته إقصاء المعارضة والإمساك بالمبادرة من خلال إعطاء تنازلات سياسية - مثل تحرير الصحافة، ورفع الرقابة، وإطلاق سراح السجناء السياسيين وإحياء المناقشات البرلمانية ونشرها

وإلغاء التشريعات اللاشعبية وما إلى ذلك. ربما قد بلغ هذا الحدّ الذي يتطلبه (اطعام التماسيح) كما وصفه سوليفان ولكن كان هنالك أمل بأن التماسيح ربما ستصاب بالتخمة قبل أن تعمد إلى التهام شيء. إن اللحظة المناسبة للقمع العسكري المؤثر، كما رأيت ذلك - أي إعادة الغطاء - قد مرت عند اكتشاف (أو إعادة اكتشاف بلغة التاريخ الإيراني) فاعلية المقاومة السلبية. ولما أطلق شريف أمامي سهمه بوضوح أواخر تشرين الأول اعتقدت بأن الشاه كان محقاً في محاولته تشكيل حكومة ائتلافية تضمّ عناصر المعارضة المعتدلة كالجبهة الوطنية بهدف إجراء انتخابات مبكرة تقود إلى التقيّد التام بدستور عام ١٩٠٦ ولما فشلت هذه المبادرة من خلال انتقال قادة الجبهة الوطنية إلى المعسكر الخميني، ولما قام الجنرالات بحركتهم يوم الخامس من أيلول، أذعنت أن لا خيار للشاه سوى تعيين رئيس وزراء عسكري رغم ريبته وريبتي في جدوى ذلك. كنت قد شجعته في أن يحاول تشكيل حكومة انتقالية من رجال الدولة الكبار المحايدين الذين لم يلوثهم انضمامهم إلى حزب معيّن أو ارتباطهم بالنظام عبر السنين الخمس والعشرين الماضية، فيما لو فشلت المبادرة الائتلافية. لقد اعتبرته مصيباً عندما عاد إلى الفكرة نفسها خلال أيام من تعيين أزهري. لقد اتفقت أنا والشاه باستمرار، على أنه لو أن فرصته الأخيرة قد فشلت، لم يعد ثمة المزيد من الخيارات في الأفق، واستمرّ في محاولته تشكيل حكومة برئاسة صادقي لحين حلول أعياد الميلاد، وقد شارف على النجاح في ذلك. كانت آماله تتهاوى باستمرار ابتداء من تشرين الثاني فصاعداً وأني أعتقد أنه، علم أن النهاية قد حانت بمجرد سقوط خطّة صادقي. ولا أعتقد أن الشاه، أكثر مما لي أنا، أي أمل في حكومة كحكومة بختيار وكان يعلم جيداً أن اللعبة قد انتهت حال مغادرته البلاد.

لقد كنت متهماً بإقناعه بالمغادرة عندما كان عليه أن يبقى. والحقيقة أني دهشت من استعداده للمغادرة. لقد كنا نناقش في السفارة بعض الوقت فيما إذا كان الشاه هو لورد جم. إن ما يذكر هو أن لورد جم في رواية جوزيف كونراد كان ضابطاً شاباً في الأسطول التجاري وكانت له رؤى رومانتيكية وملونة جداً عن الشخصية المتكاملة ـ هادئاً وشجاعاً بوجه الخطر، متسلّطاً وصريحاً عندما يفقد الآخرون صوابهم، وكان نموذجاً للصفات الفكتورية. كان يتوق إلى فرصة يظهر فيها لنفسه وللعالم أنه يستحق مثل هذه الرؤى. ولكن في أول فرصة عندما اصطدمت السفينة التي هو فيها وكيل الربان الأعلى بحطام مغمور بالماء، فرّ في قارب نجاة في لحظة من الذعر بصحبة ضباط آخرين سيئ السمعة، تاركين المئات من المسافرين ـ الحجّاج إلى مكّة ـ مستسلمين في السفينة وهي تغرق. ولم تغرق السفينة س. س باتنا ولكن كان هنالك تحقيق في الأمر فقد لورد جم وظيفته على أثره، والأهمّ من ذلك، فقد تقويمه لنفسه بوصفه الشخصية المثالية التي رسمها لنفسه في ذهنه. وأمضى بقية حياته محاولاً أن يصلح لحظته الوحيدة من الضعف ووجد أخيراً نصراً نهائياً في المواجهة الاختبارية لموت أكيد فقط، والتي فعلها دون صعوبة، سوف يفقد شرفه فيما لو تجنبها. (لم يستطيع أن يرى في الأيام الطائشة من رواة الصبيانية ذلك الشبح الفاتن لمثل هذا النجاح الاستثنائي ذلك لأنه من المحتمل أنه في اللحظة القصيرة من نظرته الفخورة التي لم ينكص فيها قد لاحظ وجه تلك الفرصة ـ التي سارت محجبة نحوه، وكأنها عروس شرقية).

وأعتقدت أن الشاه ربما سيكون لورد جم. لقد فرّ من السفينة في عام ١٩٥٣ وأمضى الخمس وعشرين سنة اللاحقة وهو يصلح هذه الفعلة عن طريق تحويل نفسه إلى قائد عالمي ديناميكي محترم ومن خلال بناء شخصية متناغمة لنفسه وفق أعلى رؤاه. لقد توقعت أنه، إذا حانت الفرصة الثانية، فإنه سوف يموت في مكانه بدلاً من أن يعاني من

الخزي الذي لحقه عن فراره من السفينة للمرة الثانية. لقد كنت على خطأ، ولكني ليس من واجبي أن أشجع الشاه لأن يلعب دور بطل كونرادي. لقد أصرّ الشاه على أن اختيار أقلّ الخيارات شؤماً من ثلاثة ميئوس منها على حدّ سواء، وكما ذكرت ذلك في وصفي لآخر حديث لنا يوم الثامن من كانون الثاني. لقد فعلت ذلك بأمانة تحت اعتراضه وما زلت أعتقد أن ما قلته كان صحيحاً. لقد كان قد وطّن نفسه حينئذ، على أية حال على قبول خيار، وقد كان خياره هذه المرة المنفى الدائم.

إني ألوم، نفسي على أمور عدة خلال أعوامي الخمسة في إيران. وآمل أني كنت صريحاً بما فيه الكفاية لاعترف بذلك في هذا الكتاب، لكني لا ألوم نفسي على النصيحة التي أسديتها للشاه خلال تلك الشهور الأربعة الأخيرة. وأني سوف أقول نفس ما قلته ثانية لو واجهت الظروف نفسها وحتى مع الاستفادة من تأمّل الأحداث بعد وقوعها. إن كل محاولة لإيقاف المد الجارف كانت ستهزم بالنهاية لكن لكل محاولة كانت مبررة وربما نجحت في الواقع لحين حلول اليوم الحاسم أي الخامس من أيلول. لقد كانت الإرجحيات كبيرة إلى أن قام الجنرالات بحماقاتهم الرهيبة، كانت هنالك فرصة للشاه لأن يبقى كملك دستوري ذي سلطات محدّدة جداً، وربما كانت تضاءلت آمالي إلى الصفر عموماً واعتقدت أن الشاه قد شعر بنفس الشعور. ورغم ذلك فإنه كان مصيباً في الاستمرار بالبحث عن حلّ سياسي حتى النهاية رغم يقينه بالهزيمة. وفوق كل شيء كان على صواب في رفض مشورة الموالين له المتهورين والسخفاء في أن يطلق العنان للقوات المسلّحة ضدّ الشعب. ويعلم الله، أن الخسائر بين المدنيين كانت فادحة جداً في سنة الثورة. إنها لمفخرة خالدة للشاه، إذ رفض أن يفكر في المزيد من إراقة الدماء، حتى السادس عشر من كانون الثاني تماماً وكنت أعلم ويعلم هو أيضاً أن ذلك لا ينفعه في شيء. واستطيع القول بكل أمانة أنه طوال السنوات من معرفتنا الطويلة، أنني

لم أحبّه كثيراً قط ولم أعجب به كثيراً قط مثلما أعجبت به وأحببته خلال تلك الشهور الأخيرة، حيث واجه برباطة جأش، وموضوعية، ورعاية، وفوق جميع ذلك، بإنسانية الموجات المتتابعة اللازمة والتي كانت ستسحق دفاعاته في النهاية.

إن الكثيرين من أولئك الذين تنصّلوا عن قضية في ساعة شدّته أما بالهرب أو بالالتحاق بالجانب الذي اعتقدو أنه الفائز، حتى لو كان ذلك أفضل، يجب أن يغمرهم الأسف الدائم الآن.



خاتمة

إن ما قد يقع هو فكرة تجريدية تبقى احتمالاً أبدياً في عالم من التأمّل فقط.

ت. س اليوت (نورتون المحترقة)

استخدمت كلمة (الثورة) في كل مكان من هذا الكتاب لأصف الأحداث التي وقعت في إيران بين عام ١٩٧٨ وعام ١٩٧٩. لقد كانت شدّة الزلزال سياسياً، ذلك الزلزال الذي ترك خلفه منظراً مختلفاً كلياً في إيران، مساوية إن لم تتعد في الواقع، كما اقترحت ذلك، شدّة الزلزالين الذين صحبا الثورتين العظيمتين في التاريخ الأوروبي الحديث: الفرنسية والروسية، وعلى أية حال، أعتقد الآن أنه لم تكن هنالك سوى ثورة واحدة في إيران منذ القرن السادس عشر، وهي تلك التي قام بها رضا شاه بهلوي والتي أكمل بناءها ابنه محمّد رضا شاه بهلوي. إني أعرّف الثورة على أنها هدم مجتمع مؤسّس وإبداله ببنية جديدة متميّزة بوضوح عن السابقة. لقد حقّق رضا شاه هذا بدقّة فقد كسر النموذج السابق للبنية الاجتماعية السياسية الإيرانية. وكبح قوّة رجال الدين وباشر بإبدال اقتصاد السوق القديم جداً بقطاع صناعي ومالي حديث. ودمّر بقواته المسلّحة الجديدة الاستقلال أو شبه الاستقلال الذي كانت تتمتع به الزمر العرقية

والقبلية والاقطاعية وأنشأ للمرة الأولى في تاريخ إيران ما بعد الإسلام دولة مركزية وفق الأسس التي اتصف بها الأسلوب الغربي للإدارة والخدمات. وبنى أبنية بسرعة وسعة على هذا الأساس خاصة خلال الخمسة عشر سنة الأخيرة من حكمه عندما شعر أنه قد تحرّر من التنافس الداخلي مع ملاك الأراضي الإقطاعيين، وشيوخ القبائل وغيرهم. كانت إيران بحلول عام ١٩٧٨ تتطوّر بسرعة عن كونها من حيث الأساس. تنتشر فيها مدن الأسواق إلى مجتمع مدني ذي خدمات مالية واستهلاكية معقّدة نسبياً، وقاعدة صناعية أولية، وبدايات دولة مزدهرة ذات ثقافة شاملة وخدمات صحية شاملة وهكذا. باختصار كانت تلك صيحة بعيدة عن بنية العصور الوسطى التي ورثها رضا شاه قبل ستين سنة.

لذلك فإن ما حدث عامي ١٩٧٨/ ١٩٧٩ لم يكن ثورة بل كان ثورة مضادة، وإن كان ذلك بعد ستين سنة من الحدث الأصلي. لقد استعاد آية الله الخميني وتخطّى البنية الاجتماعية السياسية التي ارتأى الملوك البهلويون أن اهمالها جوهري إذا أريد لإيران مستقبل تقدمي يجاري فيه الدول الأخرى في المنطقة. وأعاد خميني إنشاء الركنين التوأمين الذين هيمنا على المجتمع الإيراني لمئات السنين. وهما التسلسل الهرمي الديني للشيعة المسلمين وتجّار السوق. ووصل رجوعاً إلى ما هو أبعد من القرن التاسع عشر وذلك باقتسام هذين العاملين التأثير مع الطبقة الجديدة من المفكرين المتأثرين بالغرب . لقد اتّحد أهل الفكر مع خميني لإسقاط الشاه بالتأكيد. ولكن، في هذه الأثناء على الأقلّ، أزالت سياسة قمعية ساذجة وقاسية أهل الفكر من بنية السلطة: فهم أما يعملون سرًّا، أو هادئين، أو موتى، أو في السجون، أو في المنفى، فالملالي والكسبة في السوق يتمتعون بالمنزلة الأعلى وقد خطا خميني خطوة أبعد من أسلافه، في أنهم كانوا عموماً قد أجازوا إلى حدّ ما أن يتولّى حاكم

مدني السلطة الدنيوية. وقد أصبح خميني الآن بالنتيجة هو الشاه، والقائد الأعلى شبه المقدّس (وربما يثبت خطأ ذلك، فقد كانت إحدى مشاكل الشاه أنه بتدميره جميع العناصر الموازنة في السياسة الإيرانية وببنائه مركزاً من القيادة الفردية لنفسه بالاتصال المباشر مع الشعب، لم يكن هنالك أحداً غيره يقع عليه لوم الشعب إذا سارت الأمور على نحو خاطئ). إن الدستور الجديد وثيقة أكثر رجعية من دستور عام ١٩٠٦. لقد تمّ هزّ البنية الإدارية والاقتصادية الحديثة التي بناها البهلويون حتى الأساس ولم تبقى إلاّ القوات المسلّحة منشغلة في حرب مع جيرانها العراق وذلك يذكر بالصراع المتواصل بين الامبراطوريتين العثمانية والفارسية في نفس المنطقة بالضبط. وخلاصة القول، فإن خميني قد حقّق الهدف الصعب بانشاءه حكم ثوري مضاد يحمل تشابهاً واضحاً مع الحكم في إيران في القرن الثامن عشر - لقد وقع شيء مماثل لذلك في فرنسا في أعقاب الثورة الفرنسية، وكان سيقع في روسيا دون شك لو أن الحرب الأهلية سارت في الاتجاه المعاكس. وأجد من الصعب الاعتقاد، على المدى الطويل، إن (٦٠) عاماً من التقدّم الثوري والتحوّل تحت ظلّ الحكم البهلوي تصبح كأنها لم تكن. كانت شرائح كبيرة من الشعب الإيراني تؤيد التغيير كظهور الاقتصاد النقدي، والأجور المرتفعة في الصناعات الجديدة، وتطوّر المجتمع الاستهلاكي، وتحرّر المرأة، واستئصال عدم الأمان الشخصي في المناطق الريفية، وتحرير الفلاحين، والخدمات الاجتماعية الجديدة، والثقافة الواسعة، وهكذا. فلو فشل خميني في تقديم كل هذا والمزيد غيره، ربما سيأتي وقت يقف فيه هو أو خليفته متهماً أمام جماهير المدن كما وقف الشاه، وربما سيجد أن الجيش النظامي الذي ورثه عن النظام البهلوي، يغض النظر عن الخلاص المتعصّب للحرس الثوري، سوف لا يحميه من غضب الشعب، كما لبّى تلك الحاجة للشاه طويلاً ربما كان حكيماً بتركه غالبية

القوات المسلّحة تقاتل ضدّ عدو خارجي على بعد مئات الأميال من العاصمة.

لماذا فشلت الثورة البهلوية في النهاية، ولماذا كانت طيلة هذه السنوات بعد ذلك، وما تزال عرضة للهجوم المضاد من نفس القوى التي اتّحدت ضدّ الملوك القاجاريين لعدة سنوات مضت؟ يبدو أن الجوهر المزدوج لنجاح الثوار هو السرعة والقسوة. إن القوى التقليدية بجذورها العميقة في المجتمع كانت متماسكة ويصعب استئصالها. لقد عرف لينين وستالين هذا: وبذلك وقعت المذبحة القاسية وعزلت العناصر المناوئة كالقساوسة والكولاكيين (المزارعين الأثرياء في روسيا) والأقليات القومية مثل الشيشيين والأنكويش لقد أزيل أي شخص ربما يهدد الحكم السوفياتي، بغض النظر عن كثرتهم ولدى نهاية حرب أهلية دامية كان القادة السوفيات يمتلكون أدوات تحت تصرفهم لا تتردد في تحقيق أمنيتهم. لقد كان رضا شاه في وضع مختلف كلياً. كان شخصياً رجلاً ذا شجاعة وحضور مادي يثير الرعب. كان يعرف أعداءه ولا يتردد في سحقهم كيفما شاء ومتى شاء ذلك. ويشهد على ذلك العديد من السياسيين المنشقّين، ورجال الدين المحرضين على الفتن والقادة القبليين والعرقيين. ولكن كان عليه أن يتقدّم ببطء وحذر. كانت إيران في العشرينات من هذا القرن ضعيفة جداً ومتخلّفة جداً وتنقصها الموارد (حيث كانت عوائدها من حقول النفط التي تمتلكه بريطانيا في الجنوب تافهة مقارنة بحاجة بلاد تبلغ حجم أوروبا الغربية)، التي تمكن رضا شاه من إيجاد تحوّل قوي وسريع عن اقتصاد العصور الوسطى الذي يعتمد على الزراعة والسوق إلى قاعدة صناعية حديثة. لم يكن مثل جاره كمال أتاتورك، يملك هالة البطل القومي التي ربما كانت ستمكّنه من استخدام سلطته لتدمير الدولة التي أنشأها رجال الدين الشيعة داخل دولة إيران. لقد باشر رضا شاه السير في هذه الاتجاهات في العشرين سنة قبل أن يجبر على

التنازل عن العرش عام ١٩٤١ لكن معظم طاقاته كانت تستهلك في إعادة توحيد الأقاليم تحت ظلّ حكومة مركزية وفي تشريع قانون أساسي ونظام يشمل البلاد لها. لقد قام كمال أتاتورك جاره الثوري الذي توفى قبل سنوات قلائل من تنحية رضا شاه عن العرش، بشقّ طريقه بصورة أعمق. فقد كان يمضي بميزتين رئيستين / الأولى مكانته كبطل ثوري، والثانية: الجيش التركي الذي كان على استعداد دائم لأن يتبع بطلاً قومياً. لقد كان رجال الدين السنّة المسلمون عدواً أقلّ إثارة للرعب من أمثالهم الشيعة وكانت تركيا متطوّرة اجتماعياً واقتصادياً أكثر من إيران عندما أمسك أتاتورك ورضا شاه السلطة في بلديهما على التوالي. ورغم ذلك، فقد جاء ردّ فعل تركيا في الخمسينات وأستمرّ حتى اليوم. لكن الجمهورية التركية ربما كانت قوية بما فيه الكفاية لتستمرّ دون تنازل عن برنامج أتاتورك الثوري ففي حالة رضا شاه، لم يكن قادراً على أن يفعل أكثر من أن يخدش سطح إيران قبل سقوطه عام ١٩٤١، فبمجرد قوته الشخصية استطاع أن يروّض متحدّيه التقليديين لكن خصومه كانوا ما يزالون سليمين وعلى استعداد لتهديد خليفته. لقد تبوأ محمّد رضا شاه العرش في ظروف لا تبشّر بالخير عندما كانت إيران تحتلّها الجيوش السوفياتية والبريطانية. لقد كان عليه أن يكرّس نفسه، بعد الحرب لتوحيد البلاد عن طريق دحر الانفصاليين الذين أوجدهم الاتحاد السوفياتي في كردستان وأذربيحان. ثم واجه بعد ذلك صراعاً طويلاً استمرّ ما يقرب من عشرين سنة، من أجل بناء سطوة شخصية. ولم يشعر أنه قادر على مواصلة التقدّم الثوري الذي بدأه أبوه بصورة حرّة حتى بداية الستينات. ومع ذلك، حتى خلال الخمس عشر سنة الأخيرة من سلطته المتحرّرة من القيود، ورغم كل إحساسه اليائس بالعجلة ومضاعفة السرعة بعد ارتفاع سعر النفط عام ١٩٧٣، فقد عجز عن تحقيق الاهداف التي كانت ستحيّد خصومه العنيدين، رجال الدين، لقد حقّق عدداً من الأهداف الثورية فعلاً مثل

سحق سلطة ملّاك الأرض ورؤوساء القبائل، وخلق طبقة جديدة من المقاولين والتقنوقراطيين، وإنشاء قاعدة صناعية للاقتصاد. ولكن بما أنه لم تكن لديه القوّة أو الرغبة لتدمير مجمل المؤسّسات الدينية مادياً، كما فعل الروس في ظروف مماثلة، أصبح إبدال اقتصاد السوق بقطاع اقتصادي حديث أهمّ أهدافه. فلو كان قد استطاع أن يخفض القوّة الاقتصادية للسوق إلى أجزاء غير مهمّة، لكان رجال الدين في ضائقة مالية. تنظيمهم شبه رسمي أو أجبر على تحصيل مساعداته المالية من مؤسّسات أخرى كالحكومة نفسها أو المستثمرين الغربيين، ، والذي كان سيعلن الموقف بدلاً من المساهمة بحلم في الضغط الثوري المضاد للملالي المتطرّفين. وعلى كل حال، لم يتمكّن الشاه مطلقاً من تحجيم القطاع التقليدي للاقتصاد إلى أقلّ من ٧٠٪ من مجمله بسبب من نقص الموارد وبسبب ضيق الوقت وقلّة القوى العاملة ذات الخبرة لاحقاً. وبالإضافة إلى ذلك، فقد وجّه السافاك، في السنوات الأخيرة، أقسى المعاملة للطلبة (وهكذا أبعد جمهوراً كان من الممكن أن يكون جمهوراً مهمًّا للشاه)، وللشيوعيين (وهم مصدر تهديد مهمّ نسبياً) وللمنشقّين من البروليتاريا الصناعية الحديثة (ربما كانوا أكثر مؤيدي الشاه حماسة). يبدو أنه قد أشمل الاتحاد القوي بين السوق ورجال الدين بشكل كبير وحسبه غير جدير بالاهتمام وذلك هو الذي دمّر مجمل النظام في النهاية.

قد أضاع الشاه فرصة سانحة في تردده في الاختيار بين مسلكين. لم يكن قاسياً بما يكفي لتدمير رجال الدين حتى في ذروة سلطته، ولم يستطيع تحويل المجتمع الإيراني بسرعة كافية لتحييدهم. لقد كان منشغلاً في سباق لا يلين، وحسب بعد عام ١٩٧٣ أنه يمتلك الوسيلة ليسبق قوى ردّ الفعل الإيراني، لكنه فشل. لقد أدركوه في النهاية، لمّا دارت المعركة، أظهرت أن أثر الثورة البهلوية كان ظاهرياً جداً بحيث أن الجماهير المدنية فضلت اللجوء إلى القيادة التي مثلت ماضيها الإسلامي وجذورها التي

تعود إلى الشرق الأوسط، بدلاً من تأييد الرجل الذي كان يحاول جاهداً أن يحوّلهم إلى شيء ما هم ليسوا منه بشيء. تنحّى جمهور الشاه جانباً، بعد أن ضعف ولاؤه بسبب التضخّم إلى أن بقي وحيداً مع قواته المسلّحة هي الأخرى في النهاية، وهكذا تأكدت المقولة التي مفادها أن هنالك حداً للإذعان الشعبي، حتى في أكثر الدكتاتوريات استبداداً، لا يتوقع بعده أي نظام أن يستمرّ.

فهرس المحتويات



قبل أن يتولّى السيد أنثوني بارسونز مؤلف هذا الكتاب منصب اخر سفير بريطاني في طهران من عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٩ الذي غادرها بعد أيام قلائل من هروب الشاه وعائلته إلى منفاهم في مصر، كان شاهداً على سقوط السلطة البهلوية، وقيام الثورة الشعبية التي قادها آية الله الإمام الخميني.

شغل منصب السكرتير الثاني لدائرة الخارجية والكومنولث. فقد عمل سابقاً في أنقرة وعمان والقاهرة والخرطوم والبحرين. بصفته سفيراً للأمم المتحدة من عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٢ لعب دوراً رائداً في النشاط الدبلوماسي الخاص بنزاع جزر الفوكلاند. بعد ذلك عمل مستشاراً للشؤون الخارجية لرئيسة وزراء بريطانيا السيدة تاتشر إلى حين تقاعده نهاية عام ١٩٨٣.

الناشر